رواية رعب وفانتازيا في أجواء عربية!!.

اسطورة عربية..

الشفق الأسود..

عمرو المنوفي - اسلام ادريس

الكتاب الشفق الأسود

المؤلف : عمرو المنوفي - اسلام ادريس

الطبعة الأولى ٢٠١٢

دار الحلم للنشر والتوزيع

القاهرة ،4ش الأشراف- تقسيم العسال- شارع

مؤسسة الزكاة – المرج

موبايل :

01141824562

:E-Mail

dar_el7elm@Hotmail.com

المدير العام :

د/ اسلام فتحي

تصميم الغلاف :

أسامة علام

الإخراج الداخلي :

elpostagy.com

رقم الايداع : ٢٠١٢/١٦٢٤٩

الترقيم الدولي : ٤-٠٦ -٦٤١٢- ٩٧٧- ٩٧٨

تمهيد

أن يفقد الوعي.. أن يموت وحيدًا في هذه الصحراء الموحشة.. أن تكلَّل رحلته الطويلة بالفشل.. هذا هو ما يخشاه..

الظلام يسيطر على كل شيء حوله، والقمر اختفى نصفه خلف غمامة سوداء قاتمة، وما ظهر من ضوئه الفضي لم يكن باعثًا إلا على الخوف والضياع والألم..

حلقه جاف كصحراء قاحلة لم تعرف المطر سنوات طويلة، وبرودة الصحراء تنخر في عظامه وتكاد تخترقها بلا رحمة، وفي كل جزء من جسده انبعثت آلام رهيبة لا تطاق..

رفع عينيه المجهدتين نحو السماء، تعلقتا بالنجوم التي كان واثقا من أنها تعابثه وتأبى إلا أن تزيد من ضياعه في الصحراء.. إنه واثق من أنه كان يسير في الاتجاه الصحيح.. تلك الكاهنة العجوز التي قابلها في الطريق أكدت له أن يواصل سيره جنوبا، وبعد مسيرة ثلاثة أيام سيبلغ وجهته التي غادر أهله وعشيرته سعيًا وراءها، فهل كانت المرأة تضلله، تعبث به حتى يضيع في هذا التيه؟! ولكن لماذا فعلت هذا؟! أسئلة من الحماقة أن يبحث عن إجابات لها في الوقت الراهن!

ظهرت ثيابه رثة وممزقة في أكثر من موضع، وتشقق باطن قدميه، وتعثرت خطواته على الرمال الناعمة الباردة، ولولا العصا الخشبية التي يستند عليها لانهار فاقدًا القدرة على الحركة!

«لا ترحل.. أتوسل إليك!».

كان رجاءها وهو يستعد للرحيل.. عيناها السوداوان مغرورقتان بدموع حارة.. ويكاد يسمع وجيب قلبها الملتاع من أجله، لكنه ليس بقادر على التراجع.. ليس الآن؛ فالرحيل كان حتميا، وهي تعلم ذلك جيدا.

«ابق ولا ترحل بحق الآلهة.. أنا بحاجة إليك.. طفلك القادم بحاجة إليك، لماذا أنت مصر على إيلامي؟!».

ازدرد ريقه بصعوبة، أخذ نفسا عميقا قبل أن يقول مشيحا بوجهه:

«أنت تعلمين أنني لا أريد تركك هنا، لكن ذهابي هناك أمر حتمي.. من أجل الجميع».

اتسعت عيناها وهي تقول:

«ولماذا أنت بالذات؟! لماذا لا يذهب أي فارس آخر بدلا منك؟!».

نظر إليها قليلا.. آلمته دموعها التي غلبتها وانحدرت على وجنتيها.. مد يده يمسحها وقال بلهجة حانية:

«أنت تعلمين أن الاختيار ليس ترفا أملكه يا قرة العين.. أنا الشخص الذي اختارته الأقدار لإنجاز هذه المهمة».

وربت وجهها برفق قبل أن يقول:

«لا تقلقي عليَّ.. سأعود إليك سالما».

هزت رأسها وقالت وهي توليه ظهرها:

«لن تعود.. أنا واثقة من هذا.. الطريق لا يحمل لك إلا الموت.. لقد حلمت بهذا.. لن تعود إليَّ.. لن تعود كمن سبقوك.. لن تعود».

«آآآآآآه»..

أفلتت من بين شفتيه.. رفع عينيه إلى السماء، رفع يدا مرتجفة وهو يقول:

«أيتها الآلهة.. رحماك.. رحماك.. لماذا تقسين عليَّ؟! أنا خادمك المخلص».

توقف عن السير.. أخذ يدور بعينيه في كل اتجاه.. كل شيء من حوله متشابه.. الرمال الممتدة أمام ناظريه وكأنها بلا نهاية.. الكثبان المتناثرة هنا وهناك.. والبرودة القاسية التي تنهشه بقسوة.. بلا رحمة.. وبلا هوادة.

«آآآووووووووووووووو».

اتسعت عيناه عن آخرهما عندما سمع العواء يتردد من حوله، وفي جسده سرت رجفة قوية.. هذا العواء الرهيب.. إنها ليست أول مرة يسمعه فيها.. لقد سمعه من يومين.. من المستحيل أن يكون هذا واحدا من ذئاب الصحراء الجائعة.. إنه عواء يخص شيئا آخر أكثر شرا وخطورة، فأي شيء عساه يكون يا ترى؟!

فجأة هبت في وجهه ريح باردة.. ريح قوية ألقته على ظهره، فشعر بالألم يزداد في جسده.. وبكل شبر فيه يرتجف فرقا!

«آآآآآآووووووووووو.. لقد جئت إلى حتفك أيها البشري الفاني.. جئت إلى الموت بمحض إرادتك».

هز رأسه يمنة ويسرة، تفجرت الدموع من عينيه، وقال بصوت مبحوح:

«لم آتِ إلى هنا لأموت.. لم آتِ إلى هنا لأموت.. لقد جئت تبعا لمشيئة الآلهة».

ترددت من حوله ضحكة عالية، وتبعها صوت يقول:
«ما من بشري يأتي إلى هذا المكان ويطلب حياة أيها البشري.. هنا أرض الموت.. هنا حيث اللاعودة، الفناء هو مصير كل من يطأ بقدمه هذه البقعة من الأرض، وبقدومك إلى هنا حكمت على نفسك بالموت!».
حاول أن يعتدل، ولكن هبَّة أخرى من الرياح الباردة أجبرته على الاستلقاء على ظهره فوق الرمال الباردة، وجسده ينتفض بقوة!
«آآآآآووووووو.. استعد للموت أيها البشري!».

* * *

أن يفقد الوعي.. أن يموت وحيدا في هذه الصحراء الموحشة.. وتكلل رحلته الطويلة بالفشل.. هذا هو ما يخشاه..

* * *

(١)

لماذا يجافيه النوم هذه الليلة بالذات؟! هل كان الطعام الثقيل هو السبب؟! هل هو غياب والده الذي طال والذي يخبره حدسه بأنه لن يعود مجددا؟ ربما ليس حدسا تماما، لكن ما التفسير الصحيح لعدم عودته حتى الآن من تلك الرحلة المجهولة التي خرج فيها؟!

لا يهم السبب الآن.. المهم أنه لا يستطيع أن ينام!

أصبح الفراش - على الرغم من دفئه - معاديا له، ولم يعد جسده يتحمله وكأنه ينام فوق فراش من أشواك..

تقلب فوق فراشه المحشو بالقش، الذي أحضره والده معه في رحلة الصيف الماضية حتى بات واضحا له أنه لن يحظى بالنوم بسهولة هذه الليلة..

فليغادر الخيمة الآن بعد أن يتدثر بشيء ثقيل يقيه برد الصحراء القارس..

فكَّر في أن يزور أمه في خيمتها البعيدة، لكنه تذكر تحذيرها الجاف الصارم بألا يزورها ليلا..

بالطبع لو كانت أمه سيدة عادية لتجاهل التحذير بلا تردد.. ولذهب إليها طلبا للصحبة..

ولكن من يستطيع أن يعصي أمر الكاهنة الكبرى التي يرتجف أمامها أشجع الرجال وأكثرهم ثراء ونفوذا؟!

بالطبع لا أحد..

غادر الخيمة في ضيق وهو يلف رداء كتانيا خشنا باهت اللون حول جسده، وخرج إلى الصحراء التي يكسوها سواد الليل ويغطيها المجهول برداء الرهبة لتقابله الريح بصفعه هائلة على وجهه بما تحمله من رمال لتجعله يتراجع مبهوتا وهو يرفع يديه ليغطي وجهه وعينيه وليتقي تلك الريح المفاجئة..

قرر أن يعود إلى داخل خيمته، وقبل أن يشرع في تنفيذ الأمر ألقى نظرة خاطفة باتجاه الخيمة البعيدة التي تقطنها والدته الكاهنة الكبرى، ثم تسمر في مكانه كالمأخوذ، ولم يلتفت للرداء وهو يسقط من فوق جسده..

لم يعد يشعر بالبرد ولا بالرياح ولا بالرمال التي تكالبت على وجهه لتمزق بشرته..
تجمَّد بصره على الخيمة البعيدة، التي تبدو من فرط ضيائها كشمس وليدة تتربع فوق رمال الصحراء..
ثم عصفت به التساؤلات مع ذلك المشهد المبهر للخيمة التي تبدو كشمس ساطعة وسط ليل الصحراء البهيم:
ماذا أصاب الخيمة؟! كيف تتوهج بهذا الضياء المبهر؟! بل كيف يكون هناك ضياء مثل هذا الضياء الساطع دون أن يكون هناك أثر لأي نار؟!
آلمته الرمال بشدة وشوَّشت له الرؤية حتى كادت تفقده البصر..
اندفع عائدا إلى الخيمة وهو في حالة من الذهول..
الخيمة التي ظلت ثابتة دافئة على الرغم من البرد القارس والرياح العاصفة من حولها، وكأن ما يحدث لا علاقة له بها أو بكونها مجرد خيمة هزيلة..
نفض ثيابه من الرمال وغسل وجهه ببعض الماء الدافئ ثم جلس قليلا حتى يفارقه روعه وفي عقله نبتت فكرة واحدة كشجرة عميقة الجذور..
يجب أن يرى ما يحدث..
لن يطيب له العيش لو مرَّ الأمر بمثل هذه البساطة.. إن والدته ساحرة وهذه الأمور قد تكون معتادة، لكن ما رآه جعله يوقن بأن الأمر يتجاوز هذا بكثير!!
لقد شاهد الشمس تشرق من خيمة والدته، ومن تستطيع أن تجعل الشمس تشرق ليلا تستطيع فعل كل شيء آخر..
ودوى سؤال آخر في رأسه: كيف لم تستطع الكاهنة الكبرى أن تعرف مصير زوجها على الرغم ممَّا تملكه من قوة وسحر؟ ربما هي تعرف ولا تريد أن تخبره، وربما هي من صنعت له مصيره، فلا شيء بعيدا عمَّن تملك مثل قوتها وسحرها..
تدثر ببساط سميك صُنع من جلد الحيوانات ثم ارتشف بعض الماء من القربة الجلدية المعلقة على قائمين خشبيين ثم نظر نحو مدخل الخيمة بخوف ثم تقدم في وجل..
لم تكن الرياح عادية أبدا.. كانت تتصرف بجنون ونزق وكأنها تأتي من جميع الاتجاهات..
غطى وجهه بجزء من غطاء الرأس واندفع يسير بصعوبة نحو مصدر الضوء..
قدماه تغوصان في الرمال.. والتنفس يصبح عسيرا مع كل خطوة يخطوها.. قطع مسافة قصيرة في وقت طويل..
ومع الوقت بدأ يشعر بحماقة ما هو مقدم عليه.. وبدأت عزيمته تفتر وحماسه يقل..

نظر خلفه بصعوبة عبر غطاء الرأس الذي يخفي وجهه نحو خيمته فلم يرها وكأنها اختفت أو أصبحت خيطا خفيا في رداء الليل الدامس..

خفق قلبه في شدة وسرت رعدة باردة في جسده فكادت تزهق روحه.. نظر إلى الأمام بخوف والرياح تكاد تقتلعه من الأرض اقتلاعا..

خطت قدماه بصعوبة في اتجاه الخيمة.. الرياح تصفعه والصقيع يتسلل إلى عظامه ليجعل تقدمه مؤلما..

نظر بصعوبة عبر الغطاء الذي يخفي وجهه مهتديا بالضوء الساطع للخيمة.. لينتعش الأمل في قلبه من جديد..

ظهرت الخيمة أمامه فجأة، ولا يفصله عنها إلا خطوات قليلة.. استنفر إرادته وقطع هذه الخطوات.. لتنطلق صرخة هائلة مفزعة.. جعلته يسقط أرضا متألما وهو يضع كفيه فوق أذنيه وهو يردد:

«الغوث أيتها الآلهة».

وطوال ساعة كاملة لم تتوقف الصرخات المفزعة لحظة واحدة، لكن بعد مرور الساعة خفت حدتها.. ومعها هدأت الرياح..

سقط جاثيا على ركبتيه منهكا محطما والخوف يتسلل مع البرد إلى كيانه ليغتال كل ذرة من ذرات الثقة تجمعت بداخله ذات يوم..

ظل يرتجف لدقائق كالمحموم والدموع المالحة تتساقط من عينيه في غزارة.. وهو يؤنب نفسه لدقائق إضافية على رعونته قبل أن يسود الهدوء تماما ويستحيل الضوء الساطع الأصفر إلى ضوء فضي بارد أقرب إلى ضوء القمر..

أنصت بخوف شديد وعيناه المذعورتان تجوبان كل مكان.. فسمع همهمات كثيرة وكأنه حوار غاضب يدور بين شخصين، ممتزج بأنين شخص ثالث..

كان يريد أن يطلق العنان لساقيه ويعود لخيمته الدافئة، لكن فضوله - مع بصيص من الشجاعة التي تسللت إليه، مع هدوء الصحراء من حوله - جعله يغير من تفكيره..

قرر أن يتجسس على والدته.. التي لن ترحمه لمجرد كونه ابنها الذي خرج من رحمها..

أخرج خنجره الحاد من نطاقه ثم شق - بهدوء وحذر شديدين - في قماش الخيمة شقا صغيرا، ومن هذا الشق بدأ يتطلع للهول المجسد الذي تخفيه أستار الخيمة..

في قلب الخيمة جلست الكاهنة الكبرى وقد غطى وجهها دهان أسود لامع وأمامها كير مشتعل يُحمَى فوقه عدد من الأسياخ المعدنية مع إناء عجيب تتصاعد منه أبخرة باهتة وأمامها مباشرة

يتجسد كيان شبحي غير واضح الملامح.. شيء بشع الخلقة يتحدث معها بغضب وخوف..
كان المشهد وحده يكفي ليقضي نحبه رعبا، لكن فضوله جعله يتحمل ما لم يره بدوي آخر غيره..
إنه يرى - ولأول مرة - جنيا على هيئته الحقيقية وليس بعد تقمصه لهيئة بشرية..
يراه وهو متجسد ذليل بين يدي الكاهنة الكبرى..
يراه وهو يُكوَى بالحديد والنار ليجيب عن أسئلتها..
رآه وهو يتألم وتتصاعد من جسده المحترق أبخرة ذات رائحة مريعة..
ولكن ما جعله يفقد الوعي هو مشهد والده..
نعم.. والده..
لقد ظهر والده أخيرا.. ظهر معلقا من قدميه في ركن الخيمة.. عاريا كالذبيحة..
لقد أنهت الكاهنة حديثها مع الجني بتلك اللغة المجهولة ثم صرفته وتوجهت من فورها نحو ركن الخيمة..
كانت الرؤية متعذرة فوضع طرف خنجره في الشق ليتسع مجال الرؤية أكثر..
ليصدمه مشهد والده العاري وأمه تقترب منه بخطوات وئيدة وفي يدها خنجر صغير..
ومع مرور النصل الحاد على رقبة والده وانبثاق الدم من عنقه ليهبط بداخل الإناء المعد لاستقباله.. زاغت الرؤية في عينيه و...
فقد الوعي..

* * *

استعاد سهم وعيه بغتة، فتح عينيه بصعوبة، فأفلتت من حلقه شهقة قوية أحس معها وكأن روحه ستنخلع من جسده، وللوهلة الأولى شعر بالارتباك والاضطراب يعصفان بكل ذرة في كيانه، نظر حوله في ذهول ليصطدم بصره بمحتويات خيمته التي يعرفها جيدا.. والتي تركها خلفه بالأمس القريب.. ليجد نفسه راقدا على فراش القش في خيمته، ووهج الشمس الحارق يتسلل إليه عبر مدخلها المفتوح!!
ما الذي يحدث بحق كل الآلهة التي يعرفها والتي لا يعرفها؟! هل أصيب بالجنون أم أنه واهم؟! هل ما مر به في الليل كان مجرد كابوس آخر أصابه من جراء الطعام الثقيل الذي أفرط في تناوله ليلة أمس؟! وماذا عن خيمة أمه الكاهنة الكبرى وتألقها العجيب في قلب الظلام؟!

وماذا عن الهول الذي رآه داخل الخيمة؟! هل كان مجرد وهم رسمه خياله؟! الجني بهيئته الشبحية المخيفة وهو يتلقى العقاب من أمه بكيِّه بتلك الأسياخ الحديدية المحميَّة.. هل كان وهما؟! وجسد والده العاري والمعلق من ساقيه كالذبيحة هل هو وهم آخر؟! وأمه.. أمه التي مررت خنجرها على عنق والده لتسيل دماؤه في إناء بدا معدًّا لهذا الغرض.. أمن المعقول أن تكون كل هذه التفاصيل المروعة التي عاشها مجرد وهم أو أضغاث أحلام؟!

«كلا.. إنها حقيقة.. أنت تعلم أنك لم تكن تحلم.. لم تراودك الكوابيس من قبل أبدا!».

ترددت العبارة في رأسه بصوت بدا وكأنه آتٍ من أغوار سحيقة؛ فهز سهم رأسه بقوة، واتسعت عيناه عن آخرهما، وأخذ يلهث على نحو عجيب وكأنه قد توقف للتوِّ عن عدوٍ طويل، وراح قلبه يخفق بقوة بين ضلوعه وكأنه يروم الهروب من مكانه للأبد!

«أمك سدوم امرأة رهيبة.. لقد أرسلت والدك إلى حتفه.. إنها تسخر الجن لخدمة أغراضها الشريرة.. إنها امرأة لا يحمل وجودها للقبيلة إلا الشؤم والهلاك».

عاد ذلك الصوت يتردد في رأسه مجددا، فأخذ يتلفت يمنة ويسرة، وكأنه يخشى أن تسمع أمه أفكاره، وسرت في جسده رجفة وهو يسأل نفسه:

«هل علمت أمه بأنه كان يتجسس عليها ليلة البارحة؟! هل اكتشفت أنه قد رأى ما فعلته بذلك الجني وبوالده؟!».

«لماذا يا أمي؟! لماذا تفعلين هذا بأبي؟!».

قالها سهم بصوت مرتجف ودموعه تفلت من مقلتيه وتسيل على وجهه، فيحس وكأنها نار تحرق روحه بلا رحمة.. وبلا هوادة!

أخذ نفسا عميقا ملأ به صدره محاولا السيطرة على مشاعر الخوف المضطرمة في صدره، ومد يده يمسح دموعه قبل أن يقول:

«اهدأ يا سهم.. اهدأ وفكر كيف يمكن أن تتصرف.. اهدأ وفكر».

ومرت لحظات من الصمت استحال فيها سهم إلى تمثال من الحجر وقد أسبل جفنيه، وراح صدره يعلو ويهبط في تنفس بطيء عميق قبل أن...

«سيدي سهم.. أما زلت نائما؟!».

أتاه الصوت من وراء ستار الخيمة، ففتح عينيه وقال:

«كلا يا صهيب.. لقد استيقظت منذ قليل.. ماذا وراءك؟».

أتاه صوت المدعو صهيب ليقول:

«سيدتي الكاهنة الكبرى تطلبك في خيمتها يا سيدي.. تريدك على وجه السرعة».

نطق صهيب الجزء الأخير من عبارته بلهجة مرتجفة، فتوترت ملامح سهم، وعادت نفسه إلى سابق اضطرابها وهو يقول:

«حسنا يا صهيب.. سأذهب إليها حالا.. يمكنك أن تذهب».

أتاه صوت صهيب يقول بارتياح شديد:

«أشكرك كثيرا يا سيدي سهم.. حفظتك الآلهة من كل سوء.. حفظتك الآلهة من كل سوء».

قالها وأسرع يبتعد عن الخيمة، تاركا سيده نهبا للقلق والخوف من جديد..

«ما الذي تريدينه مني يا أمي؟! هل تريدين معاقبتي لأني تجسست عليك وكشفت ما تفعلينه في ظلام الليل؟!».

ولم يدر سهم أن لقاءه أمه الكاهنة سدوم سيقلب حياته رأسا على عقب!!

* * *

(٢)

هبت الأميرة عالية من نومها فزعة وهي تطلق من حلقها صرخة قوية هادرة، وعيناها الحمراوان متسعتان عن آخرهما، وقلبها يدق بقوة بين ضلوعها، والعرق يتصبب غزيرا على وجهها، وراحت تتلفت حولها في خوف مجيلة بصرها في جنبات جناحها الواسع بالقصر الكبير في قلب المدينة، الذي حجبت عنه الأستار الثقيلة على النوافذ ضوء الشمس عدا نزر يسير تسلل إلى الجناح ليضيء الأرضية المصنوعة من حجارة بيضاء مصقولة.

«مولاتي.. بحق الآلهة.. ما الذي أصابك؟!».

قالتها جارية نحيلة ذات بشرة سوداء لامعة وشعر قصير مجعد بلهجة قلقة وهي تندفع إلى فراش الأميرة الوثير، وتجلس على طرفه وهي تناول الأميرة جرعة ماء من إناء ذهبي محلى بالنقوش البديعة.

كانت الأميرة عالية في نهاية العقد الثاني من العمر، لها جسد ضئيل، وملامح رقيقة شفافة، عيناها سوداوان، بشرتها خمرية، أنفها العربي شامخ في كبرياء، وشعرها الأسود كليل بهيم ينسدل على ظهرها في غير نظام وقد التصقت خصلات منه بجبينها الذي غمره العرق.

«إنه كابوس مريع يا آطام.. مفزع إلى أقصى حد».

قالتها الأميرة عالية وهي تلقي بنفسها بين ذراعي الجارية التي تولت تربيتها بعد موت أمها وهي ما زالت طفلة في الرابعة من عمرها، والتي جلبها حزقيل اليهودي كهدية لم تتكرر للملك..

ربتت الجارية آطام ظهر الأميرة وقالت تسألها:

«أي كابوس هذا حفظتك الآلهة من الشر يا مولاتي؟ ألا تخبرين جاريتك الأثيرة آطام علَّها تقدر على المساعدة؟».

ارتجف جسد الأميرة وهي بين ذراعي آطام، وأخذت تستعيد تفاصيل ذلك الكابوس الرهيب في مخيلتها، فعاد جسدها يرتجف من جديد وهي تقول:

«إنه كابوس فظيع يا آطام.. فظيع!!».

ضمتها آطام إلى صدرها أكثر وهي تقول:

«لا تحكيه إذا أردت يا مولاتي، و...».

قاطعتها الأميرة عالية قائلة وهي تبتعد عنها قليلا:

«كلا يا آطام.. أنا بحاجة إلى من أفضي إليه بتفاصيل هذا الكابوس الرهيب».

ربتت آطام وجنة الأميرة بحنو بالغ وقالت:

«كلي آذان مصغية يا مولاتي.. هاتِ ما عندك».

ازدردت الأميرة عالية ريقها بصوت مسموع قبل أن تقول:

«صحراء شاسعة يا آطام تلك التي وجدت نفسي فيها وحيدة.. الحرارة قاتلة.. الرمال جمرات مشتعلة تحت قدمي.. والعطش والخوف يكادان يفتكان بي.. كنت أسير نحو مكان عجيب وكأن قوة تجذبني إليه.. كل ذرة في كياني كانت ترتجف فرقا، وتصرخ بي أن أعود من حيث أتيت، ولكن قدميَّ أبتا إلا أن تقوداني إلى هناك».

وصمتت لحظة قبل أن تقول وهي تضم كفيها معا في حجرها:

«وفجأة أحاط بي ظلام دامس مخيف.. وكأن الغمام الداكن قد غطى وجه الشمس.. وشعرت برياح باردة قاسية تهب في وجهي وتكاد تجمد أطرافي.. ورأيته هناك فوق قمة جبل مرتفع.. شيء رهيب لا أدري بأي كلمات أصفه لك يا آطام.. شيء مريع ذو ملامح بشعة.. بدا وكأنه قطعة وقد انفصلت من ذلك الظلام الذي أحاط بكل شيء.. له أنياب رهيبة تبلغ منتصف صدره طولا، ولكن الأبشع هو ذلك الجسد الذي كان يحمله بين يديه ويمزقه بهذه الأنياب بلا رحمة، والدماء تتناثر في كل مكان، حتى شعرت بها على وجهي وجسدي.. كان هذا الجسد الممزق جسد أبي الملك غالب، وقفت لحظتها متسمرة في مكاني وكأنما أصابني الشلل، وراح جسدي يرتجف بقوة بالغة.. وأخيرا نظر إليَّ ذلك الشيء الوحشي، وبصوت رهيب جمد الدماء في عروقي قال:

أنت التالية أيتها البشرية الفانية.. كل من يأتي إلى هنا يهلك، ويكون الموت مصيره الوحيد، و.. و.. و...».

انفجرت الأميرة عالية في بكاء حار، وراح جسدها يرتجف في عنف، ومرت لحظات وآطام تربت ظهرها برفق حتى سكن روعها قليلا، ورفعت عينين دامعتين إلى الجارية وقالت تسألها:

«هل أنت قادرة على تفسير هذا الكابوس يا آطام؟».

تقطب جبين آطام، ومرت لحظات من الصمت قبل أن تنفرج شفتاها لتقول:

«قد لا أعرف كيف أفسره يا مولاتي».

واستدركت بسرعة لما رأت خيبة الأمل تلوح على وجه الأميرة:
«ولكني حتما أعرف من هو قادر على المساعدة».
تشبثت بها الأميرة وقالت تسألها:
«من يا آطام؟! من؟!».
زفرت آطام بقوة قبل أن تقول:
«حزقيل.. الساحر اليهودي حزقيل يا مولاتي».

* * *

تواروا جميعا خلف بعض الكثبان الرملية العالية بعد أن أخفوا آثارهم المتخلفة عن مرورهم عبر طريق القوافل.. إنهم يجيدون هذا الأمر تماما.. كما يجيدون اقتفاء الأثر.. إن الحياة في الصحراء تصقل خبرات المرء وتكسبه مهارات بلا حدود..
كانوا مجموعة من المقاتلين المهرة نبذتهم قبائلهم فتجمعوا معا كيدٍ واحدة باطشة مهمتها الوحيدة هي إقلاق القبائل وسلب خيراتها..
مجموعة من قُطاع الطرق لو توخينا الدقة في تسميتهم.. لكنهم لم يمتهنوا هذه المهنة بغرض الثراء أو الحصول على المال بوسيلة أسهل، لكن جمعهم ذلك السم الأسود الذي يسري في عروق المنبوذين: الانتقام..
أطلقوا على أنفسهم «أبناء الصحراء» واحتوتهم الصحراء كصدر أم حنون ومنحتهم الصلابة والأمان والمأوى.. حتى أصبحوا كالأشباح يمتزجون برمال الصحراء فلا يعثر عليهم إنس ولا جان..
واليوم هو موعد عودة قافلة عقيل الجرهمي، أحد زعماء قبيلة جرهم وأشدهم ثراء.. وهذه القافلة المعنية بالأمر تعد أكبر قافلة تجارية خلال الأعوام العشرة الأخيرة، وقد استقوا أخبارها عبر جواسيسهم المتناثرين في كل القبائل.. الخدم والعبيد..
الاستيلاء على هذه القافلة الضخمة سيعد ضربة قاصمة للتجارة هذا العام وسيكون الانتقام هذه المرة مدويا.. ولن يتعافى القوم من هذه الضربة قبل وقت طويل..
لذا تراهم عن بكرة أبيهم متجمعين خلف الكثبان الرملية، وكل منهم يخفي وجهه بلثام ثقيل ويده على مقبض سيفه في استعداد تام.. لم يتركوا خلفهم إلا نفرا قليلا لحماية أسلابهم السابقة..
وعلى الرغم من أن الوصول إلى مقرهم في متاهة الجبال يكاد يكون مستحيلا، لكن الحذر في مثل هذا الأمر يدل على حصافة وذكاء وحسن تخطيط..

نظر كبيرهم إليهم في فخر شديد، ثم نظر نحو الشمس الساطعة ورفع يده وكوَّرها بطريقة معينة وعن طريق ظل إحدى السبابتين الواقع على الأخرى قدر الوقت ثم أشار إلى أحد الفرسان الملثمين الذي هبط على الفور من فوق جواده القوي ثم جثا على ركبتيه ووضع أذنه فوق الرمال الملتهبة وصمت للحظات ثم رفع رأسه ووجه حديثه لكبيرهم:

«إنهم الآن يعبرون المنعطف الجبلي الأخير».

أشار له كبيرهم بأن يعتلي صهوة جواده، وأشار للجميع بالاستعداد فأشهروا جميعا سيوفهم التي لمعت بالموت تحت أشعة السماء الحارقة.. كانوا جميعا يحملون السيوف البتَّارة عدا فارس واحد ضخم الجثة أسود البشرة كان يحمل في يده الضخمة هراوة هائلة الحجم رفعها إلى أعلى في حماس.. فاهتزت في يديه طربا وسعادة بالمعركة التي أوشكت..

أدار كبيرهم صهوة جواده حتى واجه مقاتليه المتأهبين الذين يلتمع الشر في عيونهم الجشعة وقال بصوت جهوري وبلهجة عربية غليظة:

«اليوم لتمُتْ الرحمة في قلوبكم.. لا تبقوا إلا الأسلاب والماشية.. أريد أن تصل رسالتنا اليوم كاملة إلى القبائل كلها.. أبناء الصحراء لا ينسون ثأرهم أبدا».

رفعوا أسلحتهم إلى أعلى في حماسة دون أن يصدر عنهم أي صوت قد يكشف عن أمرهم وإن ظهر في عيونهم بريق تصميم وجذل.. يدل على استمتاعهم التام بما سيقومون به..

مرت دقائق قليلة ثم ظهرت بوادر القافلة الضخمة أمامهم، يسير في مقدمتها مجموعة من الفرسان شاكي السلاح، ويتوزع مثلهم في المنتصف والخلف.. وعلى الفور تواروا جميعهم خلف الكثبان الرملية أكثر حتى لا يشعر بهم الفرسان الذين يقومون على حماية القافلة.. فهم يعتمدون في جميع هجماتهم على عنصر المفاجأة.. وهذا ما يجعلهم يتغلبون على خصومهم مهما كانوا يفوقونهم عددا وعدة؛ فالقوافل لا تسير أبدا دون حراسة.. وقافلة تخص رجلا كعقيل الجرهمي لن تخلو حتما من فرسان أشداء يذودون عنها بأرواحهم..

نظر أبناء الصحراء إلى القافلة التي امتدت أمامهم على مرمى البصر بانبهار.. لقد سمعوا بضخامة هذه القافلة وثراء ما تحمله، لكنهم لم يتخيلوا أن تكون بمثل هذه الضخامة.. كما أن حراستها هائلة.. الكثير من الفرسان المدججين بالسلاح..

نظروا جميعا نحو كبيرهم ليستشيروه في الأمر.. فظهر التصميم الغاضب في عينيه.. ودون أن يتحدث ودون أن يترك لهم مجالا للتفكير.. انطلق بجواده كالسهم ليهاجم مؤخرة القافلة الغافلة.. ولم يتراجع رجاله أو يترددوا وتبعوه في حماسة وقد نفضوا عن قلوبهم أي خوف أو تردد أو قلق.. فطبيعتهم القاسية التي صهرتها شمس الصحراء جعلتهم ينسون كل شيء إلا

الانتقام.. فكان الحافز المثالي ليعود الحماس لنفوسهم المتوحشة..
كان الأمر في البداية مفاجئا لحامية القافلة من الفرسان؛ فهم لم يتوقعوا أن يأتي الغدر في مثل هذا المكان القريب من حدود أراضيهم وسطوة سيدهم.. لم يتوقعوا أنه ما زال هناك على وجه الأرض شخص - مهما كان جنونه - يجرؤ على التعرض لقافلة سيدهم عقيل الجرهمي.. لكن الأمر حدث، وقبل أن يستوعبوه كانت المفاجأة قد أخذتهم وفقدوا أثمن ما يمتلكون: حياتهم.. لم يكن قُطاع الطرق يبالون بالأعراف والقواعد العربية في القتال.. كانت سيوفهم الغادرة تغتال الفرسان من ظهورهم وتطيح بكل كائن حي في متناول سيوفهم.. ولم يكن الفرسان صيدا سهلا، وحاربوا بكل شجاعة، لكن المفاجأة كانت قد أخذتهم فأطاحت السيوف بأعناقهم وحطمت الهراوات رءوسهم واخترقت الرماح صدورهم بلا رحمة.
لم تكن معركة بقدر ما كانت اغتيالا وحشيا..
انطلقت الصرخات في عنف وتشتتت القافلة وانطلقت الجياد التي فقدت فرسانها إلى قلب الصحراء، والصراخ الوحشي لقطاع الطرق يزلزل كل شيء.. ولم يمض الكثير حتى أصبح فرسان المؤخرة جثثا هامدة تروي دماؤها رمال الصحراء بلونها الأحمر القاني!
منح هذا الانتصارُ الصغيرُ الثقةَ لأبناء الصحراء فكثَّفوا هجومهم على حامية المنتصف.. لكن عامل المفاجأة كان قد انتهى، وتكالب عليهم العشرات من الفرسان وساندهم فرسان المقدمة في قتالهم..
ارتفعت عاصفة الرمال الناتجة عن تحركات الجياد إلى عنان السماء، وانطلق بعض العبيد والجواري إلى قلب الصحراء والمجهول ليهربوا بجلدهم من مخالب الموت الهادرة..
وهم يصرخون في جزع: إنها قافلة ملعونة..
حمي وطيس المعركة واستبسل الجنود في الدفاع عن حياتهم وامتد الأمر لردح من الزمن.. وظهر أن المعركة ستطول أكثر.
ظلت كفة القتال متكافئة لبعض لوقت.. ثم بدأت تميل إلى كفة أبناء الصحراء.. فهم في كامل لياقتهم، بينما الفرسان الآخرون قد أنهكهم طول السفر..
في هذا الوقت وفي مقدمة القافلة تجمعت النساء والجواري ومن لا يقدرون على القتال حول بعير أسود يحمل فوق ظهره هودجا مغلقا وأخذوا يطلبون الغوث..
وفي منتصف القافلة كانت رحى المعركة تدور والأشلاء تتناثر والأطراف تُبتر والرقاب تُجتث من فوق الأجساد..
إن المعارك القديمة كانت أشد إفزاعا من معارك هذه الأيام.. حمَّامات من الدم والأشلاء أغرقت

الرمال فاصطبغت بها الصحراء في مشهد مؤلم.. فالسيوف المصقولة الحادة كانت تمزق وتشطر وتبتر دون هوادة.. كان مشهدا بشعا..

ومن داخل الهودج المستقر فوق ظهر البعير الأسود ظهر رأس خبيث لشيخ قبيح المنظر يبدو الهدوء على سحنته وكأنه لا يشعر بالمعركة الهائلة التي تدور رحاها والتي أصدرت ضجيجا يكاد يوقظ الموتى في قبورهم وقال بصوت رفيع:

«ماذا هناك؟! ماذا تريدون؟!».

انطلقت الأصوات الصاخبة وارتفعت الأيدي لتشير إلى ما يحدث:

«الغوث.. أبناء الصحراء.. قطاع الطرق».

أشار لهم باشمئزاز وقال لهم:

«تراجعوا.. تراجعوا»..

في هذه اللحظة كان أبناء الصحراء الذين فقدوا ثلثهم في المعركة قد أتموا مهمتهم وقضوا على الحامية بالكامل ومَن عاونهم مِن تجار.. واتجهوا من فورهم صوب التجمع الكبير الذي يحيط بالبعير الأسود..

ألقى حزقيل نظرة باردة على العبيد المذعورين الذين جثوا فوق الرمال أمامه، متجاهلين حرارتها الحارقة وهم يمرغون وجوههم في الرمال علامةً على الخنوع والتذلل لهذا العجوز ذي القدرات الرهيبة.. فمن ذا الذي لا يعرف حزقيل في الصحراء بأسرها؟! ومن لا يعرف لماذا استعان به عقيل الجرهمي حتى يرافق القافلة في رواحها وغدوها؟!

رفع حزقيل كفه المعروقة ذات الأظفار الطويلة وكأنها مخالب حادة، وأخذت شفتاه تدمدمان بلغة مجهولة بصوته الرفيع المنفر، واتسعت عيون أبناء الصحراء في ذعر، وجفلت الجياد عندما غطت وجه الشمس غيامة سوداء هائلة، وهبت في الأجواء رياح ساخنة لافحة، وهاجت الرمال وتجمعت في عاصفة رهيبة لم ترَ الصحراء مثيلا لها في قسوتها، وبدا البعير الأسود الذي يحمل هودج حزقيل ثابتا وكأنه لا يبالي بأي شيء يحدث من حوله، وتعالت صرخات أبناء الصحراء والرمال تدفنهم تحتها بسرعة جنونية.. الصرخات تتعالى وتتعالى، ولكن صرير العاصفة يكتمها.

«أي هول هذا بحق الآلهة؟! إن الشياطين تؤيد هذا الرجل اللعين!!».

صرخ بها كبير أبناء الصحراء وقد ألقته الرمال القوية من فوق جواده الثائر الذي صهل والرمال تدفنه تحتها، وحاول أن يعدو مبتعدا عن هذا الجحيم المستعر من الرمال الغاضبة، لكنه شعر بقوة رهيبة ترفعه في الهواء قبل أن تلقيه على وجهه، فأخذ يصرخ والرمال تنفذ إلى فمه وتكتم أنفاسه:

«الرحمة.. الرحمة.. الرحمة!».

لكن حزقيل ابتسم، وتألقت عيناه بقوة وهو يرى الفرسان وقد ابتلعتهم الرمال تماما، فحرك يده في الهواء حركة دائرية وهو يهمس بتلك اللغة المجهولة مرة أخرى.. ليتوقف كل شيء بغتة كما بدأ.. الرمال توقفت وعادت الصحراء إلى هدوئها.. الشمس عادت تطل بأشعتها الذهبية مرة أخرى.. وأمام أعين العبيد ومن بقي حيا من القافلة بدأت الجمال المحملة تعود إلى القافلة ولم يصبها أي سوء.

عادت عينا حزقيل تتألقان من جديد وهو يقول:

«واصلوا السير، فسيدكم عقيل ينتظر وصول القافلة على أحر من الجمر».

قالها وعاد إلى هودجه وكأنه لم يأتِ منذ لحظات بأمر خارق لكل طبيعة يألفونها في هذه الصحراء الدموية الواسعة!!

* * *

«أصبح الرزق شحيحا يا أماه ولم يعد السادة بنفس كرمهم القديم».

نظرت نحوه الأم في تعجب وهي تفكر في عمق شديد وعلى وجهها ظهر الاستياء جليا كشمس الظهيرة وقالت بصوت يشوبه الضيق:

«بل أنت يا سهيل من أصبحت كسولا وتتمنى لو تمطر السماء ذهبا كي لا تتحرك من مجلسك طلبا للرزق».

تنهدت ثم هزت رأسها في أسى وهي تتطلع إلى وجه ولدها الذي ارتسمت اللامبالاة فوق قسماته الوسيمة واستطردت:

«يا بني لن تكفي ثروة أبيك إلى الأبد.. إن الأموال التي لا تعمل في التجارة تفنى وكأنها لم توجد من قبل.. أرح قلبي ودعك من اللهو والغناء واعمل بالتجارة.. إن القافلة الجديدة ستغادر بعد غد».

انتفض سهيل وكأنما لسعته عقرب وهو ينظر لأمه قائلا:

«أتطلبين مني أن أتركك وأغادر على قافلة بعد غد؟ هل هان عليك فراقي يا أماه؟».

زامت أمه في غضب وقالت بصوت ثائر:

«لا تتحدث كالنساء أيها المدلل.. ليس في الأمر اختيار.. لقد رتبت مع عمك شعيب.. وبعد غد ستكون على متن القافلة.. فإما أن تعود تاجرا رابحا.. وإما لا تعود أبدا.. هل تفهم؟!».

صعق الحديث الغاضب «سهيل» بعد أن أدرك أن الأمر جدي تماما وحاول أن يتملص من الأمر، لكن زجرة من عين والدته جعلته يتكوَّر على نفسه ويغرق في تفكير عميق غير مصدق أن أيام اللهو والمرح قد ولَّت إلى الأبد، ودون رجعة.

«سأتركك الآن لتستعد يا ولدي».

قالتها أمه وهي تنهض وتلف رداء حول جسدها، فنهض سهيل بدوره وهو ينظر إلى الأرض، ومرت لحظات من الصمت الثقيل قبل أن يشعر سهيل بيدها على ذراعه، وبصوتها يقول وقد لان قليلا وفارقته اللهجة الغاضبة:

«سهيل.. لقد مات والدك وتركك لي.. لقد تقدمت في العمر يا سهيل، وأريد أن أراك من كبار تجار جرهم كما كان والدك».

قال سهيل متهكما:

«وهل ترك عقيل أي فرصة لمن يريد تجارة يا أماه؟! إما أن يقبل التجار شراكته في القوافل، وإما كساد تجارتهم للأبد».وضاقت عيناه وهو يقول بلهجة ساخطة:

«ولا تنسي أبدا أن قوافله هي الوحيدة التي لا يصيبها الأذى في الصحراء، فكم مرة هاجمها أبناء الصحراء دون جدوى؟! إنه ذلك اليهودي العجوز حزقيل.. سحقا له!».

تبدَّى الخوف في وجه أمه، وقالت وهي تتلفت حولها بحذر:

«صه يا سهيل.. لا تتحدث في هذه الأمور، وإلا جلبت الوبال علينا».

لكن «سهيل» بدا وكأنه لم يسمعها وهو يقول مكملا وعيناه تتألقان:

«لو مات هذا اليهودي، فسيفقد عقيل أقوى أسلحته على الإطلاق، ولن تكون قوافله آمنة بعد ذلك في رحلاتها الطويلة، و...».

قالت أمه تقاطعه وهي تزيح مدخل الخيمة قليلا:

«ويحك يا سهيل، هل أفقدتك معاقرة الخمر صوابك؟! لو بلغ خبرك عقيل لأمر بقتلك بلا رحمة».

قال سهيل ونظرة غاضبة تطل من عينيه:

«كما قتل أبي.. أليس كذلك؟!».

ضربت أمه صدرها بكفها، وقالت بذعر:

«بحق الآلهة اصمت يا سهيل.. اصمت يا ولدي، وحذار أن تكرر هذه الحماقة بالقرب من رجال عقيل.. إياك يا ولدي».

قال سهيل وملامحه تتحول بسرعة إلى غضب أسود:

«هل تسمين الحقيقة حماقة يا أمي؟!».

قالت أمه بلهجة باكية:

«سهيل.. عقيل واحد من كبار سادات جرهم، وتربطه بالملك غالب في تدمر علاقة وثيقة، وعمًّا قريب سيرسل من يخطب له الأميرة عالية، و...».

قال سهيل يقاطعها باستنكار:

«ماذا؟! يتزوج من الأميرة عالية! وهل يوافق الملك غالب؟!».

قالت أمه:

«هذا ما يتناقله الجميع في المضارب، لكنه ليس من شأننا يا سهيل.. المهم هو ألا تثير نقمة عقيل عليك.. من أجلك ومن أجلي».

وربتت على ذراعه وهي تقول:

«سأرسل إلى عمك شعيب أبلغه بأنك سترافقه بعد غد.. حفظتك الآلهة من كل شر يا ولدي».

قالتها وأسرعت تغادر الخيمة تاركة وراءها «سهيل» وقد التقى حاجباه بشدة، ومن عينيه أطلت نظرة تفكير عميقة.. كثير من الأمور توشك أن تتغير.. كثير جدا!!

* * *

بدا الغضب على وجه زهير وهو يدور كالسبع الجريح في ذلك الكهف الواسع في قلب المتاهات الجبلية التي يتخذها أبناء الصحراء مقرا لهم منذ سنوات طويلة، كانت الأخبار قد بلغته منذ قليل بأن كل الرجال الذين خرجوا مع أخيه للاستيلاء على قافلة عقيل الجرهمي قد ماتوا مدفونين تحت الرمال!! كان النصر سيكون حليفهم في هذا الهجوم، وكانت ستعد ضربة مدوية سيتردد صداها في الصحراء أياما طويلة.. لولا ذلك الساحر اليهودي اللعين حزقيل!!

«لقد حذرت أخي من مهاجمة القافلة.. حذرته من التعرض لها وذلك اليهودي يصحبها».

قالها زهير بلهجة غاضبة وهي يلكم الهواء بقبضته المضمومة بقوة، فتبادل الرجلان الواقفان قريبا منه نظرة سريعة قبل أن يقول أحدهما بتردد:

«زهير.. أنت الآن زعيم الجماعة، فما أوامرك؟!».

اربدَّت ملامح زهير وهو يقول:

«ماذا دهاك يا رماح؟! ألا نتمهل قليلا ريثما نستوثق من الأخبار؟!».

عاد رماح والرجل الثاني يتبادلان نظرة أخرى قبل أن يقول الثاني ملوحا بيده:

«زهير.. الأخبار مؤكدة.. رجالنا دفنتهم الرمال، وما من أمل أن يعود أحدهم حيا أبدا».

قال رماح وهو يلتقط طرف الحديث منه:

«زيادة محق يا زهير.. لقد خسرنا خيرة رجالنا في هذه المعركة، والرجال بحاجة ماسة إلى زعيم لا يقل قوة ومهابة عن شقيقك الراحل.. لا بد أن نعلن زعامتك للجماعة سريعا».

قال زهير بصوت غاضب حانق:

«أي جماعة هذه التي تتحدثون عنها؟! إن عددنا لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة».

قال زيادة بصوت صارم:

«ليكن حتى فردا واحدا.. الأموال لدينا بلا عدد، سنشتري الرجال، وما أكثرهم.. وسنعيد لجماعة أبناء الصحراء مجدها».

صمت زهير وهو يدير الأمر في رأسه ثم قال:

ليكن يا زيادة.. اجمع أنت الرجال.. وأعدهم سريعا للضربة المقبلة».

أطلت الحيرة من عيني رماح وزيادة، قبل أن يقول الثاني متسائلا:

«زهير.. الجماعة لا تتحمل معركة أخرى و...».

قال زهير يقاطعه بلهجة صارمة:

«ليست معركة أخرى يا زيادة.. بل هي مهمة لن يهدأ لي بال حتى ننفذها».

قال رماح:

«مهمة؟! وحق الآلهة أنا لا أفهمك يا زهير.. تحدث بوضوح يا رجل!».

زفر زهير بقوة قبل أن يقول:

«اغتيال الساحر اليهودي حزقيل، ونيل ثأر من مات من إخوتنا بسببه».

وارتسمت الدهشة على وجهي رماح وزيادة، وهبط على الثلاثة صمت رهيب، وكأن ثلاثتهم قد تحولوا إلى تماثيل من الحجر!!

* * *

(٣)

من أنت أيها الغريب؟
عابر سبيل..
ألا تجلس لتنعم بواجب الضيافة؟ إنك تحتاج إلى الراحة..
لم يحن وقت الراحة بعدُ..
هل سيطول سفرك؟!
كثيراً أيها الشيخ الكريم..
ألا تحتاج لمساعدة؟
أنتم من تحتاجون للمساعدة..
كيف؟!
غدا تعرفون..

* * *

«أخبرني أيها العراف عن حقيقة النبوءة القديمة».
قالها الملك غالب في فضول شديد وهو يتطلع إلى ذلك العراف العجوز الذي يقف أمامه في تذلل وهو يرتجف من الخوف.. وانتفض العراف وكأنه سمع من بين شفتي الملك خبر إعدامه، ثم لاذ بالصمت..
اقترب منه الملك ووضع يده على كتف العراف وقال بصوت هادئ ليبعث الطمأنينة في أوصال العراف المرتجف:
«لماذا لا تجيب أيها العراف النجيب؟ أنا أثق تماما بأنك تعرفها جيدا.. لقد أخبرني الساحر أريام بالأمر قبل أن يموت محترقا».
صمت الملك قليلا ليصل تأثير كلماته إلى العراف، ثم استطرد قائلا:

«فلترحمه الآلهة.. لقد ذاب جلده واحترق قبل أن يقضي نحبه.. لقد تعذب كثيرا».
شحب وجه العراف بشدة وهو يتطلع إلى وجه الملك غالب في رعب شديد.. دون أن ينبس ببنت شفة، ما أثار غضب الملك فالتفت إلى قائد جيوشه وقال:
«يبدو أنه لا فائدة من هذا المأفون.. لتكن نهايته كأريام ولتكن معه زوجته وولداه ليأنس بهم في رحلته إلى الجحيم».
انتفض العراف العجوز انتفاضة أشد من سابقتيها وسقط على وجهه ساجدا يستعطف الملك وهو يقول:
«الرحمة يا مولاي.. الرحمة».
أشار الملك إلى قائد جيوشه في عصبية وقال:
«أريد أن يحترق زوجته وولداه أمام عينيه قبل أن يلقى المصير ذاته، وقبل أن تحترق زوجته أريد من رجالك أن يختبروا قدرتها كامرأة.. لقد سمعت أنها ما زالت صغيرة وفاتنة».
انطلق صوت قائد الجيوش هادرا:
«أمر مولاي العظيم».
ثم أشار إلى رجاله ليحملوا العراف الذي زاغت عيناه وكادت روحه تزهق من هول ما يسمع.. فهو يعرف أن الملك غالب بلا قلب.. سيصل إلى ما يريد بأي طريقة ولن يتراجع عن أمر أصدره قط.. مهما كان بشعا أو منافيا للتقاليد العربية.. إنه يحمل قلب شيطان.
جذبه الجنديان في غلظة فتملص منهما واندفع نحو الملك وهو يقول بتذلل وخضوع:
«سأخبرك يا مولاي ولتحل عليَّ اللعنة المعقودة على من يفشي السر.. فهي أهون من الموت حرقا مجللا بالعار».
انقض الجنديان عليه قبل أن يصل إلى الملك، لكنه أشار لهما بأن يتركاه وهو ينظر بجذل نحو العراف الذي يرتجف وكأنه ورقة شجر يابسة تواجه ريحا عاتية، ثم قال بصوت ناعم:
«هيا أيها العراف النجيب.. أخبرني بما عندك.. فأنا في شوق شديد لسماعه».
ارتجفت شفتا العراف في شدة ثم نظر نحو الملك نظرة رجاء ليعفيه من إفشاء السر الخطير الذي هو موشك على إفشائه، لكن نظرة صارمة من عين الملك تبعتها وكزة من قائد الجيوش جعلته يفضي بما يريده الملك..
اتسعت عينا الملك وقائد جيوشه في شدة، فما قصه عليهما العراف كان مذهلا بل مخيفا ولم يكن مبشرا..
أفاق الملك من ذهوله ثم وجه حديثه إلى قائد جيوشه الذي لم يستوعب عقله بعدُ ما سمعه

من العراف وقال:
«ألقِ هذا المأفون في السجن حتى نتأكد من صدق روايته، وأرسل في طلب حزقيل بسرعة».
فقال قائد الجيوش في حزم:
«أمرك يا مولاي، لكن حزقيل لم يعد بعدُ.. فهذه الأيام هو معتكف في قلب الصحراء».
نظر له الملك في غضب وقال:
«أريده سريعا يا قائد الجيوش.. أريده ولو نزحت رمال الصحراء لتبحث».
فجأة دوى الصوت الخبيث في قلب القاعة وظهر بعده حزقيل من العدم بسحنته القبيحة لينحني أمام الملك في نفاق ويقول مداهنا:
«لا داعي لكل ذلك يا مولاي.. خادمك الضعيف حزقيل لا يتأخر عن سيده عندما يحتاجه».
كان ظهور حزقيل مفاجئا.. فجفلوا جميعا دون أن ينطق أي من الموجودين..
ساد الصمت للحظات وكأن على رءوسهم الطير..
كان ظهور الساحر اليهودي حزقيل في بهو الملك غالب أمرا مباغتا، وارتسمت الدهشة على وجه هذا الأخير، في حين امتدت يد قائد الجيوش إلى مقبض سيفه، واربدت ملامحه قبل أن يتساءل بصوت مبحوح:
«لكن.. كيف دخلت إلى هنا يا رجل؟!».
وتبادل نظرة سريعة مع الملك الذي أخذ نفسا عميقا محاولا تجاوز دهشته والحفاظ على هيبته كملك لواحدة من كبريات ممالك العرب قاطبة في هذا الوقت، في حين ارتسمت ابتسامة لزجة على شفتي حزقيل وعيناه تتألقان:
«لا تسأل حزقيل مثل هذه الأسئلة يا قائد الجيوش.. إنه سر المهنة».
بدا الغضب على وجه قائد الجيوش، واستل سيفه من غمده وقال:
«تأدب أيها العجوز، فأنت في حضرة الملك غالب.. أقوى ملوك العرب!».
قال حزقيل وابتسامته تتسع:
«لكنه لم يردع أبناء الصحراء حسب علمي يا قائد الجيوش.. أم نقول إنه فقط سوء تخطيطك».
اتسعت عينا قائد الجيوش، واهتزت يده الممسكة بالسيف قبل أن يهز رأسه بقوة ويقول:
«تبا لك! كيف تجرؤ على التفوه بمثل بهذه الكلمات الخبيثة في حضرة الملك غالب؟! هل جننت أيها اليهودي القذر؟!».
رفع حزقيل حاجبيه وخفضهما قبل أن يقول محافظا على ابتسامته:
«الجنون لا يعرف طريقه لرجل مثلي يا قائد الجيوش».

وضم كفيه معا ووجَّه عينيه إلى الملك غالب وقال مكملا:
«ثم إنني لا أرى مولاي الملك غاضبا مما أقول».
تقدم قائد الجيوش للأمام قليلا والشر يطل من عينيه، وقال بلهجة غاضبة:
«ستدفع حياتك ثمن وقاحتك يا حزقيل».
وأمام عيني الملك غالب انقض قائد جيوشه على حزقيل وهو يهوي بسيفه، لكن نصل السيف ضرب أرض البهو المصقولة عندما اختفى حزقيل من مكانه، ومرت لحظات قبل أن يعاود الظهور وراء قائد الجيوش وهو يقول:
«محاولة بائسة.. لكنها لن تنال من حزقيل يا قائد الجيوش».
التفت قائد الجيوش ليواجه الساحر اليهودي، لكنه شهق بقوة عندما شعر بقوة رهيبة تنتزع منه سيفه، وأحس بشيء لزج يلتف حول عنقه، وبدأ يضغط عليه بشدة، وتوترت ملامح الملك غالب وهو يرى قائد جيوشه يموت مختنقا، وحزقيل واقف وعلى وجهه علامات الاستمتاع الكامل بما يفعل، وابتسامته تتسع وتتسع، و...
«كفى يا حزقيل.. توقف عن هذا العبث».
هدر بها الملك غالب وهو يشد قامته، وبدا وكأن الساحر اليهودي سيتجاهل صيحة الملك، لكنه حرك يده وقال بلامبالاة:
«أمرك يا مولاي.. حزقيل خادمك المطيع على الدوام».
وعلى الفور عاد قائد الجيوش يعب الهواء بلهفة وقوة وهو لا يصدق أنه قد نجا من الموت بهذه الطريقة البشعة، وراح يفرك عنقه بأصابعه وهو يردد:
«يا للهول.. يا للهول.. أي رجل أنت يا حزقيل؟! أي رجل أنت؟!».
تجاهله حزقيل، وقال مخاطبا الملك:
«مولاي.. لقد أردت رؤيتي.. أليس كذلك؟».
تطلع إليه الملك غالب للحظات قبل أن يزفر ويقول:
«بلى يا حزقيل.. الأمر مهم ولا يحتمل أي تأخير».
انحنى حزقيل نصف انحناءة قبل أن يقول بصوته الخبيث:
«أنا رهن إشارتك يا مولاي».

* * *

«شعيب.. أخشى على سهيل من التهور».

تنهد شعيب بحرارة وهو ينظر إلى هند - أم سهيل وزوجة أخيه الراحل - قبل أن يقول محاولا أن يهون عليها:

«خففي عنك هذا القلق يا هند.. سهيل يعلم أنه ليس من الحكمة أبدا أن يثير نقمة عقيل علينا».

قالت وهي تنظر إليه بقلق:

«لقد ذهب الآن إلى خيمة اللهو والسمر مع ندمائه، وأخشى أن تذهب الخمر والراقصات بعقله كالعادة ويثرثر لسانه بما يستجلب علينا غضب عقيل».

وصمتت لحظة قبل أن تقول:

«أنت تعلم أن رجال عقيل هناك يتلمسون لسيدهم الأخبار على الدوام».

زفر شعيب بقوة قبل أن يقول:

«قوة عقيل ونفوذه يزدادان يوما بعد يوم يا هند، والكل أصبح يخشاه خشيتهم للموت ذاته، خاصة عندما ارتبط بعلاقة مسمومة بالساحر اليهودي حزقيل».

قالت وعيناها تضيقان:

«أهو ذلك الساحر الذي يصاحب قوافله في غدوها ورواحها؟!».

تردد شعيب قليلا قبل أن يقول مجيبا:

«أجل يا هند.. ولقد أنقذ قافلة عقيل الأخيرة من هجوم شامل من أبناء الصحراء للاستيلاء عليها».

قالت هند تسأله بعد أن ازدردت ريقها:

«شعيب.. أنت تخفي عني أمرا ما.. أليس كذلك؟».

ارتسمت ابتسامة واهنة على شفتيه وهو يقول ملوحا بيده:

«لا عليكِ يا هند.. لا عليكِ.. سأذهب لأرى سهيل في خيمة السمر، لا بد أن نخلد للنوم مبكرا، فغدا ترحل القافلة إلى تدمر، ومن ثَمَّ نسلك الطريق إلى مصر.. أراك لاحقا يا بنت العم.. حفظتك الآلهة».

وما إن غادرها باتجاه الخيمة الكبيرة – حيث تعقد مجالس السمر واللهو - في منتصف مضارب القبيلة حتى وضعت هند يدها على قلبها وقالت بصوت خافت:

«وحفظتك من كل سوء يا شعيب».

وفي صدرها راحت بذرة الخوف والقلق تنمو وتكبر حتى استحالت أغصانا متشابكة في وقت قصير!!

* * *

(٤)

الخطر قادم..
لقد قطعت الفيافي التي لا ترحم..
لقد رأيت الموت يقترب منكم أيها البشر الغافلون..
الهول قادم.. يزحف تحت رمال الصحراء..
أعوانه وخدامه يعملون من أجل قدومه..
الحذر.. ثم الحذر.. ثم الحذر..
سيأتي يوم تجتاح فيه اللعنة أرضكم..
وتسحق ملوككم..
ولن يقف في وجهها أي شيء على الإطلاق!!

* * *

«لا أستطيع أن أشارك في هذه المهمة يا عسير».
لماذا يا رجل؟ إن العائد هذه المرة ضخم وسننال رضا سدوم وحمايتها..
قالها رجل ضخم الجثة بادي القوة يبدو أنه صال وجال في معترك الحياة فتركت آثار سياطها على وجهه فاختار أن يستخدم قوته البدنية في شق طريقه.. وجهه من تلك الوجوه التي تكرهها من أول نظرة..
ابتلع عمير ريقه في صعوبة ونظر نحو وجه صديقه المنفر وقال:
«إن هذا هو السبب، فأنا لا أريد خير سدوم أو شرها.. فهي كالنار تعطي الدفء، ولكن إن اقتربت منها أحرقتك بلا رحمة».
وصمت قليلا قبل أن يستطرد:
«ثم لماذا لم تستعن هي برجالها أو سحرها وقوتها؟ لماذا استعانت بسارقي قبور مثلنا؟ ثم إن

الرحلة إلى مصر طويلة.. ولن نأمن على أنفسنا منها».

عقد عسير حاجبيه الكثين وقال يقاطعه بصوت غاضب:

«ما لي أراك هزيل النفس منعدم الشجاعة.. وكأنك فقدت كل صلتك بعالم الرجولة.. إنه عمل كأي عمل آخر.. أخبرني.. هل أنت معي أم أستعين برجل آخر ما زال لا يخشى النساء».

ابتلع عمير ريقه في صعوبة وقال بصوت متخاذل:

«إنها ليست مجرد امرأة.. إنها سدوم».

زفر عسير في ضيق ثم قال بصوت من قد نفد صبره:

«أأنت معي أم لا؟ الوقت يمر وسدوم تبغي إنهاء المهمة في أقرب وقت».

نظر عمير نحو عسير في ضراعة فأشاح بوجهه عنه فقال بصوت واهن غير مسموع:

«أنا معك».

رفع عسير يده على أذنه ثم قال:

«ارفع صوتك أيها المتخاذل وأسمعني ماذا تقول».

«أنا معك يا عسير.. معك.. هل استراح قلبك؟!».

ابتسم عسير ابتسامة مقيتة زادت وجهه قبحا ثم تحرك بجسده خارج الخيمة وقال لعمير بصوت صارم:

«لتتبعني إذًا».

تبعه عمير وشعور سيئ لا تفسير له يجتاح قلبه الخائف..

* * *

«لقد ظهر حزقيل في القصر يا مولاتي».

قالتها آطام وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها، فقالت الأميرة عالية بلهفة وهي تتشبث بيدها:

«حقا ما تقولين يا آطام؟! حزقيل حضر؟!».

هزت آطام رأسها إيجابا وقالت:

«أجل يا مولاتي، لقد سمعت صوته في البهو».

قالت الأميرة تسألها:

«وهل رأيتِه يا آطام؟!».

بدت الحيرة على وجه آطام الأسود وهي تقول ردا على سؤال الأميرة:

«كلا يا مولاتي.. لم يره أحد على الإطلاق.. لقد ظهر في البهو بغتة وكأنه نبت من العدم».
مرت لحظات من الصمت الثقيل قبل أن تقول الأميرة عالية والتصميم بادٍ على وجهها الجميل:
«أريده هنا يا آطام.. الآن».
قالت آطام وقد بدا القلق في نظرة عينيها:
«لكنه الآن مع مولاي الملك غالب.. انتظري ريثما يغادر البهو، وسآتي به إلى هنا».
عقدت الأميرة عالية حاجبيها للحظات قبل أن تزفر وتقول مشيرة بيدها:
«حسنا يا آطام.. سأنتظر».
ربتت آطام كتف الأميرة قبل أن تغادر الجناح بخطوات سريعة، في حين ألقت عالية بجسدها على فراشها الوثير، وأسبلت جفنيها لتستعيد - دون رغبة منها - تفاصيل ذلك الكابوس الرهيب الذي راودها منذ أيام قليلة!!

* * *

سار فوق الرمال يتعثر في خطواته وهو يحاول أن يتخيل العقاب الرهيب الذي ستنزله به الكاهنة العظمى سدوم..
إنها لن ترحمه..
فكونه ولدها ليس مبررا نهائيا لتغفر له جريمة تجسسه عليها..
إنه يخشاها خشيته للموت.. وربما أكثر..
فالموت سيكتفي بقبض روحه، أما هي فستجعله يتمنى الموت دون أن يجده.. ستجعله يموت آلاف المرات..
رحماكِ أيتها الآلهة..
وبداخله نما شعور غامض بأن كل تلك الآلهة الوثنية لن تحميه من بطشها.. فهي مجرد كتل من الحجارة لا تضر ولا تنفع.. لقد رأى ذات يوم كلبا يبول على أحدها ولم تمد إصبعا لتحفظ قداستها..
قرر أن يهرب، أن يذهب إلى نهاية الأرض ويعيش وحيدا بعيدا عن يديها..
أخذته الأفكار والأوهام حتى وصل إلى خيمة سدوم ووقف أمامها يرتجف كطفل صغير دون أن يجرؤ على الولوج داخلها..
ومن داخل الخيمة دوى صوت سدوم القاسي:
«تهرب إلى أين أيها التعس؟! إن الموت هو الوسيلة الوحيدة للهروب مني.. تقدم أيها الأحمق..

فلا يوجد أم تقتل ولدها».

دلف إلى الخيمة التي تبدو أكبر حجما بمراحل مما يظهر به شكلها الخارجي وقال بصوت متلعثم خائف:

«لكنكِ قتلت أبي».

انطلقت ضحكتها الساخرة لتدوي في أذنيه كمئات الأجراس:

«ومن قال إن من مات هو أبوك أيها الأحمق؟».

كان يبدو كالأحمق فعلا وهو يجيبها عن أسئلتها:

«لكني رأيته بأم عيني وهو معلق كالذبيحة في خيمتك!».

صمتت قليلا ثم قالت في وجوم:

«وماذا رأيت أيضا يا سهم؟!».

تلعثم وهو ينظر نحو أظافرها الطويلة بخوف وقال:

«رأيت الشمس التي أشرقت في منتصف الليل.. ورأيت ضوءها يستحيل إلى ضوء القمر ورأيت الجني أيضا».

صمتت طويلا بعد حديثه وهي تدير كلماته في رأسها.. ثم أشارت له أن يقترب، وقالت وهي تضع يدها فوق رأسه:

«لولا ضيق أفقك وحماقتك لصرت أنت خليفتي في هذه الأصقاع.. لكن حماقتك هذه هي التي ستجبرني أن أفعل بك ما سأفعل.. فالأيام المقبلة لا تتحمل أي خطأ».

وصمتت وهي تضغط بيدها على رأسه فتألقت بضوء وهاج وأخذ هو ينتفض وكأنما لسعته عقرب سامة حتى خفت التألق وسقط أرضا يلهث، ما جعلها تستطرد:

«أو حماقة».

نظر سهم نحو والدته وقال بصوت مرهق:

«ماذا تقولين يا أمي؟».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة مخيفة وهي تقول:

«لا عليك يا سهم.. تجهز كما أخبرتك.. فستذهب إلى مصر مع القافلة المغادرة».

نظر لها بعينين أطلت منهما الحيرة، وقال وقد رسم الغباء لوحته على وجهه:

«وهل أخبرتِني بموضوع القافلة من قبل؟!».

قالت بهدوء بعث الرجفة في جسده:

«نعم يا سهم، لكنك كثير النسيان».

هز رأسه وقام نافضا ملابسه في قوة ثم خرج من باب الخيمة وهو يهز رأسه في عدم فهم وقال:
«ربما أكون كثير النسيان حقا.. كما تشائين يا أمي».
وأسرع يغادر الخيمة، وفي منتصف المسافة الفاصلة بين خيمته وخيمة أمه توقف، واستدار ليلقي نظرة حائرة على خيمتها، وانفرجت شفتاه ليقول بلهجة هامسة:
«لكنها لم تخبرني من قبل بأمر القافلة المتجهة إلى مصر.. أجل إنها لم تفعل».
وفي قرارة نفسه أدرك سهم أن هذه الرحلة إلى مصر ستحمل في جعبتها الكثير من المفاجآت!! الكثير مما لم ولن يخطر على باله أبدا!! وربما لقي مصير والده..

* * *

«لكن لماذا يا عسير؟! أنا لا أفهم!».
اربدت ملامح عسير المنفرة، وعقد حاجبيه وقال وهو ينظر إلى عمير:
«وما الذي لا تفهمه يا رجل؟!».
قال عمير وهو يعقد ذراعيه أمام صدره:
«تلك المهمة التي طلبتها منا سدوم يا عسير!».
قال عسير وهو يرميه بنظرة حانقة:
«اخفض صوتك يا غبي، هل تريد لكل من حولنا أن يسمع ما تقول؟!».
قال عمير وقد انخفض صوته:
«عسير.. بحق كل الآلهة.. الأمر يثير الريبة.. دعنا نتراجع عن هذه المهمة المشئومة!».
قال عسير بعد أن زفر بقوة:
«هل عدت لتخاذل النساء من جديد يا عمير؟!».
قال عمير وقد لاح الضيق على وجهه:
«صدقني.. الأمر ليس له علاقة بالتخاذل.. لكنها حياتنا هذه المرة.. لقد قمنا بالكثير من السرقات لقبور في الشام.. ذهبنا إلى مصر من قبل.. سرقنا هناك بعض القبور، وكانت الأمور تمر بسلام، لكن هذه المرة تختلف.. كل شيء من حولنا يوحي بالقلق والتشاؤم.. ويكفي أنها مهمة لتلك الحيزبون سدوم!!».
قال عسير متهكما:
«وما وجه الاختلاف يا أحمق؟ إنه قبر آخر سنسرقه يا عمير.. أمر فعلناه كثيرا، ولعشرين عاما».
قال عمير وهو يلوح بسبابته في وجه عسير:

«عسير.. أنت تعلم أي قبر اختارته سدوم لنسرقه لها؟!».

أشاح عسير بوجهه وقال:

«كف عن هذا الهراء!! أنت لا تصدق حكايات البدو هناك في صحراء مصر عن ذلك القبر حتما، و...».

قال عمير يقاطعه بلهجة ساخطة:

«كلا يا عسير.. ليست مجرد حكايات البدو.. إنها حقيقة لمسنا جزءا منها بأنفسنا!!».

قال عسير ملوحا بكفه بلامبالاة:

«قلت لك لا يهمني، ما دام المقابل مجزيا هذه المرة.. ولا تنس الحماية التي ستسبغها علينا سدوم عندما نعود لها بمبتغاها».

قال عمير بلهجة مريرة:

«هذا إن عدنا إليها حيين يا عسير».

قالها وغادر الخيمة إلى ظلام الليل وبرده القاسي، ورياحه التي راحت تعوي بلا انقطاع، وأحس عمير بأن الرياح وكل شيء في الصحراء من حوله يشاركه قلقه من هذه المهمة التي أوكلتها سدوم إلى عسير.. لماذا قبل عسير وهو يعلم الخطر المحدق بهما هناك في مصر؟!

«لماذا يا عسير؟! لماذا؟!»..

وحملت الرياح صدى صوته بعيدا، فزفر بقوة قبل أن يقول:

«عليك لعنة الآلهة يا سدوم.. عليك لعنة الآلهة!».

* * *

«زهير.. أما زلت مصرًّا؟!».

قالها رماح والقلق بادٍ على وجهه الأسمر الذي لوحته شمس الصحراء، فالتفت إليه زهير وقال ونظرة غاضبة تطل من عينيه الداكنتين:

«رماح.. ألا تريد مثلي الانتقام لأخي، لكل من تسبب ذلك اليهودي القذر في موتهم من جماعتنا؟!».

وتلاحقت أنفاسه بسرعة وهو يقول مكملا:

«لقد بقينا لسنوات طويلة نضرب ضرباتنا دون أي فشل.. غنمنا الكثير.. جعلنا قبائل الصحراء ترتجف رعبا عندما يذكر اسم أبناء الصحراء.. حتى غالب - ملك تدمر - عجز عن ملاحقتنا إلى هذه المتاهات الجبلية، ومن ثَمَّ يأتي ذلك اليهودي اللئيم ويقضي على خيرة رجال الجماعة بهذه

البساطة! وتريدني أن أتخلى عن الثأر؟! كلا يا رماح، محال».

ابتلع رماح ريقه بصوت مسموع:

«زهير.. أتظن أن اغتيال رجل مثل حزقيل سيكون بسيطا؟! فكر جيدا في الأمر وتبعاته يا رفيقي.. نحن في أمسِّ الحاجة لكل رجل بقي على قيد الحياة، وإلا فأنت تريد فناء الجماعة وضياع اسمها للأبد، و...».

قال زهير يقاطعه بلهجة غاضبة:

«أنا يا رماح؟! أنا أريد فناء جماعة أبناء الصحراء؟!».

واستل سيفه وهو يردف بصوت هادر تردد صداه في الكهف الواسع:

«كيف تجرؤ يا رماح؟! كيف؟!».

استل رماح سيفه بدوره، وتجهمت ملامحه وهو يقول:

«زهير.. ما تريده حماقة، فنحن في حاجة إلى إعادة ترتيب الصفوف قبل أن نقدم على أي فعل أخرق، و...».

قال زهير يقاطعه وهو ينقض عليه:

«بل أنت جبان يا رماح.. تريد أن تترك دم أخي ومن ماتوا معه من أجل الجماعة يذهب هباءً، ولأجل من؟! ساحر عجوز بائس؟!».

رفع رماح سيفه يصد سيف زهير ليتردد صليل السيفين مضاعفا في الكهف المغلق، وقال وهو يتراجع للوراء قليلا:

«حزقيل ليس مجرد ساحر عجوز بائس يا زهير، وأنت تعلم هذا جيدا!».

أمسك زهير سيفه بكلتا يديه وقال وهو ينقض بقوة على رماح الذي قفز جانبا ليتفاداه:

«حتى لو كان الشر يمشي على قدمين.. سأقتله يا رماح.. وسأقتلك قبله».

«بحق الآلهة!! هل فقدتما صوابكما؟!».

التفت الاثنان إلى مدخل الكهف ليجدا زيادة وهو يميط اللثام عن وجهه وقد بدت الدهشة على وجهه، وقال وهو يتقدم منهما:

«ماذا تظنان أنكما فاعلان بهذه الحماقة؟!».

والتفت إلى زهير وقال يسأله بلهجة مستنكرة:

«هل فقدت عقلك يا زهير؟! تريد أن تقتل رماح؟! أنت يا زهير؟!».

قال زهير وعيناه تلمعان ببريق غاضب:

«لقد أراد التخلي عن ثأرنا من حزقيل، و...».

قال رماح يقاطعه:

«بل أرفض حماقة قد تؤدي إلى كارثة يا زهير!».

انفرجت شفتا زهير ليصيح بعبارة غاضبة، لكن زيادة سبقه ليقول:

«كفى.. الأمر لا يحتمل هذه التصرفات الصبيانية.. رماح وزهير.. ليعد كلاكما سيفه إلى غمده.. هيا».

تردد الاثنان قليلا قبل أن يعيد رماح سيفه إلى غمده ومط شفته السفلى قبل أن يقول:

«هو من بادرني بالهجوم».

وخطا بضع خطوات إلى مدخل الكهف، وألقى نظرة ازدراء عميقة على زهير وهو يقول:

«لم أكن لأفعلها أبدا، وما رفعت سيفي إلا لأدافع عن حياتي».

قالها وغادر الكهف، فبصق زهير على الأرض وهو يهتف وراءه:

«جبان».

اقترب منه زيادة وقال وهو يربت كتفه:

«زهير.. لا تنعت رماح بالجبن.. أنت تعرف جيدا أنه واحد من أشجع أبناء الصحراء، وأكثرهم قوة وإقداما».

قال زهير بغضب:

«كنت أظنه كذلك يا زيادة قبل أن يفصح عن مكنون نفسه بالتخلي عن الثأر من الساحر اليهودي حزقيل».

ربت زيادة كتفه مرة أخرى وقال:

«كلا يا زهير.. رماح يريد مصلحة الجماعة، ومن المستحيل أن ينسى ثأر إخواننا الذين قتلهم حزقيل.. أنت واثق من هذا، فلا تترك الغضب يحركك هكذا كالبعير الذي لا يملك من أمره شيئا».

مرت لحظات من الصمت، استحال فيها زهير إلى تمثال جامد، وزيادة يتطلع إليه بقلق، قبل أن تنفرج شفتاه ويقول:

«هل علمت مكانه الآن؟!».

أومأ زيادة برأسه إيجابا وقال:

«إنه في قصر الملك غالب».

ضيَّق زهير عينيه وقال:

«لقد ذهب إلى تدمر إذًا».

قال زيادة:

«هذا صحيح يا زهير، و...».

قال زهير يقاطعه:

«سأذهب وحدي إذًا يا زيادة».

اتسعت عينا زيادة عن آخرهما وهو يقول:

«ماذا؟! هل ستخرج إلى تدمر وحدك يا زهير؟! تواجه حزقيل وحدك؟!».

قال زهير مشيحا بوجهه:

«وما الفائدة من المخاطرة برجال آخرين يا زيادة؟».

قال زيادة بتوتر:

«لكنه حزقيل يا زهير، و...».

قال زهير يقاطعه مرة أخرى:

«وحدي يا زيادة.. سأخرج إلى تدمر وحدي، وهذا أمر.. وتعاليم الجماعة تلزمك بالطاعة دون أن تناقش».

ابتلع زيادة ريقه بصعوبة وقال:

«زهير.. أنت تلقي بنفسك بين فكي الموت بمحض إرادتك.. دعنا نضع خطة محكمة، و...».

بتر عبارته عندما شعر بغصة في حلقه، فقال زهير:

«لا وقت لوضع أي خطط الآن يا زيادة.. سأخرج الآن.. لا بد أن أبلغ تدمر مع غروب الشمس».

وكان قوله هذا هو فصل الختام!!

* * *

(٥)

من تحت الرماد تبعث اللعنة من جديد..
الشر يتململ في رقاده..
خذوا الحذر أيها البشر المغيبون..
خدمه قادمون إليه لتحريره من عقاله..
وعندما يصبح حرا طليقا..
حينئذ سيبدأ العهد الرهيب..
عهد الشفق الأسود..

* * *

«ما هذا يا أمي؟».
قالها سهيل في نفور وهو ينظر نحو والدته باستنكار.. ما جعلها تجيبه قائلة بصوت يحاول أن يكسب الحديث بعض الأهمية:
«إنه طلسم أبيك يا ولدي.. الطلسم الذي كان يرتديه ليحميه من الأذى.. أريد منك ارتداءه قبل أن تغادر ليحفظك في الطريق».
رفع سهيل حاجبيه في تعجب وقال بصوت ساخر:
«ليحميه من الأذى؟! أتؤمنين بذلك حقا؟! إنه طلسم فاشل.. انظري حولك.. هل ترين أبي؟ هل تسمعين صوته؟».
شحب وجه الأم ثم ظهر عليه الانكسار وهي تقول:
«أليس من حقي أن أقلق عليك يا ولدي؟».
ظهرت السخرية من جديد على وجه سهيل وهو يقول بصوت بغيض:
«تقلقين عليَّ؟ يا لك من أم حنون.. لا تشغلي بالك بي، فها أنا ذا ذاهب في القافلة التي ستغادر

بعد قليل وقد لا ترين وجهي مرة أخرى».
اربدَّ وجهها وظهر الغضب عليه، لكنها لم تكن تريد أن تقسو عليه وهو خارج في رحلته نحو المجهول فمدت يدها له بالطلسم فدفع يدها بعيدا وقال بجحود:
«ابتعدي عني أنت وطلسمك.. لا أريد منك أي شيء.. لا أريد منك أي شيء».
ثم اندفع بعدها ليغادر المكان فوضعت الأم الطلسم في خراجه وأشارت للخادم أن يغادر بعد أن أوصته بحسن رعاية سيده الصغير».
نظرت لولدها المغادر ثم قالت بحزن:
«حفظتك الآلهة يا ولدي.. حفظتك الآلهة».

* * *

«زهير.. لن ترحل من دوني».
كان زهير يسرج جواده، ويضع زاده في السرج الثقيل عندما سمع صوت رماح، فالتفت إليه بوجه جامد لا يشي بأي انفعال على الإطلاق، وقال بصوت جاف:
«أنا ذاهب في طريق قد لا أعود منه أبدا».
اقترب منه رماح وقال وهو يضع يده على كتف زهير:
«أنا معك ولو إلى الموت يا صديقي.. ألم يكن هذا عهدنا الذي قطعناه منذ سنوات، نعيش معا ونموت معا؟!».
نظر إليه زهير وقد لانت ملامحه قليلا، لكنه أشاح بوجهه سريعا وقال وهو يقفز على صهوة جواده برشاقة:
«هذا شأنك يا رماح.. إذا أردت الموت معي ونحن نواجه حزقيل، فلن أمنعك».
اعتلى رماح صهوة جواده بدوره وقال وشبح ابتسامة يلوح على شفتيه:
«مرحبا بالموت إذًا يا زهير».
حاول زهير أن يبتسم، لكنه هز رأسه بقوة ولكز جواده ليطلق صهيلا قويا قبل أن ينطلق بسرعة، فلكز رماح جواده بدوره لينطلق مثيرا خلفه عاصفة محدودة من الرمال التي تصاعدت إلى السماء!

* * *

«رحماكِ أيتها الآلهة».

قالها سهيل في حنق وغضب شديدين بعد أن توقفت القافلة للراحة بالقرب من إحدى الآبار فنصبت بعض الخيام على عجل واشتعلت النيران لتتصاعد رائحة الشواء.. ثم عاد ليزفر من جديد وهو يحدث نفسه:

«ثلاثة أيام.. لم نقطع سوى ثلاثة أيام.. لماذا أشعر بأن الشيب سيغزو رأسي؟».

مضت عدة ساعات على جلسته في خنوع كارها لما زُج به فيه متمنيا أن يعود لندمائه ليغرقوا في الملذات حتى الصباح..

أكثر ما يثير مله هو الوقت الطويل الذي يظل فيه مستيقظا بعد تناول الطعام.. حياة لم يعتدها ولن يعتادها..

ظل على كسله حتى أوى الجميع إلى النوم.. ثم شعر بضيق فقرر أن يتجول تحت ضوء القمر الفضي.

نفض الرمال عن ملابسه.. ثم انتزع خنجرا حادا من خراجه وضعه في نطاقه؛ فهو لا يأمن شر مخلوقات الصحراء الليلية، وأثناء ذلك سقط الطلسم أرضا.. نظر نحوه في فتور ثم في تعجب وقال وهو يرتديه على الرغم من رفضه السابق:

«صلبة الرأس أنتِ يا أمي».

سار على غير هدى لدقائق غير معلومة وهو يطلق عقيرته بالغناء.. كان الجو باردا، لكنه ذلك البرد المنعش الذي يبعث على النشاط..

نظر خلفه فلمح النيران التي أوقدها العبيد لإبعاد الحيوانات البرية المتوحشة فعلم أنه لم يبتعد كثيرا فقرر أن يبتعد أكثر.. لماذا؟ لا يعرف.. إن الملل يصنع أكثر من ذلك..

تقدم أكثر مع شعوره بالانتعاش حتى وصل إلى أرض صخرية.. نظر إلى الأمام فوجد صخرة هائلة قرر أن يتسلقها طلبًا لبعض المرح..

لم يكن الأمر سهلا، لكنه أتمه على أكمل وجه، ثم جلس بعدها يلهث.. كانت يداه تؤلمانه مع شعور عارم بالإنهاك.. قرر أن يستريح قليلا ثم يعاود الهبوط..

نظر عبر الفضاء إلى كوكبة النجوم وأعجبته تلك الطريقة الرائعة التي تصطف بها لتكون الأشكال.. لم يكن يعلم أي شيء عن النجوم أو حركاتها التي يتقنها عمه شعيب وكل من يمتهن التجارة في الصحراء الواسعة.. لكن من يأبه بالنجوم وحركاتها الآن؟ إن هذه الماسات المتناثرة فوق رداء السماء خُلقت لتتمتع بها القلوب الحالمة..

غرق في التأمل لدقائق طويلة.. حتى أعاده إلى دنيا الواقع حفيف ضعيف.. استل خنجره في

تحفز وقفز مبتعدا حتى كاد يسقط من فوق الصخرة، ولولا أنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة لسقط مهشما فوق الأرض الصخرية.. نظر نحو مصدر الحفيف فوجده عقربا جبلية متحفزة تستعد للفتك به..

نظر نحو العقرب باستخفاف وهو يدير خنجره في يده بمهارة وقال بصوته الناعم:

«ها نحن قد عدنا للّهو.. الآلهة لا تريد أن تمضي الليلة دون أن تكافئني. أين أنت يا بن ربيعة لتشاهدني وأنا أقضي على هذه العقرب بمهارة لا ينافسني فيها أحد؟».

تحفز بخنجره وهو يتذكر الموقف نفسه الذي مر به مرات كثيرة أثناء لهوه بلعبة الخنجر والعقرب.. وكيف أنه دائما ما كان يربح..

شهرت العقرب ذنبها في تحفز ثم انقضت.. وفي لحظة واحدة كان ذيلها قد انفصل عن جسدها وكان جسدها مسحوقا أسفل خف سهيل ليردد سهيل في انتصار:

«أرأيت يا بن ربيعة؟ سهيل هو من يربح دائما».

شعر سهيل بالنشوة لهذا الانتصار المحدود وقرر أن يهبط من فوق الصخرة ليعود إلى حيث حطت القافلة رحالها..

تسلق الصخرة هابطا، وقبل أن يضع قدمه فوق الأرض الصخرية سمع طنينا ممتزجا بحفيف عجيب مرتفع، فقبض بيده على النتوءات البارزة في الصخرة وهو يدير رأسه لينظر أسفل الصخرة ليتجمد في مكانه..

فعلى بعد قامة كاملة إلى الأسفل.. اكتست الأرض بالعشرات من العقارب المتحفزة..

العقارب التي تبحث عن الانتقام لمقتل سيدها..

وأسقط في يده..

* * *

كل شيء يسير على خير ما يرام.. وكما خططت له تماما..

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي سدوم وهي جالسة في خيمتها وأمامها استقر إناء نحاسي امتلأ حتى حافته بدماء قرمزية داكنة، وعلى سطحها تراقصت نماذج خشبية أخذت سدوم تحركها بأظافرها الطويلة كالمخالب، وأخيرا أخذت نفسا عميقا، وانفرجت شفتاها لتقول:

«لقد أتيا إلى هنا بمحض إرادتهما».

وصمتت لحظات قبل أن تردف وابتسامته تعاود الارتسام على شفتيها:

«أخيرا سيتحقق حلمك يا سدوم بالخلود.. وستكون لك القوة المطلقة.. وبلا منافس!».

قالتها وتحولت ابتسامتها إلى ضحكة عالية.. باردة، وأخذت النماذج تغوص الواحد تلو الآخر في الدماء بلمسات من أناملها!! نماذج لو دققنا فيها لوجدناها تمثل أشخاصا طمست ملامحهم على نحو عجيب!! أشخاصا تحركهم هي بكامل إرادتها.. الشريرة!!

* * *

«اطمئنا.. ذئابي لن تمسككما بسوء ما لم آمرها أنا».

كان المشهد مرعبا إلى أقصى حد ممكن!!

قطيع كامل من الذئاب المتوحشة التي تألقت عيونها ببريق ناري مخيف أحاط بزهير ورماح في دائرة واسعة، وفي منتصفها تماما وقفت سدوم وبجوارها وقف ذئب رمادي ضخم أخذت تربت على رأسه بلمسات هادئة، وارتسم الرعب والذهول على وجهي زهير ورماح، وقال الأول:

«سدوم.. ماذا تريدين منا؟!».

قالت سدوم وابتسامة تلوح على شفتيها:

«بل قل كيف تستطيع سدوم أن تساعدك على نيل ثأرك من حزقيل يا زهير؟».

قال زهير مندهشا:

«ماذا؟!».

لكنه تجاوز دهشته سريعا وهو يقول:

«أنا ذاهب إلى تدمر لأقتله يا سدوم.. ولن يمنعني أي...».

قاطعته ضحكة سدوم الساخرة، فامتدت يده إلى مقبض سيفه وقال:

«لماذا تضحكين يا امرأة؟!».

بترت سدوم ضحكتها وقالت وعيناها تتألقان بذات البريق الناري المخيف في عيون الذئاب:

«أضحك لأنك تظن نفسك قادرا على قتل حزقيل وحدك».

ومطت شفتها السفلى قبل أن تقول:

«ودعني أخبرك بأن حزقيل قادر على تمزيقك إربا دون أن تمد إصبعا للمسه يا زهير».

وبدا الاستمتاع على وجهها لتعبير الذهول الذي بدا على وجه زهير ورماح، فقالت وهي تداعب الرمال بقدمها الحافية:

«لكني قادرة على مساعدتك في نيل ثأرك منه يا زهير».

قال زهير يسألها وقد التقى حاجباه:

«كيف هذا يا سدوم؟!».

تألقت عيناها أكثر وقالت وهي ترتفع في الهواء أمامهما قليلا وتتجه إليهما بسرعة، ومالت على زهير وأنفاسها الحارة تلفح وجهه:

«سأمنحك عرضا لا تستطيع رفضه أبدا يا زهير.. عرضا سيحقق لك انتقامك من حزقيل كما كنت تشاء وأكثر».

وفي قرارة نفسه كان زهير واثقا من أنه سيقبل هذا العرض، ولن يرفضه أبدا ما دام سيحقق له الانتقام الذي سعى إليه دون أن يبالي بالموت، و...

«أنا رهن إشارتك يا سدوم.. هاتي ما عندك!».

* * *

في قلب ما سيطلق عليه بعد عدة قرون «بحر الرمال العظيم» ثارت عاصفة رملية عاتية جعلت الرمال تثور وتتواثب في كل مكان وكأنما أصابها المسّ..

ومع احتكاك الرمال بدأت تصدر تلك النغمات الغامضة التي يطلق عليها البدو غناء الشيطان..

بدأ الأمر كعاصفة عاتية ثم انتهى إلى إعصار أشبه بقمع هائل.. إعصار نبت من العدم ليجتاح مسافات شاسعة قبل أن يهدأ ويتلاشى إلى العدم..

وبالقرب من حافة بحر الرمال العظيم.. وبالقرب من واحة «نبتا» (سيوة حاليا) وبعد تلاشي الإعصار.. ظهر مدخل القبر المختار..

ليبدأ عصر اللعنة الحقيقي..

لعنة الشفق الأسود..

ولتتحقق النبوءة القديمة التي كادت تتلاشى بقدوم جنود الموت.. بعد ظهور القبر الملعون..

* * *

(٦)

الدماء ستلطخ ثوب الشمس..
إيذانا بالنهوض الكبير..
دائرة الشر تكتمل..
والقبر الملعون كشف عن موقعه..
وفي الأفق البعيد..
بدأت نقطة سوداء تتشكل..
فقط استحال القمر بدرا..
إيذانا بالليل الأخير..

* * *

«ماذا؟! ترحل إلى مصر؟! أي جنون هذا يا زهير؟!».
قالها زيادة وقد ارتسمت الدهشة على وجهه وأطلت من عينيه الواسعتين وهو واقف أمام زهير في ذلك الكهف الذي تخفيه المتاهات الجبلية عن الأعين.. فأشاح زهير بوجهه وهو يبتلع ريقه بصوت مسموع، في حين قال رماح وهو يشبك ذراعيه أمام صدره:
«لا تتعب نفسك يا زيادة.. لقد عجزت عن إثنائه عن جنونه ونحن عائدان من تدمر».
قال زيادة وهو ينقل بصره بينهما بتوتر، وصدره يعلو ويهبط بسرعة:
«لكنك بعت نفسك لتلك المرأة اللعين يا زهير.. ألا تعلم من هي سدوم كاهنة بني عامر الكبرى؟!».
قال زهير وهو يلتفت إليه بوجه عابس وحاجبين منعقدين بشدة:
«كل ما أعلمه أنها ستساعدني في نيل ثأري من حزقيل.. هذا هو كل ما يهمني يا زيادة».

قال زيادة ملوحا بكفيه معا:
«لكنها تستغلك لنيل مبتغاها يا زهير.. تعقَّل يا صديقي.. لا تلقِ بنفسك إلى التهلكة على هذا النحو الأخرق.. الجماعة بحاجة إليك».
هز زهير رأسه ببطء قبل أن يقول:
«لقد انتهى الأمر يا زيادة.. انتهى الأمر ولم يعد هناك أي مجال للتراجع أو الانسحاب».
امتقعت ملامح زيادة، وقال وهو يضع يده على كتف زهير:
«وحق الآلهة يا زهير.. ما الذي منحته لتلك الكاهنة سدوم؟!».
ازدرد زهير ريقه بصعوبة وقال بصوت مختنق:
«لقد منحتها عهدا يا زيادة.. عهدا أن أسعى بكل جهدي أن أنفذ ما طلبته مني مقابل أن تمنحني هي ثأري من اليهودي حزقيل».
وألقى نظرة على جرح طولي بسبابته ما زالت الدماء تنزف منه قليلا:
«عهد بالدم يا زيادة».
ولم يحاول زيادة أن يمنع نفسه من تلك الشهقة التي أفلتت منه، ولا أن يمنع ذلك الذهول العارم من حفر مساراته في وجهه، ولا تلك الرعشة الباردة التي اعترته بقوة مما صرح به زهير!!
وساد الصمت ثقيلا.. خانقا لبعض الوقت، قبل أن يجد زيادة في نفسه القدرة على القول:
«زهير.. لقد أوقعت نفسك في مصيدة رهيبة لا فكاك منها أبدا.. عهد بالدم!!».
قال رماح بغيظ:
«لقد أجبرني على منح العهد ذاته لسدوم يا زيادة.. لا أدري كيف وافقته على هذا الجنون!».
التفت إليه زهير وقال وعيناه تشتعلان غضبا:
«ويحك يا رماح؟! لقد كان قطيع الذئاب يحاصرنا، ما كنت تقدر على الرفض وإلا كان الموت تمزيقا بأنياب الذئاب مصيرك المحتوم!».
قال رماح ووجهه يحتقن من الغضب الذي يعصف بنفسه:
«إن الموت بأنياب الذئاب أهون كثيرا من منح عهد الدم لامرأة كسدوم!!».
امتدت يد زهير إلى مقبض سيفه، وكذلك فعل رماح، فقفز زيادة بينهما وهو يهتف:
«كلا.. لا تعودا إلى مثل هذا.. لقد قُضي الأمر، ولا مجال للندم الآن».
وراح ينقل بصره بينهما قليلا قبل أن يقول متسائلا:
«ومتى ترحلان إلى مصر يا زهير؟».
مجيبا قال زهير:

«لقد طلبت منا أن نغادر عندما يصبح القمر بدرا».

لانت ملامح زيادة قليلا وهو يقول:

«القمر ما زال محاقا.. أمامكما كثير من الوقت، و...».

قال زهير يقاطعه:

«بل هي قالت إن القمر سيصبح بدرا الليلة يا زيادة».

اتسعت عينا زيادة عن آخرهما وهو يقول:

«لكن هذا مستحيل!! ما زال أمامنا أيام كثيرة قبل أن يصبح القمر بدرا».

قال رماح ساخطا:

«إنها سدوم يا زيادة.. تلك اللعين تسخِّر الجن لصالحها.. وهي لعمري قادرة على إتيان الكثير من الأمور التي قد نراها في حكم المحال».

وانفرجت شفتاه وعادتا إلى وضعهما، وألقى نظرة محنقة على زهير قبل أن يغادر الكهف كالعاصفة، و...

«اذهب وراءه يا زيادة.. إنه بحاجة إلى وجودك معه الآن».

قالها زهير بصوت خافت، فقال زيادة مترددا:

«ولكن...».

بتر عبارته، فقال زهير:

«لا تقلق عليَّ.. سأكون بخير.. هيا اذهب وراءه».

تردد زيادة للحظة قبل أن يحسم أمره وينطلق مسرعا وهو يهتف:

«رماح.. انتظر يا رجل.. رماح».

وما إن أصبح زهير وحيدا في الكهف حتى انهار على ركبتيه، ودفن وجهه بين كفيه، وانهمرت دموعه غزيرة، وأخذ يردد بصوت متألم:

«ما الذي فعلته بنفسك وبرماح يا زهير؟! ألا عليك لعنة الآلهة.. ألا عليك لعنة الآلهة!!».

* * *

شعرت الأميرة عالية برجفة تسري في أوصالها عندما مثل حزقيل بين يديها في تلك الشرفة الواسعة التي غمرتها شمس الغروب الأرجوانية الداكنة، وألقت بوهجها على وجهه العجوز الخبيث، وعينيه المتألقتين، وابتسامته اللزجة.. كلها جعلته أشبه بصورة شيطانية شعرت الأميرة

بأنها ستظل تلاحقها في صحوها ومنامها.

كانت تشعر بالنظرة المطلة من عينيه وكأنها تبعث قوة غير عادية تجعلها غير قادرة على التحديق فيهما طويلا.. وكأنها تنظر إلى قرص الشمس في منتصف الظهيرة بكل وهجه وحرارته اللاهبة.

أشاحت الأميرة عالية بوجهها نحو آطام التي ربتت على كتفها وكأنها فهمت قلق مولاتها وتوترها، وأخذت الجارية السوداء نفسا عميقا قبل أن تقول ناظرة نحو حزقيل:

«مولاتي الأميرة لا تريد أن يعرف أي مخلوق أنك قد زرتها في القصر.. خاصة مولاي الملك غالب.. هل تفهم هذا يا حزقيل؟».

حنى حزقيل رأسه وقال مداهنا:

«أنا رهن إشارة سمو الأميرة عالية بالطبع».

مرت هنيهة من الصمت قبل أن يقول حزقيل بصوته الرفيع:

«سمو الأميرة تعاني الأرق.. عيناها تنطقان بقلق شديد، وخوف من الغد أشد.. أليس كذلك؟».

اندهشت الأميرة عالية وهي تسمع الكلمات تنساب من بين شفتي الساحر اليهودي.. لقد بدا وكأنه يقرأ مكنون نفسها ويعلم خاطرتها وكل خلجة من خلجات صدرها.. أي رجل هذا بحق الآلهة؟! بل أي صنف هو من البشر؟!

«أنا خادم مولاتي المطيع».

انتفض جسد الأميرة عالية، ونظرت إلى آطام التي ابتلعت ريقها وقالت:

«كفى.. أنت هنا لتستمع إلى الأميرة عالية يا حزقيل، و...».

قاطعتها الأميرة عالية لتقول مخاطبة حزقيل:

«إنه ذلك الكابوس.. يطاردني كل ليلة.. يتكرر بالتفاصيل ذاتها».

قال حزقيل وهو يفرك كفيه معا:

«لمولاتي بصيرة نافذة دون شك».

توترت ملامح آطام، في حين قالت الأميرة تسأله بلهفة:

«ما الذي تقصده يا حزقيل؟!».

قال حزقيل بخبث:

«ألا تخبرني مولاتي بتفاصيل الكابوس أولا؟!».

ترددت الأميرة عالية قليلا قبل أن تسرد على مسامعه تفاصيل كابوسها الممض.. وكان هو يستمع إليها بصمت وابتسامته لا تفارق شفتيه، وعيناه لا تفتآن تتألقان دون توقف.. وما إن

انتهت الأميرة من سردها حتى مرت لحظات من الصمت قبل أن تسأله آطام:

«هل أنت قادر على تفسير هذا الكابوس يا حزقيل؟!».

قال حزقيل ناظرا إلى وجه الأميرة عالية متجاهلا آطام:

«هلا ناولتني مولاتي كفها للحظات».

تبادلت الأميرة عالية نظرة سريعة قبل أن تمد كفها المرتجفة نحو يدي حزقيل المعروقتين، وما إن استقرت بينهما حتى أحست الأميرة بكل شبر من جسدها يرتجف، وبقلبها يخفق بقوة، فقال حزقيل يسألها:

«هل تشعر مولاتي بالخوف من خادمها المطيع؟!».

قالت الأميرة محاولة أن تصبغ لهجتها بشيء من الصرامة والكبرياء:

«أسرع يا رجل، فلست أملك الوقت كله لأضيعه معك».

مرت لمحة غاضبة في عيني حزقيل لم تلحظها الأميرة عالية، وأخذ حزقيل يحرك أنامله على راحة الأميرة الناعمة، وشفتاه تدمدمان بصوت هامس، بلغة غريبة لم تفهمها عالية، وما إن انتهى حتى نظر إلى عينيها مباشرة وهو يقول:

«كُتب عليك الرحيل يا مولاتي.. والرحلة شاقة».

وهوى الصمت بعد عبارته وكأنه صاعقة القدر لا رادَّ لها، ولم تفهم الأميرة عالية أي شيء من كلمات الساحر اليهودي حزقيل.. أي شيء على الإطلاق!! وهي تردد في خوف:

«الرحيل إلى أين؟ إلى أين يا حزقيل؟».

* * *

(٧)

تشبث سهيل بالصخرة في قوة وهو يسترق النظر إلى أسفل في حرص شديد.. كان سرب العقارب يقف في الأسفل متحفزا للنيل منه.. دق قلبه في قوة وهو يتخيل مصيره لو لم يتنبه في اللحظة الأخيرة للهول الذي ينتظره أسفل الصخرة.

حاول أن يبحث بعينيه عن مخرج.. فلم يكفِ ضوء القمر ليكشف له عن مخرج مناسب فقرر أن يتسلق الصخرة من جديد..

تسلق عدة أمتار ثم عاد بنظره إلى أسفل.. ما زال سرب العقارب متحفزا.. تعجب في نفسه وهو يتساءل عن عدم إقدام السرب على مهاجمته حتى الآن، لكنه عاد وحمد الآلهة في سره..

واصل التسلق في سرعة وهو يمني نفسه بنجاة سريعة بتسلق الصخرة هابطا من الناحية الأخرى..

لام نفسه على تهوره وعدم اصطحاب خادمه معه.. على الأقل كان سيحمي ظهره أو يتلقى الطعنة الأولى بدلا منه..

كان تفكيره أنانيا.. لكن هكذا المدللون لا يرون غير أنفسهم فقط..

وصل إلى قمة الصخرة فجلس يلهث قليلا من المجهود المضاعف الذي بذله ثم عاد يتطلع إلى الأسفل وانتفض واقفا في ذعر..

ففي الأسفل كان سرب العقارب قد بدأ تسلقه للصخرة، وها هو في طريقه إليه ليقتنصه ويمتص منه رحيق الحياة..

وقف عاجزا عن التفكير للحظة ثم انطلق يعدو نحو الطرف الآخر من الصخرة الضخمة..

كان موقفا ميئوسا منه؛ فالعقارب عددها كبير ولن تمضي دقائق إلا وقد طوقت الصخرة بالكامل لتحين ساعته..

أخذ يتلفت حوله كالمجنون وهو يبحث عن مهرب..

رفع عقيرته ليطلب النجدة، لكن صوته بُحَّ دون أن يجيب عليه صوت آخر..

انطلق يعدو من جديد والعقارب تقترب في هدوء مستفز.. أراد أن يذهب يمينا فأغلقت عليه العقارب الطريق..

أراد أن يعدو يسارا فرده سرب آخر..

أخذ يعدو إلى الأمام حتى وصل إلى الحافة الأخرى من الصخرة لينتعش الأمل في قلبه من جديد.. فالصخرة كانت منحدرة بزاوية تسمح له بالعدو فوقها والفرار، كما أنها كانت شبه مستوية وكأنها طريق يقود نحو مكان ما..

انطلق يعدو وقد منحه الأمل طاقة جديدة استثمرها في قطع مسافة أكبر..

توقف ليستريح ثم نظر خلفه وصرخ بصوت هادر:

«رحماك أيتها الآلهة.. أي أمر ملعون يحدث؟!».

فعندما نظر خلفه وجد أن المسافة بينه وبين أسراب العقارب ثابتة لا تقصر ولا تطول، والعقارب أصبحت تحيط به من كل جانب لترسم له طريقا محددا..

لم يكن هناك وقت للتفكير أو الاختيار، فانطلق يعدو كالمجذوب لدقائق أخرى والعقارب تطارده دون كلل.. وعندما توقف هذه المرة لم يكن من التعب؛ لأنه لم يعد يشعر بجسده أو بساقيه.. لقد توقف لأنه شاهد النار العظمى.. لكن ليس هذا هو ما أثار اهتمامه وجعل فكه يتدلى كالأبله..

لكن مشهد تلك المرأة الفاتنة وهي تستحم بقلب اللهب..

كان مشهدا مذهلا لا مثيل له جعله ينسى العقارب والخطر وكل شيء ولا يرى إلا ذلك الجمال الناري.. وعندما استدارت المرأة لتحدجه بنظرة مشتعلة كان هذا أكثر مما يحتمل فخرَّ على الأرض فاقدا للوعي..

وبهدوء وثقة اقتربت منه أسراب العقارب لتحيط به كإحاطة السوار بالمعصم ولتنتصب أذنابها في تحفز وهو بينها ممدد لا حول له ولا قوة..

* * *

كان سهم يشعر بالتوتر يعبث بكل ذرة في كيانه وهو في خيمته يعد نفسه للخروج مع تلك القافلة الذاهبة إلى مصر مع شروق شمس الغد كما أمرته أمه سدوم، وكان العرق يتصبب غزيرا على وجهه على الرغم من برودة الجو الواضحة وذلك الهواء البارد المتسلل إلى خيمته، وراح قلبه يدق في عنف بين ضلوعه، وهو يحاول تخيل ما قد يحدث له في هذه الرحلة.

راحت مخيلته ترسم له صورا رهيبة ارتجف لها جسده فرقا؛ فهو لم ينس بعد منظر والده وهو

معلق عارٍ كالذبيحة في خيمة أمه، ولن ينسى أبدا ذلك الخنجر الذي مررته على عنقه، وأخذ يسأل نفسه.. هل كانت أمه محقة عندما قالت إنه ليس والده حقا، أم أنها كانت تكذب عليه.. لكن لماذا تحتاج امرأة بقوة أمه واقتدارها للكذب حتى تبرر ما تفعله؟! هناك أمر ما تعد له حتما.. هذا هو ما جعلها تتصرف بكل هذا الغموض العجيب، لكن لماذا تريد إرساله إلى مصر؟! لو أرادت قتله لفعلت في غمضة عين ولم يكن ليدفع قدرتها على هذا، ولو أرادت عقابه على تجسسه عليها لأذاقته العذاب ألوانًا مما لا يخطر على بال بشر على الإطلاق.. لكنها آثرت أن ترسله في رحلة مجهولة إلى بلد بعيد لم يرحل إليه من قبل أبدا، صحيح أنه رافق والده أكثر من مرة في صباه إلى الشام، لكنه أبدا لم يذهب إلى مصر، و...

اتسعت عيناه للحظة قبل أن تضيقا ويلتقي حاجباه في تقطيبة عميقة، هل ذهب والده إلى مصر في رحلته الأخيرة؟! وهل تريد أمه إرساله إلى هناك ليكمل ما بدأه وعجز عن تحقيقه؟! هل...؟! هز سهم رأسه بقوة، وكان واثقا من أنه لن يجد أي إجابة لأسئلته، فزفر بحنق وأخذ يستكمل حزم أغراضه التي سيحملها معه: سيف والده الذي منحه إياه منذ سنوات وقد جلبه معه من البلاد الجنوبية بعد معاهدة السلام مع أهلها، وتلك القوس التي صنعها له ذلك الشيخ في آخر رحلة خرج فيها مع والده إلى بلاد الشام، وخنجر صغير كان قد ربحه في رهان مع بعض ندمائه من شباب بني عامر.. هذه هي أسلحته التي سيأخذها معه في هذه الرحلة العجيبة التي يكتنفها الغموض.

ما إن انتهى من حزم كل شيء حتى مد كفه يمسح العرق المتجمع على جبينه، وغادر الخيمة ليشعر برجفة تسري في أوصاله عندما ضرب الهواء البارد وجهه، ورفع رأسه إلى السماء، واندهش لرؤية القمر بدرا منيرا يرسل ضوءه الفضي البارد، وانفرجت شفتاه ليقول بصوت هامس:

«لكن هذا مستحيل! القمر لن يصبح بدرا في مثل هذا الوقت! كيف حدث هذا بحق الآلهة؟!».

ظل يحدق في قرص القمر الذي كان يتوهج على غير العادة، ورأى وكأن وجهه قد اكتنفته خيالات سوداء أخذت تتحرك على نحو عشوائي مكونةً وجوها مخيفة، أثار مرآها رجفة في جسده لم يكن لها أي علاقة هذه المرة ببرودة الصحراء من حوله، وأحس سهم بساقيه تتخاذلان قليلا.. وبصعوبة بالغة تمكن من إبعاد عينيه عن قرص القمر وعاد مترنحا إلى خيمته.

تناول قربة الماء المعلقة على القائمين الخشبيين، وأخذ يعب منها الماء بشراهة عجيبة وقد داهمه عطش رهيب وكأنه لم يشرب قطرة من الماء منذ أيام طويلة، وما إن فرغت القربة حتى تركها تسقط على الأرض، وجلس هو على طرف فراشه من القش وهو يلهث بقوة وقد أغرقت المياه صدره بالكامل.

«القمر.. ما الذي أصاب القمر؟!».

قالها بصوت ذاهل وصدره يعلو ويهبط، و...

«سهم».

ترددت الكلمة في رأسه بصوت قوي صارم، فهبَّ واقفا وهو يتلفت حوله ويهتف بذعر:

«من؟ من هناك؟!».

مرت لحظات من الصمت قبل أن يتردد الصوت ذاته في رأسه:

«سهم.. القدر يدفعك نحو هاوية عميقة يا ولدي.. أمك سدوم تسعى لنيل قوة رهيبة تفرض بها سيطرتها التامة على الصحراء بأسرها.. فاحذر منها».

عاد جسد سهم إلى الارتجاف من جديد، وانكمش على نفسه وعيناه تدوران في كل اتجاه بحثا عن مصدر الصوت أو صاحبه، ولسبب لا يعرفه كان الصوت مألوفا، وإن كان واثقا من أنه يسمعه للمرة الأولى في حياته، و...

«لكن الأمل معقود عليك يا سهم.. رحلتك إلى مصر قد تحمل الخلاص لكل البشر من تلك اللعنة المحدقة بهم.. لكنك لن تكون وحدك أبدا.. ستجد هناك من يؤازرك في مهمة الخلاص من جنود الموت الذين ينتظرون قيام سيدهم.. سدوم وحزقيل لا يدركان فداحة ما يسعيان إليه، ويظنان أنها مجرد وسيلة أخرى لنيل القوة وفرض السيطرة».

ابتلع سهم ريقه بصعوبة بالغة، وشعر برأسه يدور، وبكل شيء يهتز من حوله، فمن حزقيل؟! وأي لعنة تلك التي تحدث عنها هذا الصوت الغامض المألوف؟! ومن هم جنود الموت، وأي سيد ينتظرون قيامته؟! ما الذي يحدث يا ترى؟! هل أصابه الجنون أخيرا؟! أهو عقاب من أمه قبل رحيله، أم...؟

«كلا يا سهم.. أنت لم تُصَب بالجنون بعدُ.. ولا تسمح للخوف أن يقهرك أبدا.. الشر مهما بدا قويا منيعا، إلا أنه هش بداخله، وكل ما أنت بحاجة إليه هو الإيمان بقدرتك على هزيمته وقهره».

قال سهم وهو يدفن وجهه بين يديه:

«ولماذا أنا؟!».

قال ذلك الصوت يجيبه:

«لن تكون وحدك.. القدر يختار فرسانه من أجل نصرة الخير يا سهم.. اذهب إلى مصر ولا تفكر في أي شيء آخر الآن.. وهناك ستفهم كل شيء».

أخذ الجزء الأخير من العبارة يتردد في رأسه قليلا قبل أن يتلاشى وكأنه لم يكن، ومرت ساعة كاملة ظل سهم فيها دافنا وجهه بين يديه، وأخيرا رفع رأسه، وألقى نظرة متوترة إلى القمر عبر

مدخل الخيمة المفتوح وقال:

«هو قدري إذًا.. خير أو شر.. موت أو حياة.. إنه قدري ولا بد أن أواجهه بشجاعة!».

وكانت عبارته هي فصل الختام؛ فقد ألقى جسده على الفراش، وتدثر برداء ثقيل، وما إن أسبل جفنيه حتى راح في نوم عميق، وشعور بالارتياح يغمره ويزيح من قلبه أي إحساس بالخوف!!

* * *

(٨)

«سهيل.. هل أنت بخير؟ سهيل!».

كان الصوت يأتيه بعيدا وغير واضح المعالم، فتح عينيه ببطء، لكن الرؤية بدت مشوَّشة أمامه، فعاد يغلقهما وهو يتأوه بصوت مكتوم، فسمع من يتنهد بارتياح تبعه من يقول:

«حمدا للآلهة! لقد بدأ يعود إلى وعيه!».

أتاه صوت آخر يقول:

«لكنه خطؤك أنت يا زين.. لقد تركته يبتعد عن المخيم، وكان من الممكن أن يصيبه شر أو مكروه».

قال الأول بصوت مرتجف:

«ولكـ.. لكنه.. تتـ.. ترك الخيمة دون أن أشعر به يا مولاي شعيب.. صدقني!».

سمع عمه يقول بلهجة شابها بعض الغضب:

«لو كان قد أصابه أي أذى لكنت قد فصلت رأسك عن جسدك أيها العبد اللئيم.. هيا اغرب عن وجهي».

«عماه.. أين أنا؟!».

قالها سهيل وهو يفتح عينيه ببطء ليرى نفسه راقدا على فراش من القش، وإلى جانبه جلس عمه والقلق بادٍ في عينيه، فحاول أن يعتدل، وأسرع عمه يساعده وهو يقول:

«هوَّن عليك يا سهيل.. هوَّن عليك يا بني».

لهث سهيل قليلا، ومرت لحظات من الصمت قبل أن تفلت منه شهقة قوية وقال وهو يتشبث بيد عمه:

«العقارب.. سرب العقارب.. النار العظمى.. المرأة تستحم فيها دون أن يصيبها أذى...».

قال عمه يقاطعه وقد لاح الاستنكار في عينيه:

«سهيل.. ماذا دهاك؟ هل أثرت الحمى على عقلك؟! أنت تهذي منذ يومين دون انقطاع عن العقارب التي طاردتك وتلك المرأة التي تستحم في النار!».

اتسعت عينا سهيل عن آخرهما وهو يقول:

«يومان؟! هل أنا فاقد الوعي منذ يومين؟!».

أومأ عمه برأسه إيجابا وقال:

«لقد بحثت عنك كثيرا، ولهذا أخذت بعض العبيد وخرجنا نبحث عنك، وبعد ساعات من البحث وجدناك راقدا على الأرض بالقرب من صخرة كبيرة وخنجرك مستقر في يدك، والحمَّى تهز جسدك بقوة، فحملناك إلى هنا».

ثم إنه قال متسائلا:

«ما الذي حدث لك يا سهيل؟! هل هاجمك أحدهم عند تلك الصخرة؟!».

تردد سهيل قليلا قبل أن يبتلع ريقه بصوت مسموع ويقول مجيبا:

«لقد شعرت بالملل فرغبت في التجول قليلا حول المخيم، ساقتني قدماي إلى تلك الصخرة الكبيرة، وتسلقتها طلبا لشيء من المرح والتسرية عن النفس، وعندما بلغت قمتها وجدت تلك العقرب تقترب مني.. أخرجت خنجري وقتلتها، وما هي إلا لحظات حتى وجدت سربا من العقارب يحيط بالصخرة وكأنه يروم الانتقام لسيده، حاولت الهرب، لكن العقارب كانت تطاردني في كل اتجاه.. وأخيرا رأيت تلك النار الرهيبة تظهر أمامي، وتلك المرأة الفاتنة تستحم بها وكأنها ينبوع من الماء البارد، وما إن نظرت إليَّ بعينين مخيفتين حتى فقدت الوعي، و... وهذا كل ما حدث يا عماه.. أقسم لك».

لم يدر شعيب ماذا يقول ردا على حكاية سهيل، هل يصدقه على الرغم من جنون وحماقة ما يقول، أم يكذبه لأن الحمى أثَّرت على عقله؟! لكن العقارب لا تتحرك في جماعات، إنها دوما تتحرك فرادى لتهاجم دون أن تشعر الضحية باقترابها!!

ثم تلك النار والمرأة!! كيف لا يتأثر أي بشر بالنار، إلا إذا كان...؟!

هز رأسه بقوة، وزفر قبل أن يقول وهو يربت كتف سهيل:

«لا عليك يا بن أخي.. خذ قسطا من الراحة الآن.. وغدا نواصل الطريق إلى تدمر».

قال سهيل معترضا:

«ولكن...».

قال عمه يقاطعه بلهجة قاطعة:

«سهيل.. نَم الآن.. وغدا يمكننا أن نتحدث فيما حدث».

قالها وأسرع يغادر الخيمة تاركا سهيل يتطلع إلى مدخل الخيمة الذي أخذ يهتز قليلا قبل أن يستقر، وامتدت يده إلى عنقه، والتقى حاجباه عندما أدرك أنه قد فقد الطلسم الذي منحته

إياه أمه قبل أن يخرج مع القافلة.
وأسبل جفنيه محاولا الاسترخاء قليلا، لكنه انتفض بقوة عندما سمع ذلك الطنين القوي الممتزج بحفيف عجيب، ففتح عينيه، وشهق بقوة عندما رأى سرب العقارب وقد ملأ الخيمة وأخذ يتحرك نحوه في بطء حطَّم كل شجاعته وقدرته على الحركة، فظل متسمرا في مكانه ينتظر مصيره المحتوم هذه المرة!!

* * *

الرياح تعوي بكل قوتها..
والرمال تثور كما لم تثُر من قبل..
والشمس اختفت وراء غمام داكن عجيب لم يشهد البدو في واحة نبتا مثيلا له من قبلُ في حياتهم، ومع هذا حاولوا تجاهل الأمر ومواصلة حياتهم على نحو طبيعي؛ فالحياة في الصحراء وسط قبور القدماء وكل ما سمعوه من حكايات عن القدرات الخارقة التي امتلكوها جعلتهم يعرفون كيف يكيفون حياتهم مع أي شيء عجيب يحدث من حولهم في الواحة.
جميعهم يفعلون هذا عدا شخص واحد.. شيخ عجوز هرم يدعى بنامون؛ فقد كان دوما يمشي بين أشجار النخيل العالية، عصاه الخشبية تغوص في الرمال قليلا قبل أن ترتفع في الهواء وتعود إلى الرمال مرة أخرى، كلهم يعرفون أنه دائم التطلع إلى السماء ومراقبة النجوم وتحركاتها ليلا في السماء، وكلهم أيضا يعرفون حديثه الدائم عن تلك اللعنة التي ستصيب بني البشر عمَّا قريب.
منذ تلك العاصفة الرهيبة التي عصفت قريبا من الواحة، وظهور مدخل تلك المقبرة، وبنامون يتحرك في كل مكان.. يصيح، ويحذر الناس كي يأخذوا استعداداتهم من أجل مواجهة اللعنة التي لن ترحم أي بشري لو استيقظت من جديد.
لكنهم اعتادوا دوما أن يتجاهلوه.. ألا يعيروه أي انتباه، فمن ذا الذي يصدق خرافات شيخ أصبح قريبا من الموت؟! لا أحد بالطبع.
ولكنهم لا يعرفون أن بنامون قد عرف الكثير، واقترب كثيرا من الحقيقة المرعبة، وأن حديثه هو الحقيقة.. ولا شيء إلا الحقيقة التي عميت عيونهم عن رؤيتها!!
إنهم لا يعرفون أنه كان يتردد كثيرا على معبد آمون القديم الذي هجره كهنته جميعا عدا الكاهن الأكبر الذي رفض أن يغادر بيت الإله آمون، رب الأرباب، ويقدم الولاء والطاعة لآلهة الرومان، سادة مصر الجدد الذين أتوا إلى البلاد جالبين معهم آلهتهم من وراء البحر، لقد رفض أن ينبذ دين آبائه وأجداده من أجل دين جديد لا يقتنع به عقله، فبقي في المعبد وحيدا بين

البرديات المليئة بالطلاسم والأسرار!

ونشأت صداقة عميقة بين بنامون والكاهن الأكبر.. ومع مرور الأيام كانت ثقة الكاهن الأكبر في بنامون تزداد، حتى أصبحت بلا حدود على الإطلاق، ولهذا كشف له عن سر الأسرار، وأكثرها خطورة على الإطلاق!

«بنامون.. بنامون.. ستكون العاصفة الرهيبة عند بحر الرمال هي النذير لظهور القبر المختار.. ستكون الإشارة التي ينتظرها جنود الموت ليستعدوا لعودة سيدهم!».

ومنذ ذلك اليوم أصيب الكاهن الأكبر بحمى غامضة، على أثرها ظل يهذي أياما طويلة قبل أن تفيض روحه، ترك بنامون لا يعرف ما الذي سيفعله حيال ما صرح به الرجل قبل موته!!

ومرت سنوات وسنوات.. وبنامون ينتظر تلك العاصفة.. ينتظر النذير الذي حذر منه الكاهن الأكبر.. ومرت سنوات وسنوات، و...

«لقد هبت عاصفة رهيبة لم يسبق لها مثيل عند بحر الرمال!».

سمعها بنامون تتناقل في الواحة ذات يوم، فاتسعت عيناه عن آخرهما، وسرت في جسده رجفة قوية، وهو يتذكر كلمات الكاهن الأكبر الأخيرة، و...

«وهل ظهر القبر؟!».

قالها بنامون يسأل أحد أبناء الواحة الذي راح ينشر الخبر، فنظر إليه الفتى وقال مندهشا:

«وكيف عرفت يا عم بنامون؟! هل كنت هناك؟!».

هز بنامون رأسه بقوة وقال:

«أجبني.. هل رأيت القبر؟!».

تردد الفتى قليلا قبل أن يقول:

«لم أرَه بنفسي عم بنامون.. لكن أخي كان هناك، وعندما انحسرت العاصفة رأى مدخل قبر يظهر من بين الرمال، لكنه أمر عادي.. لقد حدث من قبل كثيرا».

لكن بنامون رماه بنظرة غاضبة قبل أن يلوح بسبابته في وجهه ويهتف:

«بل هو النذير.. اللعنة.. اللعنة.. جنود الموت أيها الغافلون!».

ومنذ ذلك اليوم وبنامون يسعى بين الناس يحذر من الشر المقبل، لكن دون أن يستمع إليه أحد، أو يلقي إليه أذنا مصغية!!

لهذا قرر أن يغادر الواحة.. لا بد أن يحذر كل من يتمكن من الوصول إليهم من هذا الخطر المحدق بهم.. قد تكون رحلة طويلة، وقد أصبح شيخا هرما، لكنها ضرورية قبل أن تقع اللعنة، وينهض الشر من رقاده.. حينذاك يكون الفناء.. فناء البشر!!

(٩)

أيها الشيخ..
لقد بدأت رحلتك..
أنت تعلم.. أنت تعرف أن الشر عائد لا محالة..
وعندما يغطي الشفق الأسود وجه السماء..
ويظهر القمر والشمس معا في وضح النهار..
حينها سيتحرك جنود الموت ليستقبلوا سيدهم..
فهل أنت قادر على المساعدة حقا؟!

* * *

«يام.. يام».
توقف الرجل الطويل عن السير، والتفت يحدق في ذلك الذي يعدو خلفه وقد تقطب جبينه، وانفرجت شفتاه ليقول:
«ماذا تريد يا يربال؟!».
توقف يربال وهو يلهث وصدره يعلو ويهبط، ومرت لحظات قبل أن يجد في نفسه القدرة على الحديث ليقول:
«أنت ذاهب إلى هناك.. أليس كذلك؟!».
تلفت يام حوله قبل أن يقول بصوت منخفض وإن تخللته نبرات غاضبة لم تخطئها أذن يربال:
«أجل يا أحمق.. أنت تعلم أنه علينا أن نتحرك سريعا.. لقد حان الوقت تقريبا، والمعلم يريدنا أن نكون هناك ننتظر».
ابتلع يربال ريقه بصعوبة بالغة قبل أن يقول:
«هل.. هل.. هو هنا يام؟! هل عاد من صحراء العرب؟!».

قال يام ملوحا بكفه بنفاد صبر:
«كلا.. أنت تعلم أنه ما زال هناك.. إنه يثق بنا لنؤدي المهمة هنا في مصر على الوجه الأكمل».
تراجع يربال للوراء قليلا قبل أن يقول:
«أو يريد أن يبتعد هو عن الخطر يا يام! أنت تدرك حتما ما ينتظرنا هناك في نبتا، أليس كذلك؟».
اربدت ملامح يام وقال وهو يضم قبضته في تهديد:
«يربال.. حديثك لا يعجبني أبدا، هل تجبن بعد أن قطعنا شوطا طويلا نحو ما نسعى وراءه؟! هل تريد نبذ تعليمات المعلم حزقيل الصارمة؟!».
قال يربال والخوف يغزو ملامحه:
«كلا.. لكنه يرمينا في قلب الخطر يا يام.. أنا أشعر بالخوف وحسب!».
حدجه يام بنظرة احتقار عميقة قبل أن يقول وقد بصق على الأرض:
«لولا أن الأمر لا يحتمل أي تأخير لطلبت من المعلم حزقيل أن يستثنيك من المهمة المقدسة يا يربال.. لكن للأسف، الوقت ليس في صالحنا!».
وأخذ نفسا عميقا ملأ به صدره قبل أن يقول مشيرا بسبابته:
«ستبقى هنا مع إستر ويوشع حتى أعود، وفي أثناء هذا انفض عنك جبنك واستعد، هل تفهم هذا؟!».
أومأ يربال برأسه إيجابا وهو على وشك البكاء، والعرق يتصبب غزيرا على وجهه ويتسلل إلى مؤخرة عنقه ببطء وكأنه حية تسعى لبث سمها في جسده، فقال يام بلهجة صارمة:
«انتظر عودتي إذًا».
وألقى على كتفيه عباءة سوداء ثقيلة قبل أن يسير مبتعدا بخطوات واسعة!!

* * *

«لكن.. متى إذا لم يكن الآن؟!».
ارتسمت تلك الابتسامة اللزجة على شفتي حزقيل وقال وهو ينظر إليها بعينين متألقتين:
«لم يحِن الوقت المناسب يا عزيزتي.. أنا فقط من يحدد الأدوار هنا».
ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت وهي تحرك يدها أمام وجهها وكأنها تدفع عنها شيئا ما:
«قد ينكشف الأمر، و...»..
قال يقاطعها وابتسامته تتسع، وتألق عينيه يزداد:

«اطمئني.. أنا أسيطر على الأمور جيدا يا عزيزتي».

اتسعت عيناها للحظة قبل أن تلين ملامحها بسرعة، فقال حزقيل:

«أنا أعلم أنك تشعرين بالخوف».

قالت وقد ارتعد جسدها وتفصد جبينها بعرق بارد:

«ماذا؟!».

أطلق ضحكة قصيرة قبل أن يمد إليها يده المعروقة:

«لكن ثقي من أننا نقترب من هدفنا بخطى ثابتة.. يام يقوم بالعمل على خير ما يرام في مصر.. أنا واثق من نجاحه».

وصمت هنيهة قبل أن يقول متابعا:

«لكن الجزء الأخير من خطتنا سيستلزم رحيلنا إلى هناك أيضا.. ومعنا الأضحية البشرية».

اتسعت عيناها وهي تقول واضعة يدها على صدرها:

«لكن رحيلي سيزيد الوضع سوءا!».

قال وهو يقترب منها قليلا:

«قلت إنني أسيطر على كل الأمور هنا.. والآن عودي من حيث أتيتِ وابقي على استعداد، فالرحيل قد يكون في أي وقت».

هزت رأسها إيجابا قبل أن تغطي وجهها بخمار ثقيل وتقول:

«السمع والطاعة يا سيدي.. السمع والطاعة».

* * *

«سهيل.. سهيل.. ما الذي يحدث؟! سهيل!».

فتح سهيل عينيه ليجد عمه شعيب يمسك به من كتفيه ويهزه في قوة، واتسعت عيناه عن آخرهما وهو يهتف:

«العقارب مرة أخرى يا عماه.. لقد سعت ورائي من أجل الانتقام لسيدها.. إنها تريد قتلي».

تقطب جبين شعيب، وقال وهو يهز سهيل مرة أخرى:

«عن أي عقارب تتحدث يا سهيل؟! لقد سمعتك تصرخ بقوة، فهرعت إلى الخيمة لأجدك على الأرض تتلوى من الألم، لكني لم أجد أي شيء على الإطلاق!».

قال سهيل وهو يشير بيده إلى نقطة ما وراء عمه:

«لكن.. بحق كل الآلهة لقد رأيت العقارب هناك يا عماه.. لقد كانت عند مدخل الخيمة.. لقد

رأيتها تهز أذنابها استعدادا للهجوم عليَّ والتخلص مني.. أقسم لك، و...»..

قال عمه يقاطعه بلهجة صارمة:

«سهيل.. أنت تهذي دون شك.. هذا النوع من العقارب لا يتحرك في مجموعات أبدا.. على الأقل الكثير منها لا يفعل، ثم إننا لم نرَ أي عقارب قريبا من تدمر أبدا.. هل أثرت الحمى على سلامة عقلك يا بني؟!».

تطلع إليه سهيل قليلا دون أن ينبس ببنت شفة، وأخيرا انهار في بكاء حار وهو يقول متشبثا بعمه:

«لا أدري يا عماه.. هناك شيء شرير يحدث لي.. شيء ما حدث عند تلك الصخرة عندما قتلت تلك العقرب، ورأيت تلك المرأة التي تستحم في النار.. شيء لا أقدر أن أفسره أو أحدد كنهه».

بدا التوتر في لهجة شعيب وهو يقول:

«سهيل.. حديثك يخيفني يا بن أخي.. يخيفني جدا!».

ابتلع سهيل ريقه بصعوبة وهو يقول:

«عماه.. هل.. هل تعتقد أن الجن قد تلبَّسني عند تلك الصخرة؟!».

بدت الصدمة على وجه شعيب وهو يقول:

«سهيل!! ماذا تقول يا بني؟!».

قال سهيل بعصبية:

«الجن يا عماه.. ربما كانت تلك الصخرة مكانا مسكونا بالجن.. ووجودي هناك.. وتلك العقرب هي من سادة الجن هناك، وبقتلها أغضبت الجن ولهذا أرادوا الانتقام مني، و...»..

قال عمه يقاطعه مستنكرا:

«سهيل.. الجن قد يظهرون في هيئة العقارب، لكن عقربا أو اثنتين وليس سربا كاملا...»..

قال سهيل يقاطعه بعصبية:

«وما أدراك أنت يا عمي؟! لست كاهنا أو ساحرا حتى تكون متأكدا من هذا، وإلا فما تفسيرك لما رأيته هناك، ولما رأيته هنا في الخيمة من تجمع للعقارب؟!».

تجهمت ملامح شعيب، ومرت لحظات من الصمت قبل أن يقول:

«نحن بحاجة إذًا إلى من يساعدنا في مثل هذه الأمور يا سهيل».

قال سهيل يسأله بلهفة:

«ومن يقدر على مساعدتنا يا عماه؟!».

زفر شعيب بقوة قبل أن يقول مجيبا:

«إنه رجل تعرفه المملكة بأسرها.. رجل مقتدر في أمور السحر والكهنوت.. رجل زار قبيلتنا

جرهم كثيرا».

خفق قلب سهيل بقوة وهو يقول:

«عماه.. لعلك لا تقصد اليهودي حزقيل؟!».

أومأ شعيب برأسه إيجابا وقال:

«بل هو من أقصد يا سهيل، فما من أحد سواه قادر على مساعدتنا، وعندما نصل إلى تدمر سنبحث عنه».

قال سهيل والتوتر يصول ويجول في صدره:

«لكنه رجل خطير يا عماه.. ألم تسمع عنه وعن قدراته الخارقة للعادة؟! ألم تسمع ما فعله لإنقاذ قافلة عقيل الأخيرة من هجوم أبناء الصحراء؟!».

تقطب جبين شعيب وهو يقول:

«بلى يا سهيل؛ لهذا فهو الرجل المناسب لتفسير كل ما يحدث لك من أمور غريبة».

وصمت قليلا قبل أن يقول مضيفا:

«وخارقة للعادة أيضا».

* * *

(١٠)

الشفق الأسود سيغطي وجه السماء..
وعندما يجتمع سيد النهار وسيد الليل في سماء واحدة..
عندما ترون الشفق الأسود في السماء..
حينئذ اعلموا أنه قد قام من رقدته الطويلة..
لقد ظل محبوسا سنوات طويلة ستعييكم محاولة حصرها..
عندما يظهر الشفق الأسود في رداء الأفق..
اعلموا أن النار الكبرى ستحرق في طريقها كل شيء!!

* * *

رفع عينيه ينظر إلى أسوار معبد آمون العالية التي تداعت أجزاء كثيرة منها بفعل الإهمال وقسوة الطقس في هذه البقعة الصحراوية من أرض مصر، ومن صدره انطلقت تنهيدة حارة قبل أن يهز رأسه بأسى وهو يقول:

«بنامون.. ما الذي تحاول أن تفعله؟!».

ظل متسمرا في مكانه قليلا قبل أن يسمع صوتا يدوي في رأسه:

«بنامون.. أنت تسعى لإنقاذ البشر من الخطر المحدق بهم».

وخفق قلبه عندما سمع صوتا آخر.. صوتا خبيثا متخاذلا بداخله يقول:

«ومن تظن نفسك حتى تنقذ جنس البشر من هلاكهم؟! أنت مجرد شيخ عجوز.. شيخ عرف الحقيقة، لكنه لا يملك أي شيء لتغييرها.. عُد إلى منزلك يا بنامون.. عُد ودَع الأمور تسير في مجراها المقدر لها».

أخذ صدره يعلو ويهبط، والصوت الداخلي الآخر يقول:

«كلا يا بنامون.. لقد عرفت الحقيقة.. وتعرف ما يعنيه صمتك دون أن تسعى لتحذير كل من

تستطيع.. الهول قادم.. الشفق الأسود عائد.. واللعنة ستمحق كل شيء يقف في طريقها.. لقد اخترت الطريق الصحيح يا بنامون، فإياك والتخاذل.. إياك والتخاذل!».

أخذ بنامون نفسا عميقا، وهز رأسه بقوة.. ذلك الصراع داخله يكاد يمزقه.. إنه يضغط على روحه ويكاد يزهقها.. أي مسئولية تلك التي قبلت تحملها يا بنامون؟! وأي هول هذا الذي أنت مقبل عليه؟! هل تظن أنك قادر حقا على إنقاذ البشر؟! هل تظن أنهم قد يستمعون إلى تحذيرك؟! أنت الذي عرفت الحقيقة كاملة، وتعرف المعركة الرهيبة التي ستندلع نارها بين جنود الموت ومن اختارهم القدر للتصدي لهذا الشر العاتي!

عاد بنامون يهز رأسه بقوة، وعقد حاجبيه وهو يقول قابضا بشدة على عصاه الخشبية:

«بنامون.. لقد اتخذت قرارك.. ولا مجال للتراجع.. مهما كانت الأسباب».

ودق الأرض بعصاه وهو يقول مضيفا:

«وحتى لو كانت حياتي هي الثمن!».

قالها ودلف إلى المعبد عبر بوابته الخشبية المتهالكة ليبتلعه الظلام الدامس، وفي الخارج، هبت ريح خفيفة وأخذت تحرك الرمال الناعمة في دوائر واسعة، ومن تحت الأرض بدأت تلك الأيدي في الظهور.. أيدٍ باهتة.. متحللة، لكنها سرعان ما عادت تختفي تحت الأرض لتهدأ الرمال ويعود كل شيء إلى سابق عهده!!

* * *

فجأة توتر الملك غالب أثناء النوم، لكنه لم يستيقظ لحظتها، ثم بدأت ترتسم على وجهه علامات المعاناة والألم الشديدين.. كان من الواضح أنه يمر بكابوس رهيب مخيف، وهذا ما جعل العرق يتفصد عن جبينه ويغرق وجهه.. لتتقلص ملامحه بشكل يثير الشفقة..

لحظات ثم بدأ جسد الملك غالب ينتفض ويتلوى ومعه أخذ يزوم من بين شفتيه بصوت مكتوم بدا معه وكأن روحه ستغادر جسده عبر فمه..

أي ألم يشعر به ليعاني مثل هذه المعاناة بداخل حلمه؟

ماذا يرى؟

ماذا يواجه؟ أي جحيم هذا الذي يصليه هذه الآلام؟

انتفض الملك غالب مجددا، لكنه استيقظ هذه المرة وهو يلهث في عنف لينادي على خادمه بصوت مرتفع ليندفع الخادم إلى المخدع وعلى وجهه ظهرت ملامح الفزع الشديد:

«أمر مولاي»..

قالها الخادم في توتر ليشير له الملك بعينين حمراوين منهكتين من قلة النوم ويقول بصوت مضطرب:
«أحضر لي حزقيل على الفور، أريده على جناح السرعة حتى لو كان في قبره».
اندفع الخادم ليخبر رئيس الحرس بأمر الملك العاجل، في حين جلس الملك على طرف فراشه وقد وضع رأسه بين كفيه وأخذ يهمهم بكلمات غير مفهومة..
كان جسده يرتعد في شدة وكأنما أصابه مس، ثم انطلق يبكي بلوعة شديدة.. تمنى لو كانت زوجته بجواره لتهدئ من روعه وتأخذ بناصيته، لكنها كانت هناك حيث لا يعود من يذهب..
هدَّأ ذِكرُ زوجته من اضطرابه فأخذ يمسح دموعه ويتنفس في عمق شديد ليعود هدوؤه ثم نظر نحو الأفق دون أن يثبت بصره على شيء، ثم قال بصوت واجف:
«يا له من كابوس بشع.. أي شر قادم يحذرني منه هذا الكابوس؟!».
ساح بصره في الغرفة، ومعها راح عقله في غفوة فاستعاد كل أحداث الكابوس المخيف..
فها هو يسير في صحراء هائلة ممتدة إلى حيث ينتهي الأفق، ملابسه غارقة في الدماء وشعره أشعث ولحيته منتوفة.. وخلفه ابنته عالية تمسك بسوط يتلوى في يدها كالأفعى وتصليه به العذاب والألم..
هو يصرخ وابنته تضحك في هستيريا.. يتوسل إليها فتزيد من جلده وتعذيبه والتنكيل به..
حاول أن يستفسر منها عن سبب جحودها وكراهيتها التي أعمتها فجعلتها تمزق جسد والدها بسوط لا يرحم.. فكانت تبتسم ساخرة ثم ترفع سوطها لتهوي به على ظهره..
لم يستطع أن يكمل السير من الصدمة والألم.. سقط ووجهه في الرمال.. شعر بأن روحه تغادره..
إلا أن السوط التالي أجبره على النهوض من جديد.. انتصب واقفا وهو يضع يديه فوق رأسه ليتقي بهما سيل الضربات المقبلة، لكنها لم تأتِ.. حرر وجهه من بين يديه ثم نظر نحو ابنته..
فرقعت ابنته السوط في الهواء ثم قالت والشرر يتصاعد من عينيها:
«احفر في الرمال أيها الأب القاسي.. بيديك الناعمتين ستحفر قبرك».
لم يستطع أن يخالف أمرها فأخذ يحفر ويحفر ويحفر.. والسوط ينهال بين لحظة وأخرى على ظهره ليشق جلده ويهدر دماءه.. وعندما انتهى نظر لها بتوسل ثم قال بصوت ضعيف:
«هل ستدفنين والدك؟!».
دوى صوتها قاسيا غليظا ممتزجا بكراهية لا حدود لها وهي تقول:
«أوَلم تجرؤ على وأدي وأنا طفلة صغيرة؟!».
دوى صوته الضعيف:
«كدت، ولم أفعل».

فقالت بصوت هادر قاسٍ والسوط يهبط على جسده ليجندله بداخل الحفرة:
«لكني سأفعل.. سأفعل».
في هذه اللحظة اندفع حزقيل مع الخادم إلى داخل غرفة نوم الملك ليجده منهارا فيقول بصوته الخبيث الناعم:
«مولاي».
نظر له الملك بعينين مغرورقتين بالدموع والحسرة وقال:
«ابنتي ستقتلني يا حزقيل.. ابنتي عالية».
جحظت عينا حزقيل وارتعش جسده وقد صدمه ما قاله الملك، فقال بصوت مضطرب:
«عالية؟ الأميرة عالية؟! أي قول ملعون هذا يا مولاي؟!».
ظهر الانكسار على وجه الملك وهو يقول:
«اجلس يا حزقيل.. سأقص عليك القصة من أولها».

* * *

نهضت عالية من فراشها ساخطة بعد أن قضت ليلة سوداء جفاها فيها النوم وأنهكها التفكير الذي لم يتوقف لحظة واحدة في كلام ذلك اليهودي حزقيل.. ولما أضناها الأمر، فتحت نافذة غرفتها وأخذت تتطلع للقمر الذي غمرها بضوئه الفضي الناعم فعادت تسترجع كامل حوارها مع حزقيل لعلها تستطيع أن تكشف أيَّة نقطة كانت غائبة عنها.
«الخطر يترصدك من كل جانب يا مولاتي».
انتفضت الأميرة عالية ثم استدارت لخادمتها آطام طالبة العون فقالت آطام بصوت منزعج:
«أوضح كلامك يا حزقيل، أي خطر يحيط بمولاتي عالية».
ثبَّت حزقيل بصره على وجه عالية وقال بصوته الناعم الكريه:
«خطر عظيم يا مولاتي.. خطر يأتي من قلب المملكة».
شهقت الأميرة في جزع ثم قالت:
«لأي مدى يصل هذا الخطر؟».
«خطر يتهدد حياتك يا مولاتي.. ويجب أن نسبقه عبر الصحراء كي لا يطال من تهتمين لأجلهم».
ألا يوجد حل آخر؟
لا يوجد يا مولاتي..
«الحلم مفسَّر.. يجب أن ترحلي مع أول قافلة وتتواري عن الأنظار لفترة ثم عودي، تكون

سحب الخطر قد مرت في سلام».

«وماذا سيحدث لو بقيت؟».

«ستموتين».

انتفضت الأميرة عالية عندما وصلت إلى هذه النقطة واستدارت عائدة لفراشها فهاجمتها نوبة بكاء عنيفة فاستسلمت لها..

* * *

«انظر مَن هناك».

قالها رماح بصوت يموج بالخوف والقلق، فنظر زهير إلى حيث يشير وارتجفت شفتاه ولاذ بالصمت فوكزه رماح وهو يشير مرة أخرى قائلا:

«إنه سهم ابن سدوم.. ألم أقل لك ستكون رحلة مشئومة؟!».

استدار زهير ليواجهه ببطء ثم قال:

«لماذا تعتقد ذلك؟ ربما العكس هو الصحيح».

كسا الضيق وجه رماح وهو يقول:

«كيف ذلك وابن الساحرة يرافقنا في القافلة نفسها؟».

زفر زهير في ضيق وقال:

«إن لم تكن ترغب في المجيء ما زلنا على البر، بإمكانك أن تعود.. وعلى الرغم من ذلك سأجيبك: معنى وجود ابن سدوم أنها تولي الرحلة اهتماما كبيرا، وبالتأكيد ستسبغ حمايتها عليها، هل فهمت يا ضيق الأفق أنت؟».

قال رماح بعناد:

«ربما، لكني أشعر بأن الأمور لن تمر على خير أبدا».

أشاح زهير بيده ثم ترك رماح وأفكاره وأخذ يتأكد من صلاحية كل غرض من الأغراض التي حملها فوق الناقة، ثم اختلس نظرة نحو سهم، وفي داخله نما قلق بلا حدود..

* * *

(١١)

«نحن نسير نحو مصير بشع.. ونهاية أكثر بشاعة».

قالها يربال وهو يضع رأسه بين يديه، وعلى وجهه بدا توتر وقلق شديدان، وفي ركن بعيد تبادل يوشع وسارة نظرات قلقة قبل أن يقول يوشع وهو ينهض واقفا وقد شبك ذراعيه أمام صدره:

«يربال.. هل أنت خائف يا أخي؟!».

مرت هنيهة من الصمت قبل أن يرفع إليه يربال عينين دامعتين وهو يهز رأسه إيجابا، فابتلع يوشع ريقه وقال وهو يخطو نحوه:

«يربال.. الخطة تسير كما وضعها المعلم حزقيل قبل رحيله، ويام ينفذ تعليماته بدقة بالغة.. نحن نقترب من هدفنا الذي نسعى وراءه منذ سنوات، و...».

قال يربال يقاطعه بلهجة باكية:

«بل نحن نعبث بأمور تفوقنا قوة يا يوشع.. الأقدمون حذرونا من الاقتراب من الحقيقة كثيرا وإلا أحرقتنا نارها بلا رحمة، و...».

هبَّت سارة واقفة وقالت وهي تندفع نحوه كالعاصفة:

«يربال.. ألا تثق بالمعلم حزقيل؟!».

ازدرد يربال ريقه بصعوبة، وبجهد جهيد قال وهو يمنع دموعه من مغادرة مقلتيه أمام سارة ويوشع:

«الأمر لا يتعلق بالثقة في المعلم حزقيل من عدمها يا سارة.. إنها حياتنا ما أتحدث عنها، ألا تدركان الخطر الذي يريد المعلم حزقيل تجنيده لصالحه؟!».

قطبت سارة وهي تقول:

«لصالحه؟! أنت تعلم أن المعلم حزقيل يسعى لصالحنا جميعا يربال.. إنه هدفنا.. حلم أمتنا بأسرها في القوة المطلقة والسيطرة التامة.. نحن الشعب المختار، ومن حقنا أن نسود باقي الشعوب، و...».

قاطعها يوشع بإشارة من يده، فزمت شفتيها ولاذت بالصمت والضيق الشديد يعلو ملامحها، في حين قال يوشع وهو يجلس أمام يربال وهو ينظر إلى عينيه مباشرة:

«يربال.. أنت أخي الأصغر.. وأنا أحبك كما تعلم، لكننا الآن أصبحنا قريبين جدا من حافة القوة، لقد عملنا سنوات طويلة نبحث حتى عرفنا الكثير من الأسرار التي أخفاها كهنة المصريين القدامى عن الجميع بمهارة يُحسدون عليها.. نحن الأحق بهذه القوة المطلقة.. نحن الأجدر بإعادتها إلى الحياة بعد موات مئات السنين.. هل تفهم هذا يا أخي؟».

قال يربال يسأله مبهوتا:

«وما الذي يضمن لك ألا يسعى آخرون للهدف ذاته يا يوشع؟! ما الذي يمنع أن يكون غيرنا قد توصل إلى السر مثلما فعلنا؟!».

زفر يوشع بقوة قبل أن يقول:

«المعلم حزقيل كان واثقا قبل رحيله أن طرفا آخر سيسعى لكشف السر، بل وسيعمل جاهدا على محاولة سبقنا إلى سر القوة التامة يربال».

قال يربال وسارة في نفس واحد تقريبا:

«من؟!».

نقل يوشع بصره بينهما قبل أن يقول بضيق:

«المعلم حزقيل لم يخبر أحدا سوى يام.. هو الوحيد الذي يعلم».

وصمت قليلا قبل أن ينهض مجددا:

«سأذهب الآن».

قالت سارة تسأله:

«إلى أين؟!».

تردد لحظة قبل أن يلوح بيده ويغادر المكان دون أن يرد عليها، فنظر إليها يربال مندهشا وقال:

«ماذا به؟!».

هزت سارة كتفيها وقالت:

«لا أدري.. وإن كنت قادرة على التخمين يا عزيزي يربال».

أطل التساؤل من عيني يربال، لكن سارة ضيقت عينيها ولاذت بالصمت، وإن راح القلق يعصف بنفسها هذه المرة!!

* * *

شعر بنامون برجفة باردة تتسلل إلى مؤخرة عنقه وتسري إلى باقي جسده بسرعة رهيبة وهو يسير عبر بهو متسع أحاطت به الأعمدة العالية التي تداعى الكثير منها وأصبح مهددا بالسقوط.

كان الظلام دامسا لا تبدده نيران المشعل المتراقصة في يد بنامون، وعلى وجه الأخير بدا تصميم على بلوغ هدفه، والحصول على ما يريد قبل أن يبدأ رحلته لتحذير البشر.

كان وقع عصاه الخشبية على الأرض الحجرية القاسية يتردد في كل مكان حوله، وتسللت إلى أنفه رائحة هي مزيج من العطن والرطوبة، وغبار عالق في الجو.. ورائحة أكثر قوة تطبق على صدره.. رائحة الإهمال الشديد الذي تعرض له المعبد على مر السنين.. بعد أن كان واحة عامرة لكل المؤمنين بآمون.. كبير آلهة القدماء قبل وقوع البلاد فريسة للاحتلال الأجنبي.

ولم يدر بنامون لماذا تذكر الآن كلمات الكاهن الأكبر للمعبد في أيامه الأخيرة وهو جالس إلى جواره في صومعته الغارقة في البخور والعتمة:

«بنامون.. يوما ما سيتحول هذا المعبد إلى خراب.. لقد ولى زمان آلهتنا.. لم يعد لها من أعوان ينصرونها.. الجميع الآن يسجد لآلهة الرومان.. سادة البلاد الجدد».

يومها قال بنامون:

«لكن يا صاحب القداسة...».

قال الكاهن الأكبر يقاطعه وابتسامة باهتة ترتسم على شفتيه:

«هذا الأمر لا يحزنني أبدا يا بنامون.. لقد علمنا نحن معشر الكهنة هذا الأمر منذ زمن طويل، وانتظرنا هذا اليوم».

وصمت لحظة قبل أن يقول والأسى يطل من عينيه الغائرتين:

«أكثر ما يؤلمني هو أن يشهد آمون هذه النهاية الأليمة وأنا الكاهن الأكبر لمعبد الواحة يا بنامون».

هز بنامون رأسه بقوة، ورفع أنامله إلى عينيه يمسحهما قبل أن تهزمه دموعه.. لا وقت للبكاء على ذكريات الماضي يا بنامون.. لا وقت على الإطلاق.

واصل سيره عبر ممرات المعبد الخالية، وعيناه لا تتابعان الرسوم التي طمست معالمها.. إنه يعرف طريقه جيدا.. لا بد أن يبلغه ويحصل على ما تركه له الكاهن الأكبر، و...

«في هذا المخبأ ستجد كل ما تحتاج إليه يا بنامون.. وفي هذه البرديات تكمن أسباب الخلاص من اللعنة إذا ما نهضت.. حافظ عليه بحياتك يا بنامون».

أمام المقصورة المقدسة التي ضمت في يوم من الأيام تمثالا ضخما لآمون توقف.. بخطًى وئيدة

خطا إلى الداخل، وشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه وهو ينظر إلى تمثال آمون الذي سقط رأسه، وتآكل جزء كبير من صدره العريض.. ظل جسده يرتجف قليلا قبل أن يتجاوز التمثال إلى الجدار العريض الذي مثل نقشا مطموسا لآمون وهو يمنح بركته للملك الأجنبي الذي زار المعبد منذ سنوات بعيدة عندما جاء مصر غازيا من وراء البحر.

رفع يده يتحسس رأس الملك الأجنبي ببطء، ومرت لحظات قبل أن ينزاح حجر صغير انتزعه بنامون بحرص ليبدو وراءه تجويف عميق.

ظل بنامون يتطلع إلى التجويف قليلا.. أخذ نفسا عميقا.. مد يدا ترتجف في عمقه.. حركها قليلا قبل أن يقبض على شيء صلب ذي حواف معدنية قاسية.

جذب بنامون الصندوق الصغير خارج التجويف، حمله بين يديه، أسبل جفنيه، وعاد يجذب نفسا آخر قبل أن يقول بصوت خافت:

«لقد بدأت مهمتك الحقيقية الآن يا بنامون».

وألقى نظرة أخيرة على المقصورة.. وثبتت عيناه على تمثال آمون للحظات.. وأحنى رأسه في صلاة صامتة قبل أن يغادر المكان بخطى سريعة وعصاه تدق الأرض بإيقاع رتيب!

* * *

«هذا حلم مخيف يا مولاي»..

قالها حزقيل وهو يتطلع إلى وجه الملك المنهك الذي زاده الخوف عمرا فوق عمره لينفعل عليه الملك قائلا:

«ما تفسيره يا حزقيل؟ أخبرني بحق الآلهة».

قال حزقيل بصوته الناعم وهو يتحدث بحذر:

«ليست كل الأحلام للتفسير يا مولاي.. إن هذا الحلم يُدعى حلم النذير».

نظر الملك نحوه في غضب وقال:

«دعنا من هذه الهرطقة والكلام المنمق.. أخبرني مباشرة ما يعنيه هذا الحلم».

فقال حزقيل بصوت مداهن:

«أخبرني أنت يا مولاي أصل القصة كي لا يختلط الأمر عليَّ، وبعدها أفسر لك الحلم كما تخبرني به علومي».

تنهد الملك في ضيق ثم قال:

«هذه القصة سرية لم يعلم بها مخلوق سواك أنت وكاهنة النار».

شهق حزقيل وقد أثارت كلمات الملك القليلة اهتمامه، فنظر نحو الملك في لهفة فأكمل الملك قائلا:

تزوجتُ الملكة الراحلة عن قصة حب ملتهبة صورها الشعراء في قصائدهم، وبعد مضي أشهر قليلة جاءتني البشارة بحملها.. كان خبرا سعيدا حتى إني عفوت عن كل العبيد في هذا اليوم ومُدت وعُلقت الزينات في كل مكان طوال الأشهر التالية.. غمر الفرح القصر حتى أسكره في نشوته.. وكنت أنا سعيدا كما ينبغي للسعادة أن تكون..

كان حبي لزوجتي الراحلة هائلا، وما زال حتى بعد رحيلها.. حتى إني تمنيت أن أنجب منها ولي العهد ليكون خلفي في الحكم.. لم يطُل انتظارنا كثيرا وعلى غير العادة بدأت الأم الولادة تفاجئها.. كانت ولادة مبكرة وخطيرة..

حذر جميع الأطباء من خطورة هذا الحمل.. لكن الأمر كان قد نفذ..

لقد وضعت زوجتي الطفلة ثم ماتت..

قتلتها الطفلة.. وهذا ما وقر في نفسي.. حتى إني كرهت رؤيتها..

استبدلت بالزينات شارات الحداد وعمَّ الحزن المملكة..

مرت الأسابيع دون أن أرى ابنتي حتى ضاقت روحي ذات يوم وقررت أن أقتص منها لمقتل زوجتي وحبيبتي..

حملتها ذات يوم فوق صهوة الجواد وانطلقت بها نحو الصحراء.. ولم أتوقف عن العدو حتى هدأت ثورتي قليلا..

هبطت عن صهوة الجواد وبكاء الطفلة يتردد عبر الصحراء.. استللت خنجري وشرعت في الحفر والطفلة تبكي وتصرخ دون توقف..

انتهيت من الحفرة بسرعة كبيرة فوضعتها بداخلها وعندما هممت بإهالة الرمال فوقها لأدفنها وأتخلص من طلتها المشئومة.. هاجت الرمال وفوجئت بالحصان يعدو في الظلام حتى اختفى ثم ظهرت العقارب في كل مكان..

داخلني خول مريع وقد أيقنت أني أعيش لحظات حياتي الأخيرة..

كان مشهد العقارب مفزعا..

سرب كامل منها يحيط بي وبالطفلة التي توقفت عن البكاء فجأة وكأنها شعرت بالحماية..

توقف الملك ليلتقط أنفاسه وحزقيل ينظر له باهتمام ويتشرب كلماته في انفعال.. ثم عاد الملك يكمل حديثه:

أصابني الخوف بالشلل فلم أستطع أن أتحرك من مكاني..

نظرت حولي بخوف أتطلع إلى الأذناب المشهرة كالحراب التي يكفي لسعة منها لتفارقني الحياة وبدأ تنفسي يضيق.. ولم أشعر إلا والدموع تغرق وجهي ويدي تمتد لتحتضن الطفلة التي استكانت في حضني تماما..

لحظات وهاجت الرمال مرة أخرى لينبثق من داخلها عمود من اللهب جعلني أفزع وأتراجع إلى الخلف.. حتى كدت أسقط وسط سرب العقارب المتحفزة..

تمالكت نفسي ثم نظرت نحو النيران التي لم تترك أي أثر لدى العقارب، ووسط النيران رأيت ما أذهلني وجعل عينيَّ تتسعان فرقا ورعبا..

امرأة فاتنة تنظر نحوي بثبات بعينين خلابتين مشتعلتين، ما جعلني أشهق في انفعال، لكن الرعب تداركني عندما سمعت صوتها يدوي كصدى صوت بعيد:

«ماذا كنت ستفعل بابنتك أيها التعس؟ أي قلب متحجر يحمله صدرك؟».

كبل الرعب لساني فلم أجِب بأية كلمة، فعاد الصوت من جديد:

«لولا أن اليوم يوم محرم فيه القتل لجعلت منك طعاما للذئاب والطيور الجارحة.. سأعطيك فرصة واحدة فقط.. وهذه الفرصة في وعد ستقطعه على نفسك بحماية هذه الصغيرة المقدسة، ستحافظ عليها بحياتك حتى يحين الوقت الذي ستقتص فيه هي منك.. فهل تستطيع أن تفي بهذا الوعد؟».

ابتلع الملك ريقه ثم أكمل:

«يومها لم أجد بدًّا من قطع الوعد، واعتبرت أن التزامي به لا شيء، أنا لست مطالبا بحب هذه الصغيرة فقط أنا مطالب بالمحافظة على حياتها.. ومن يومها وأنا أحرص على حياتها حرصي على حياتي، فما قولك يا حزقيل؟».

ابتلع حزقيل ريقه ونظر نحو الملك في تردد ثم قال:

«الأمر واضح يا مولاي.. لقد حان الوقت الذي ستنتقم فيه ابنتك منك جرَّاء فعلتك الشنيعة التي لم تستطع أن تتمها».

قال الملك في غضب:

«لم تأتِ بجديد يا حزقيل.. أريد منك أن أعرف الوسيلة المناسبة للخروج من هذا المأزق.. لقد كان الحلم مخيفا يا حزقيل، مخيفا جدا».

نظر حزقيل إلى الملك نظرة المتأثر وإن كان قلبه من الداخل يرقص من الفرحة ثم قال:

«بالطبع لا أستطيع أن أطلب منك أن تقتل الأميرة؛ لأن حياتك مرتبطة بحياتها، ولن أستطيع أن أطلب منك أن تترك الأمور للزمن؛ لأنها ليست في صالحك.. إذًا الحل الوحيد أن...».

قالها ثم صمت حزقيل، فانفعل الملك وقال متلهفا:
«ما الحل الوحيد»؟!
لمعت عينا حزقيل بالشر وقال:
«الحل الوحيد أن تُنفى إلى مكان بعيد تظل فيه حبيسة إلى الأبد».
لمعت عين الملك بالفرحة بعد أن وجد الخلاص وقال بصوت متهدج:
«أحسنت يا حزقيل، ابدأ في الأمر مباشرة واحرص على حياتها كحرصك على حياتك؛ فحياتها تعني حياة مليكك»..
ابتسم حزقيل في دهاء وقال:
«لا تقلق يا مولاي، لا تقلق فأنا أحرص على حياتها من نفسي».
وبداخله انطلقت ضحكة ظفر هائلة.. بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق غايته الدموية..

* * *

قبل ساعات جلست سدوم في خيمتها والهدوء يحيط بها من كل جانب.. كانت تتطلع إلى النيران المشعلة في ثبات وكأنها تنتظر خروج شيء ما من قلبها.. طال الأمر لساعة كاملة قبل أن تتحرك سدوم.. وتمد يدها لنطاقها مخرجة صرة صغيرة.. فتحتها ثم سكبت محتوياتها بقلب النيران التي توهجت بشدة..
تراجعت سدوم إلى الخلف ثم أحضرت خنجرا حادا شقت به جلد كفها الداكن المتغضن لتسيل دماؤها بقلب النار في مشهد مخيف.. أعاد للنار توهجها من جديد.. بعدها جلست سدوم أمام النار تتمتم ببعض التمائم والعزائم حتى توهجت النار بشدة وتحول ضوؤها إلى شمس متوهجة أضاءت الخيمة وما حولها.. ثم ظهر الجني..
ظهر غاضبا حانقا خاضعا فوجهت له سدوم حديثها بلهجة قاسية:
«حان الوقت أيها الجني لتنفذ اتفاقنا.. لقد ظهر القبر في صحراء مصر.. وحانت الساعة».
زمجر الجني في غضب فنظرت له سدوم في غضب كاسح:
«إنها مهمتك الأخيرة.. بعدها سأطلق سراحك أنت وأسرتك.. بعدها وليس قبلها».
زمجر الجني في غضب ثم اختفى ومعه اختفى التوهج وعاد الظلام ليحيط بالخيمة ومعه هدأت النيران، لكن النيران في قلب سدوم كانت قد اشتعلت».
خرجت سدوم من خيمتها ثم نظرت نحو القمر.. رددت بعض الكلمات فتعكر وجهه ثم استحال بدرا..

ابتسمت سدوم في جزل ثم عادت إلى خيمتها وأشارت بيدها لجزء من الخيمة فتلاشى وظهر خلفه زوجها بجسده العاري وهو معلق من قدميه، ودماؤه تنزف ببطء شديد.. بطريقة ستجعله يستغرق أياما قبل أن يصفَّى من عروقه وعلى وجهه ظهرت آثار آلام لا مثيل لها..

نظرت له سدوم ثم قالت:

«سيحين دورك قريبا أيها الخائن.. قريبا جدا».

نظر نحوها في ضراعة ورجاء، لكنها تجاهلت نظراته وهي تشير لركن الخيمة وتتمتم بعدة كلمات جعلته يتلاشى والخيمة تعود لسابق عدها..

لكن الأمور لم تكن كذلك..

* * *

«هيا يا عمير، لقد أتت الإشارة، لقد استحال القمر بدرا.. هلم لنلحق بالقافلة».

قالها عسير فانقض قلب عمير وغشاه الخوف وهو يقول بدهشة:

«ماذا تقول؟ القمر أصبح بدرا في مثل هذا التوقيت!».

«نعم يا عمير، استحال بدرا.. هيا لنلحق بالقافلة قبل أن يدركنا غضب سدوم».

«أما زلت مصمما يا عسير؟ إن قلبي غير مستريح لهذا الأمر».

ثم نظر عبر فرجة في مدخل الخيمة وقال: اللعين.. لقد استحال بدرا بالفعل..

قال عسير في صوت قلق:

«اخفض صوتك يا رجل.. فسدوم تستطيع أن تسمع دبيب النملة التي تسير في قلب الصحراء.. دعنا نتم مهمتنا ونتحلل من هذا العهد.. لقد بدأ قلقك يثير أعصابي».

جذب عسير راحلته التي كان قد أعدها سابقا للرحيل وقال بصوت مختنق:

«إني راحل يا عمير لأتم المهمة.. احزم أمتعتك ولتلحق بي.. وإلا لحقت بك لعنة سدوم».

نظر عمير مجددا نحو القمر ثم قال بصوت ملتاع:

«اللعنة عليك وعلى سدوم.. هل أسير نحو هلاكي بإرادتي؟».

وعاد بصره للقمر من جديد وقال بصوت غاضب:

«كيف فعلتها تلك الملعونة؟!».

ثم خرج من خيمته وسحب راحلته وانطلق خلف عسير وقبل أن ينصرف نظر للخيمة وقال:

«الوداع يا خيمتي العزيزة.. من الآن أنت حرة.. فسيدك ذاهب للموت بقدميه».

* * *

(١٢)

قطع آلاف الفراسخ..
جاب الصحراء دون زاد ودون ماء..
ترك خنوعه وأتى نذيرا للبشرية..
لقد حان الوقت ليبعث جنود الخير..
كما بعث جنود الشر..
الكل حسبه مجنونا..
الجميع كرهوا طلته..
لكنه لم يأبه بالجميع، فالموت المقبل سيحني رقاب الجميع..
سيجعل من كرهوه يتوسلون له بأن يبسط عليهم حمايته..
قلوبهم ستدلهم عليه..
وفي اللحظة الحاسمة..
سيكون هو القائد..
وهم من يلتفون حوله من أجل النجاة..

* * *

اعتلت الشمس صفحة السماء الصافية الخالية من السحب.. حتى بدت كعين جهنمية مشتعلة.. وأرسلت بغضب أشعتها اللاهبة لتفرض سطوتها على الصحراء.. وبدت الرمال أسفلها كسطح مرآة لامع مصقول..

لوحة طبيعية ضخمة نسجتها الرمال تمتد في جميع الاتجاهات بلا نهاية.. رمال لامعة في كل مكان.. ومزيد من الرمال.. لا شيء يفسد اللوحة ذات الألوان المتناغمة التي ظلت تتألق تحت أشعة الشمس لسنوات طوال..

ظل هذا المكان مهجورا لم تطأه قدم منذ مئات السنين، وكان سيظل لآلاف أخرى من السنوات.. لكن الأمر تغير الآن لأنه ظهر.. الآن ظهر.. كنقطة سوداء في قلب الصحراء المتألقة ليعكر صفو اللوحة..

ظهر فجأة وكأنما خُلق من العدم.. أو أنبتته رمال الصحراء..

مغطًّى من رأسه حتى قدميه بما يشبه مسوح الرهبان.. يمتطي حصانًا أسودَ سواد الليل.. يحمل في يده منجلا حادا له يد طويلة.. من يراه يحسبه ملك الموت وقد أتى لحصد بعض الأرواح الضالة..

بدأ رحلته منذ شهور طويلة.. رحلته التي تأخرت سنوات كثيرة..

ولكن ها هو كوكب الخراب يلقي بظله الباهت على الكون.. ها هو المريخ يعلن قرب النهاية..

ها هي الأسطورة تتشكل من جديد في رحم الموت..

لم يكن شخصا عاديا.. لم يكن شخصا من الأساس.. إنه تجسيد لعلم من علوم القدماء.. سلاح خارق أنجبته قريحة السحرة والعالمين في عصور الجهل والظلام..

هو النذير..

يتشكل في ألف هيئة.. ويرتدي ألف وجه..

لم يتوقع الكهنة عودة الشر.. لكنهم وضعوا احتمالا ضئيلا جدا لنهوضه..

وكان حذرهم في محله..

ها هو الشفق الأسود يتشكل ليغمر الدنيا بسحب الظلام والهلاك..

ها هم جنود الشر يستعدون لمغادرة قبورهم..

ها هو القبر الملعون قد ظهر كحقيقة جلية تعمي العيون..

وها هو النذير قد بدأ رحلته..

لكن هل يقدر حقا على الصمود؟

* * *

أخذ سهم نفسا عميقا، ورفع يده يظلل عينيه من أشعة الشمس الحامية في منتصف الظهيرة، وتصبب العرق على وجهه غزيرا، وزفر بقوة قبل أن يقبض على عنان جواده وقال ناظرا إلى خادمه صهيب: «لا أشعر بالارتياح يا صهيب.. هناك بوادر عاصفة رملية في الأجواء».

تجهمت ملامح صهيب وهو يقول:

«عاصفة رملية؟! لكني أرى السماء صافية والجو لا ينبئ بهذا يا مولاي سهم، و...»..

قال سهم يقاطعه وابتسامة باهتة ترتسم على شفتيه:

«هذا لأنك لم ترتحل في الصحراء من قبلُ يا صهيب».

وصمت هنيهة قبل أن يقول:

«أما أنا فقد سافرت عبر هذه الصحراء الواسعة مع أبي منذ سنوات، وأؤكد لك أننا قد نواجه هذه العاصفة مع اقتراب الشمس من الغروب».

تطلع إليه صهيب دون أن ينبس ببنت شفة، وواصلت القافلة طريقها تقطع المسافات الطويلة لا يظهر أمامها إلا مساحات شاسعة من الرمال الصفراء الناعمة، يقطعها بين الحين والآخر مشهد للتلال الرملية، وأمام عيني صهيب أخذت هذه التلال تتراقص على نحو عجيب، وهب في وجهه هواء ساخن أجبره على إغلاق عينيه، ومرت لحظات قبل أن يفتحهما، والتقى حاجباه وهو يرى الرمال الصفراء تتحرك في البعد معكرة صفو السماء الزرقاء.

«لقد صدق مولاي سهم.. هناك عاصفة قادمة».

ومع اقتراب الشمس من غروبها، ازدادت حدة الرياح، وازداد هياج الرمال، وأخذت تغطي صفحة السماء بغيام له لون أصفر باهت، وتوترت الجياد والبعير، والرمال تثور على هذا النحو، لقد كانت الطبيعة تعبر عن غضبها بكل قوة.. بكل عنفوان..

ومع إظلام السماء بفعل غروب الشمس، أو غيامة الرمال الصفراء.. وصلت قوة العاصفة إلى الذروة.. الرمال أخذت تثور بقوة رهيبة.. أجساد الخيول راحت تتطاير يمنة ويسرة.. حتى الرجال عجزوا عن السيطرة على حالة الذعر التي انتابتها..

أمام عيني سهم الذي صهل جواده بقوة قبل أن يلقيه عن ظهره ليتدحرج على الرمال الثائرة.. بدا وكأن الرمال تتحول إلى عماليق غاضبة ذات هيئة مخيفة بشعة، وبحركة غريزية استل سهم سيفه من قرابه، وعلى الرغم من إدراكه التام أن السيف لن يفيده في مواجهتها.. فإنه راح يتحرك بصعوبة ويضرب عمالقة الرمال بسيفه.. ولكن أحدها انقض عليه بقوة كاسحة.. وشعر سهم وكأن قبضة رهيبة ضربته في صدره، وطار جسده في الهواء قبل أن يسقط على ظهره ويطير سيفه من يده.. وأحس بكل شبر في جسده يصرخ بألم رهيب.. أي هول هذا الذي تواجهه القافلة؟! بل أي عاصفة مجنونة هذه؟! الرمال تحولت إلى عمالقة تهاجم الجميع بقسوة لا حدود لها.. وكأنها ترفض استمرار القافلة في طريقها إلى مصر.. إلى المجهول الذي أرسلته أمه سدوم إليه..

تناهت إلى مسامعه أصوات الصرخات من كل اتجاه..

«الآلهة غضبت علينا.. الآلهة غضبت علينا!».

«تبا.. إنها قافلة ملعونة.. انجوا بحياتكم قبل أن تدفنكم الرمال!!».

لكن هيهات.. لقد بدا وكأن عمالقة الرمال قد فهموا واستوعبوا هذه النداءات اليائسة.. ووجد الرجال أنفسهم محاصرين بجدار من الرمال علا حتى بلغ عنان السماء!!

«زهير.. زهير.. أين أنت؟!».

صرخ بها رماح وهو يحرك يديه أمام وجهه بقوة وكأنه يحاول طرد الرمال عن وجهه، التي أخذت تخزه بقوة رهيبة تاركة علامات دامية في كل شبر من وجهه، واختلطت دماؤه بعرقه، وشعر بآلام مبرحة من مواضع جروحه، وأخيرا رآه!!

كان زهير جاثيا على ركبتيه والرمال تدور حوله في دوامة غاضبة وكأنها تروم إغراقه في باطن الصحراء، فاستجمع رماح كل ما في جسده من قوة، وفي نفسه الصلبة من عزيمة وإصرار ليدفع نفسه نحو زهير، وهتف بصوت حاول أن يعلو به فوق هدير العاصفة وهو يجثو إلى جانبه:

«زهير.. هل أنت بخير؟!».

قال زهير وهو ينظر إليه بعينين محمرتين:

«تبا.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها عاصفة رملية بهذه الشراسة يا رماح، و... رمااااح».

بتر عبارته، وهتف باسم رماح عندما اقتلعت الرياح العاوية هذا الأخير في الهواء، وأمام عيني زهير الملتاعتين رأى رفيق عمره يُدفن بسرعة رهيبة تحت أطنان من الرمال الغاضبة، ودون أن يقدر على ردها على الرغم من حركاته العنيفة وهو ساقط على ظهره، فنهض زهير بصعوبة، وتلاحقت أنفاسه بفعل الرمال التي اخترقت صدره، ومد يده أمامه وهو يصرخ:

«كلا يا رماح.. قاوم يا صديقي.. لا تستسلم للموت بهذه السهولة.. كلا يا رماح.. كلا!!».

لكن هبَّة قوية من الرياح حملته في الهواء وجعلته يطلق شهقة قوية قبل أن يسقط على وجهه.. وأحاطت بعقله غيبوبة رحيمة.. وبدأت الدنيا تظلم تدريجيا من حوله!!

وكما هبت العاصفة بهذه القوة المباغتة.. بدأت تهدأ ببطء حتى سكنت الصحراء إلى هدوء قاتل..

كانت السماء قد أظلمت تقريبا.. وواحدا تلو الآخر أخذت النجوم الباهتة تظهر في صفحتها.. وهبت بدلا من الرياح الساخنة رياح شديدة البرودة.. وبدا المشهد مرعبا لأقصى حد في هذه البقعة من الصحراء.. أجساد متناثرة في كل مكان.. وقد سكنت حركتها.. فهي قد فقدت الوعي.. أو الحياة!!

* * *

«عجبا!! أنا واثق من أنني قد فقدت هذا الطلسم منذ أيام عند تلك الصخرة!!».

قالها سهيل وهو يقلب الطلسم - الذي منحته أمه إياه قبل رحيله مع القافلة - في يديه، ونظر

إلى خادمه وقال يسأله:

«قل لي يا زين.. أين وجدته؟!».

ابتلع الخادم ريقه بصعوبة قبل أن يقول مجيبا:

«لقد.. لقد.. وجدته بالقرب من فراشك يا سيدي سهيل.. و.. و...»..

بتر عبارته، فقال سهيل وقد توترت ملامحه الوسيمة:

«وماذا يا رجل؟! انطق!».

رفع زين يده أمام وجهه وكأنه يتوقع أن يلطمه سهيل، وسرت في جسد سهيل رجفة قوية عندما قال:

«لقد وجدت بجواره عقربا سوداء يا سيدي.. عقرب مخيفة.. بدت وكأنها تنظر إلى الطلسم.. وكأنها تحرسه، و...».

قال سهيل يقاطعه بلهفة:

«عقرب؟! وما الذي فعلته مع هذه العقرب يا زين؟!».

اتسعت عينا زين وهو يقول ردا على السؤال:

«لقد قتلتها بالطبع.. لقد فعلتها قبل أن تهاجمني يا سيدي سهيل، و... سيدي.. ماذا دهاك؟».

انتفض جسد سهيل بقوة، وقبض على الطلسم قبل أن يقول مشيرا بيده الأخرى نحو زين:

«اغرب عن وجهي الآن».

قال زين وهو يتراجع للوراء:

«سيدي شعيب يبلغك أننا سنبلغ أسوار تدمر مع شروق شمس اليوم الجديد، و...»..

هدر سهيل في وجهه كالعاصفة:

«قلت اغرب عن وجهي عليك لعنة الآلهة جميعا!!».

فزع الخادم المسكين وهو يعدو إلى مؤخرة القافلة التي تشق طريقها إلى تدمر عاصمة المملكة ومقر حكم الملك غالب.

وعاد سهيل يقلب الطلسم بين يديه مرة أخرى، وهو يتمتم بصوت لم يسمعه سواه:

«بحق الآلهة.. ما الذي يحدث لك يا سهيل؟! منذ غادرت القبيلة في هذه القافلة وكل شيء من حولك يكتنفه غموض رهيب!».

وصمت هنيهة قبل أن يقول وهو يرفع عينيه إلى السماء التي تلطخت بأضواء الغروب الدامية:

«ما الذي تخفيه لك الأيام في جعبتها غير هذا يا سهيل»؟!

* * *

«أحسنت يا يام».

قالها حزقيل وهو ينظر إلى الصرة الضخمة التي أحضرها يام إلى غرفته بداخل ذلك الدير السري الموجود بقلب الصحراء وفي عينيه لمع بريق الجشع.. قبل أن ينظر إلى يام مرة أخرى ويقول بخبث:

«هل وضعوا زجاجة العطر مع المحتويات؟».

نظر يام نحوه بغباء وكأنه تم الإيقاع به وقال:

«لا أدري يا سيد حزقيل.. فأنا تسلمت الصرة وأحضرتها كما هي.. ولم أفتحها لأنك لم تأذن لي بذلك».

ابتسم حزقيل في هدوء وعيناه تتفحصان وجه يام وقال:

«أحسنت يا يام.. فأنا لا أكره أكثر من الفضول والفضوليين.. والخونة».

انتفض يام وكأنما تم جلده بسوط على حين غرة:

«سيدي حزقيل أنا أدين لك بحياتي.. ولن أخون عهدا قطعته على نفسي أبدا.. يكفيني ثقة منك أنك أطلعتني على مكان الدير السري دون أحد آخر».

ابتسم حزقيل ابتسامته الصفراء وقال:

«على الرغم من أنك يهودي.. فإن ثقتي بك بلا حدود.. والدليل على ذلك أني سأطلعك على أخطر أسرارنا؛ فليس الدير السري إلا أهونها».

ظهر الاهتمام على وجه يام وقال:

«حياتي فداؤك يا سيد حزقيل.. ولن تجدني إلا خادمك الوفي».

ربت حزقيل على كتفه وقال:

«هذا ما أتوقعه منك دائما يا يام.. اتبعني».

تقدم حزقيل وخلفه يام يقطعان الممر القصير المفضي إلى السرداب الذي يقود إلى القبو الموجود في الدير السري.. ومع كل خطوة كان قلب يام يدق أسرع وأسرع وعيناه تتسعان.. فرحلتهما لم تنتهِ بالقبو الفارغ، لكنها بدأت منه..

تقدم حزقيل وهو يحمل تلك الصرة واقترب من جزء في الجدار لا يختلف عن الأجزاء الأخرى تماما وضغطه بطريقة معينة لينزاح من أرضية القبو جزء كبير ليكشف عن سلم حجري يقود إلى أسفل وإلى الظلام..

فغر يام فمه واتسعت عيناه، والدير يفصح في كل لحظة عن سر من أسراره..

هبط يتبع حزقيل على الدرجات الحجرية وبصره يرتد إليه مدحورا كلما حاول أن يخترق حجب الظلام..

شعور مخيف تسلل إلى قلبه وهو يهبط درجة خلف أخرى..

خمسون درجة من الممكن أن تكون أكثر أو أقل من صنعها أنفق فيها وقتا ومجهودا مضنيين وتردد في حلقه تساؤل:

«أي أسرار تخفيها بأعماقك أيها الدير الغامض؟».

انتهى الدرج.. فتقدم حزقيل عدة خطوات غشي بعدها الضوء عيني يام عندما أشعل حزقيل مشعلا ضخما متوهجا.. وعلى ضوء المشعل نظر حوله ليصطدم بصره بمتاهة من الممرات المعقدة.. فقال بصوت ذاهل:

«أي شيطان صمم هذه المكان العجيب؟».

استدار له حزقيل بغضب وقال:

«لم يكونوا شياطين يا يام بل كانوا حكماء.. أفنوا عمرهم من أجل الوصول للقوة التي ستجعلنا أسياد العالم».

ارتجف يام عندما رأى الغضب يلمع كشيطان في عيني حزقيل وقال:

«لم أقصد يا سيدي، لكن انبهاري جعل اللفظ يخونني».

عاد الهدوء لوجه حزقيل وقال ليام بصوت هادئ:

«للكلمات قوة رهيبة لا يعرفها إلا من أتى علمها.. لا تجعل لسانك يسبق عقلك فتهلك».

توتر يام أكثر وأخذ يردد كالمجذوب:

«لم أقصد يا سيدي، لم أقصد».

تجاهله حزقيل وهو يتقدم عبر سلسلة متشابكة من الممرات.. حتى وصلوا إلى قاعة هائلة الاتساع ربما كانت كهفا تم تمهيده.. وهناك اتسعت عينا يام كما لم يحدث من قبل وهو ينظر لمحتويات القاعة وفي أذنه دوى صوت حزقيل العميق:

«هنا يا يام تتوارى أخطر أسررنا وأسرار أجددنا.. هنا يرقد السر الأعظم منذ شق موسى البحر بعصاه.. من هنا ستولد النبوءة القديمة من جديد.. تلك النبوءة التي أطارت صواب غالب وجعلتنا ندفعه في خضم أحداث لا ناقة له فيها ولا جمل.. هنا يا يام ستكون التضحية الكبرى.. فهل قلبك مستعد؟».

ظل يام على صمته وهو ذاهل وكأنما أصابه مس أو سحر، فابتسم حزقيل في هدوء وتقدم نحو الداخل أكثر..

* * *

(١٣)

الشمس بدأت تنحدر نحو الغرب، وتحولت إلى قرص عملاق أرجواني، وبدت رمال الصحراء الهادئة في هذا الوهج وكأنها قد اكتست بلون دموي رهيب يثير الرجفة في الأجساد، وهبات من الرياح الباردة تنبئ ببداية ليلة صحراوية قارسة البرودة.. والقافلة المشتتة تحاول أن تلملم أشلاءها المتناثرة هنا وهناك بعد العاصفة الرهيبة التي ضربتها بقسوة غير مسبوقة.

«سيدي سهم.. سيدي سهم.. هل أنت بخير؟!».

فتح سهم عينيه بصعوبة، ورأى أمامه صهيل وقد كسته الرمال، ومن جبهته سال خيط رفيع من الدم، فازدرد ريقه ليشعر بجفاف رهيب في حلقه، وقال محاولا الاعتدال:

«مـ... ما... ماء»..

هز صهيب رأسه بقوة وقال وهو يتناول قربة جلدية صغيرة وأدناها من فم سيده:

«تناول يا سيدي.. ها هو الماء».

شعر سهم بالارتياح عندما سالت المياه إلى حلقه الجاف، وظل يعب منها بعض الوقت قبل أن يرفعها بعيدا عن فمه، وقال صهيب وهو يرقبه بعينين أطل منهما القلق:

«هل تشعر بتحسن الآن يا سيدي سهم؟!».

تطلع إليه سهم قليلا قبل أن يهز رأسه إيجابا، ومرت هنيهة من الصمت قبل أن يقول متسائلا بصوت مبحوح:

«ماذا عن بقية القافلة يا صهيب؟!».

ابتلع صهيب ريقه بصوت مسموع وقال:

«لا أدري بعدُ يا سيدي.. لكن الرجال يحاولون استجلاء الأمر منذ هدأت العاصفة.. ومن المؤكد أننا فقدنا الكثير من العتاد والرجال، و...»..

بتر عبارته فقال سهم بعد إذ تنهد بقوة:

«يا لها من عاصفة رهيبة يا صهيب.. لم أشهد مثلها في حياتي».

قال صهيب وهو يهز رأسه:
«بالتأكيد يا سيدي سهم.. بالتأكيد».
نهض سهم معتمدا على كفيه وقال وهو ينفض التراب العالق بثيابه:
«دعنا نرَ ما توصل إليه الرجال».

* * *

البقاء في هذه البقعة من الصحراء على الرغم من خطورته، وعلى الرغم من احتمالات هبوب العاصفة من جديد، كان أمرا حتميا، ولا بديل عنه!
كان هذا هو قرار رجال القافلة بعد نجاتهم من العاصفة، فالكثير من البعير لن تتمكن من مواصلة الرحلة إلا بعد أن تنال قسطا وافرا من الراحة، هذا بالإضافة إلى ضرورة التقاط الأنفاس بعد الخسارة الفادحة التي مُنيت بها القافلة في العتاد وأرواح الرجال، لكن «سهم» كان يشعر بأن بقاء القافلة هنا لا يحمل لها أي خير على الإطلاق؛ فتلك العاصفة كانت بالنسبة إليه نذير شر لما يمكن أن تواجهه القافلة في هذه الصحراء التي لا يدري لماذا يراها مع حلول الظلام غريبة عليه، خاصة مع القمر الذي بدا بدرا منيرا في قلب السماء في غير وقته.
«إنها قافلة ملعونة.. بحق الآلهة إنها كذلك!».
قالها أحد الرجال وهو جالس مع اثنين آخرين وأمامهم أخذت النار تتراقص في الحفرة الصغيرة في الرمال، فتبادل الاثنان نظرة قلقة قبل أن يقول أحدهما بصوت هامس:
«اخفض صوتك يا بدر.. خادمه صهيب قريب منا، ومن المؤكد أنه سيبلغه بما يسمعه».
قال بدر وهو يلوح بيده:
«لا يهمني ما سيسمعه العبيد يا ربيع.. هذه القافلة ملعونة ما دام ابن سدوم فيها.. صدقوني».
ازدرد الثالث ريقه وقال:
«بدر محق يا ربيع.. انظر ما أصابنا.. عاصفة رهيبة لم نشهد مثلها من قبل قط.. خسارة فادحة في الأرواح والمؤن التي حملناها معنا.. وأخيرا القمر.. هل رأيت من قبل القمر بدرا في مثل هذا الوقت!».
اختلس ربيع نظرة إلى وجه القمر، وسرت في جسده رجفة باردة، فانتزع عينيه عنه وكأن ضياءه الفضي يؤلمهما، وقال وهو يضم ذراعيه إلى بعضهما:
«إنه أمر عجيب حقا يا سعد، و...»..
قال بدر يقاطعه وقد اربدت ملامحه:

«بل لعنة يا ربيع.. ولا بد أن نقضي على مصدر اللعنة قبل أن تقضي علينا جميعا، وتصبح الصحراء مثوانا الأخير».

اتسعت عينا ربيع وهو يقول متسائلا:

«بدر.. ما الذي تفكر فيه بالضبط؟! أفصح بمكنون نفسك يا رجل!».

قال بدر وهو يضيق عينيه:

«قتل ابن سدوم ودفنه في الصحراء.. هذا هو ما أفكر فيه يا ربيع».

قال سعد مستنكرا:

«بدر.. هل فقدت عقلك؟! بحق الآلهة أي جنون هذا؟!».

هب بدر واقفا، وبدا مظهره مخيفا وراح صدره يعلو ويهبط وهو يقول بلهجة أخذ الغضب يزحف عليها بسرعة:

«ليس جنونا يا سعد، بل هو الكلام الوحيد الذي يتسم بالعقل.. لقد شعرت بالتشاؤم مذ رأيت ابن سدوم معنا في هذه الرحلة إلى مصر.. واستشعر قلبي خطرا رهيبا من وجوده بيننا، ولا أقلّ من التخلص منه للقضاء على لعنة وجوده بيننا».

قال سعد وقد أطل الخوف من عينيه:

«وماذا عن سدوم يا بدر؟ أتغفر مقتل ابنها الوحيد؟! سدوم يا رجل.. كاهنة بني عامر الكبرى!».

قال بدر وهو يضم قبضته بقوة:

«لتحل عليها لعنة الآلهة.. إنها بعيدة عنا الآن، ولن يطالنا أذاها أبدا».

تبادل سعد وربيع نظرات امتزج فيها القلق بالحيرة بالخوف، قبل أن يقول الأول:

«بدر.. دعك من هذا الجنون.. غدا مع شروق الشمس ستعاود القافلة طريقها إلى مصر».

شبك بدر ذراعيه أمام صدره وقال:

«وهل تضمن ما يحمله لنا الليل يا سعد؟! من يدري؟ ربما يقرر ابن سدوم قتلنا جميعا ونحن نيام».

وهز رأسه بقوة، وقال ويده تتجه إلى مقبض خنجر استقر في حزامه:

«كلا وألف كلا.. لن أنتظر حتى أجد نفسي جثة هامدة تُترك لجوارح الصحراء.. سأقتل ابن سدوم الليلة، فمن منكما معي فليلاقني عند ذلك التل مع انتصاف الليل، ومن يجبن فليحمل نتيجة جبنه فوق رأسه».

قالها وأسرع يغادرهما كعاصفة هادرة، و...

«هل سمعت ما سمعته يا عمير؟!».

قالها عسير وقد تألقت عيناه، فهز عمير رأسه إيجابا وهو يتشاغل بالنظر إلى نصل خنجره اللامع، وبين الحين والآخر يختلس نظرة إلى القمر المكتمل، وانفرجت شفتاه ليقول:

«لا شأن لنا بما يحدث يا عسير».

التفت إليه عسير وقال وابتسامة خبيثة ترتسم على شفيته:

«هناك تمرد في قلب القافلة.. وتريدنا ألا نتدخل فيه؟».

قال عمير مقطبا:

«نحن ذاهبان إلى مصر في مهمة محدودة.. ولا شأن لنا بأي أمر آخر».

ثم إنه اعتدل في جلسته قليلا وهو يقول:

«أم تراك تفكر في حماية ابن سدوم يا عسير؟!».

اتسعت ابتسامة عسير وهو يقول:

«لا تهمني حياة ذلك الفتى يا عمير.. إنما أفكر في استغلال الوضع لصالحنا».

ترك عمير خنجره يسقط على الرمال وهو يقول متسائلا:

«عسير.. ما الذي تنتويه بالضبط؟!».

فرك عسير كفيه معا، وقال وبريق عينيه يكاد ينافس بريق القمر:

«نحن لصوص يا عزيزي عمير، ما الذي تظنني أنتويه غير ممارسة القليل من العمل قبل أن نصل إلى مصر وننفذ المهمة التي أسندتها إلينا سدوم».

التقى حاجبا عمير في تقطيبة عميقة، وشعر بقبضة قاسية تعتصر قلبه بلا رحمة.. وراوده يقين غير عادي بأن هذه الليلة ستحمل الكثير والكثير لهذه القافلة!!

* * *

لاح الغضب على وجه سدوم وهي جالسة في خيمتها، وأمامها ذلك الوعاء المليء حتى حافته بدماء قانية تصاعدت منها أبخرة داكنة، وأخذت تحرك بأناملها تلك المجسمات الخشبية بحركات دائرية شبه منتظمة، ومر وقت طويل وهي منهمكة في ما تفعله، قبل أن تتوقف، ورفعت إصبعا أخذت الدماء تقطر منها، ومن عينيها بدا بريق مخيف، واهتز جسدها بفعل غضب كاسح عصف بنفسها..

هناك من يحاول عرقلة خططها..

تلك العاصفة التي تعرضت لها القافلة ليست عاصفة عادية على الإطلاق..

هناك من يحاول أن يسبقها إلى الهدف الذي أفنت سنوات طويلة من عمرها سعيا وراءه..

«إنه أنت بالتأكيد يا حزقيل!!».

قالتها بصوت يقطر حقدا وكراهية، وعادت تغمس إصبعها في الدم، وتحركها بسرعة، وراحت الدماء تفور وكأنها تغلي، وازدادت الأبخرة الداكنة حتى ملأت جو الخيمة على نحو خانق..

واتسعت عينا سدوم عن آخرهما، وراحت الأجساد الخشبية تغوص وتطفو على نحو متتابع، واشتعلت نيران الغضب في عينيها، وانفرجت شفتاها لتخرج من حلقها صرخة رهيبة تردد صداها في الصحراء الواسعة المحيطة بخيمتها من كل اتجاه.. صرخة تنذر بشرٍّ رهيب.. رهيب إلى أقصى حد!!

«لا أحد قادر على هزيمة سدوم.. سأذيقهم جحيمي الخاص.. ولن ينجو منهم أحد.. لن ينجو منهم أحد».

* * *

«سيدي.. ما هذا المكان؟!».

ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتي حزقيل وهو ينظر باستمتاع إلى الدهشة البادية على وجه يام وهو يدور بعينيه في محتويات تلك القاعة في ذلك الدير السري بالصحراء، وقال وهو يفرك كفيه معا ببطء:

«هنا تكمن أسرار القوة المطلقة التي تركها لنا الأجداد يا يام.. تراث لا يقدر بثمن.. لا تكفي أموال الأرض بأسرها جزءا من أهميته وخطورته.. هنا توجد خلاصة العلم الذي أفنى فيه أسلافنا أعمارهم.. هذا كله من أجل رفعة أمتنا.. ومن أجل أن يعرف العالم كله أننا الشعب المختار.. نحن الأجدر بالقوة.. بالسيطرة.. بلا منافس».

وصمت هنيهة قبل أن يقول متابعا:

«لكن يبدو أن هناك من يريد مقاسمتنا نصيبا من القوة يا يام».

أفلتت شهقة من حلق يام، وتجهمت ملامحه، وقال ويده تمتد إلى مقبض خنجر في حزامه:

«من يا سيد حزقيل؟ أخبرني بهويته وأنا أضمن ألا يعيش يوما آخر على وجه الأرض!».

اتسعت ابتسامة حزقيل وهو يقول:

«رائع هو ولاؤك بقضيتنا يام.. هكذا ينبغي لكل شبابنا أن يكون».

قال يام وهو يحني رأسه قليلا:

«أنا خادم قضيتنا المخلص يا سيد حزقيل.. حياتي فداء لها».

قال حزقيل وهو يربت كتف يام بيده المعروقة:

«لكني بحاجة إليك حيا يا يام.. ومن أعنيها لن تتمكن من قتلها بخنجرك وحده، فلو أن الأمر هكذا، ولو أن كل أعدائنا نستطيع التخلص منهم بطعنة خنجر لهان الأمر كثيرا».

قال يام وعيناه تضيقان:

«أهي امرأة يا سيد حزقيل؟!».

هز حزقيل رأسه إيجابا، فقال يام مستنكرا:

«ولكن...».

قال حزقيل يقاطعه:

«سدوم ليست امرأة عادية يا يام.. إنها ساحرة مقتدرة.. وتحت إمرتها عائلة كاملة من الجن تنفذ رغباتها وتعمل طوع بنانها».

قال يام وأنفاسه تتلاحق:

«أهي سدوم كاهنة بني عامر الكبرى يا سيد حزقيل؟!».

قال حزقيل:

«بشحمها ولحمها».

وأخذ نفسا عميقا قبل أن يقول مكملا:

«سدوم أرسلت رجالها إلى مصر يا يام.. إنها تسعى للقبر المختار.. حيث تكمن أهم أسباب القوة قاطبة.. لكني عطلت سير هذه القافلة بعاصفة لم تشهد الصحراء لها مثيلا».

ابتلع يام ريقه وقال:

«وهل.. هل...؟».

قال حزقيل يقاطعه مرة أخرى:

«كلا.. لقد نجوا جميعا عدا واحد منهم.. ولا ينبغي أن يصلوا مصر سالمين يا يام».

قال يام وهو يستل خنجره ليلتمع النصل الحاد في ضوء المشعل:

«أنا رهن إشارتك يا سيدي.. والرجال مستعدون لأي مهمة».

هز حزقيل رأسه نفيا وقال:

«كلا يا يام.. لقد أعددت لهم مصيرا أكثر بشاعة مما يمكنهم التخيل».

وضاقت عيناه وهو يقول بلهجة مغموسة في الكراهية السوداء والحقد:

«ستواجه قافلة سدوم هولا لم تشهد هذه الصحراء مثله من قبل أبدا.. هولا سينتزع أرواحهم الواحد تلو الآخر.. دون أن يجدوا في أنفسهم القدرة على الرد أو حتى التفكير في الدفاع عن أنفسهم».

وتألقت عيناه وهو يضيف وابتسامته تعاود الارتسام على شفتيه:

«الخطافون مستعدون للقيام بواجبهم لخدمة قضيتنا المقدسة عزيزي يام».

* * *

(١٤)

تحت أشعة الشمس الذهبية بدت أسوار تدمر العالية، وانعكست الأشعة عن القباب المكسوة بالذهب مصدرة بريقا يخطف الأبصار ويبهرها، وراحت القافلة تجد السير نحو بوابات المدينة التي فُتحت على مصاريعها تستقبل تيارات من البشر، وتودع تيارات أخرى.

الكثير من الأجناس والألسنة والوجوه المتباينة قد أتت من الشرق والغرب والشمال والجنوب إلى أكبر مدينة في أرض العرب.. بكل قوتها، وبكل سطوتها، والهيبة التي فرضها الملك غالب على الجميع بفضل جيوشه القوية التي لم تخسر حربا منذ جلوسه على العرش.

فوق الأسوار العالية بدا الجنود شاكي السلاح.. دروعهم تلتمع تحت أشعة الشمس، خوذاتهم تعكس وهجا قويا يغشي البصر، ورماحهم ثابتة في أيديهم، وعيونهم القاسية تتابع الوجوه بحثا عن أي بادرة للشك بأحدها لتفتك وتضرب بلا رحمة، وبلا هوادة.

كانت طرقات المدينة تشهد بجمالها، وروعة معمارها الذي لم يكن مألوفا بين عمائر العرب، جعلها الملك غالب عاصمة تتحدث عنها بلاد العرب بأسرها، فكانت تدمر بكل روعتها.. قصورها.. مبانيها العالية.. معابدها ذات الواجهات الحجرية الضخمة والتماثيل العملاقة التي تناطح السحاب.

على رأس القافلة التي عبرت بوابات المدينة كان سهيل على صهوة جواده بجوار عمه شعيب وكبار تجار القافلة، وقال الأول وتعبير ذاهل باد على ملامحه الوسيمة:

«بحق كل الآلهة يا لها من مدينة يا عماه!!».

قال شعيب وابتسامة شاحبة ترتسم على شفتيه:

«لقد نسيت.. إنها المرة الأولى لك في العاصمة تدمر يا سهيل».

قال سهيل وعيناه تدوران في كل مكان من حوله:

«إنها رائعة.. مبهرة يا عماه.. هل أتيت إلى هنا من قبل؟!».

تحولت ابتسامة عمه إلى ضحكة قبل أن يقول:

«مرارا وتكرارا يا سهيل.. بل شهدتها قبل أن تصبح بهذا الجمال».
نظر سهيل إلى عمه باستنكار شديد قبل أن يقول:
«وكنت تطيق العودة إلى الصحراء المحرقة يا عماه؟! كيف بحق الآلهة؟!».
هز شعيب رأسه قبل أن يقول مشيرا بسبابته نحو صدره:
«أنا ابن الصحراء يا سهيل.. لا أجد الراحة ولا الأمان إلا في رمالها الممتدة بلا نهاية.. الأسوار العالية تشعرني دوما بالانقباض.. ولم تُغرِني تدمر بالبقاء فيها كما فعل تجار كثيرون من قبلي».
مط سهيل شفته السفلى قبل أن يقول وهو يشد يده على عنان جواده:
«أما أنا فلو أن الأمر بيدي لبقيت هنا حتى نهاية العمر، فمن المؤكد أن أسباب اللهو هنا أفضل من مضارب القبيلة».
ضج عمه بالضحك مرة أخرى قبل أن يقول مربتا كتفه:
«احمد الآلهة على أننا لن نبقى هنا إلا أياما قليلة قبل أن نواصل طريقنا إلى مصر.. هيا بنا.. سنذهب إلى الخان الكبير، ولنأمل أن نجد مكانا شاغرا لقضاء أيامنا في المدينة».
قال سهيل بصوت خافت وعيناه تتألقان:
«ومن الحماقة أن تضيع هذه الأيام القليلة دون أن تمرح كثيرا يا سهيل.. الحسناوات هنا في كل مكان.. هاهاها».
لكنه لم يكن يدري أبدا أن وصوله إلى تدمر سيحمل له أمرا كان بعيدا عن أكثر خيالاته جموحا بُعد السماء عن الأرض!!

* * *

مع اقتراب الليل من الهزيع الأخير..
غطت وجه القمر خيالات سوداء ذات أشكال متغيرة لا تستقر على هيئة واحدة..
وراح ضوء القمر البارد يظهر حينا ويختفي حينا آخر، وأخلدت الصحراء إلى صمت وسكون تامين..
الرياح توقفت عن العواء.. الرمال استقرت على نحو عجيب.. حتى الهواء أحس به بدر ساكنا لا يتحرك وهو يغادر خيمته، ويده قابضه بقوة على سيفه المعلق في حزامه.
لقد انتوى أن يقتل «سهم»..
لن يتراجع عما انتواه أبدا.. لا بد من التخلص ممن يراه شؤما على القافلة بأسرها.. ويمثل وجوده هلاكا لكل من فيها وما فيها.
كان يريد أن ينفذ خطته مع انتصاف الليل كما اتفق مع سعد وربيع، لكن الكثير من التجار

كانوا متيقظين.. ولم يخلدوا إلى النوم إلا بعد منتصف الليل بكثير.. ولكن لا يهم.. المهم هو أن يتم ما أراده.. يقتل ابن سدوم في خيمته، وفي الصباح يمكنهم أن يعزوا مقتله إلى واحد من ذئاب الصحراء تسلل إلى خيمته.

رفع عينيه إلى السماء، واتسعتا عن آخرهما عندما خُيِّل إليه أنه قد رأى وجها مخيفا في القمر.. وجها له عينان حمراوان كالدم، وبصعوبة بالغة عاد ينظر أمامه ورجفة باردة تسري في أوصاله وترجها بعنف.

هز رأسه بقوة قبل أن يقول بصوت هامس، وقد بدأت حبات العرق تتجمع على جبينه:

«ماذا دهاك يا بدر؟! إنها ليست المرة الأولى التي تقتل فيها رجلا.. ما الذي أصابك؟! ولماذا تشعر بهذا التخاذل الآن؟!».

توقف عن السير.. تلفت يمنة ويسرة، فلم تطالعه غير الرمال السوداء تمتد في كل اتجاه بلا نهاية.. التلال الرملية بدت وكأنها كتل سوداء عملاقة.. أشبه بوحوش رابضة تستعد للانقضاض على ضحاياها في أية لحظة!!

وفجأة.. مزق صوت العواء سكون الصحراء وصمتها!!

«بحق الآلهة، ما هذا العواء؟!».

قالها عمير وهو يتوقف عن السير ويتلفت حوله، فالتفت إليه عسير وقال بلهجة حانقة:

«عمير.. إنه مجرد ذئب، و...».

قال عمير يقاطعه بعد أن ابتلع ريقه بصعوبة:

«وهل بدا لك هذا العواء الرهيب شبيها بعواء الذئاب يا عسير؟!».

اربدت ملامح عسير وهو يقول:

«ماذا يكون إذًا؟! ما الذي أصابك يا رجل؟! عهدي بك تكره الجبن والجبناء، لكني أراك اليوم تتخذ مسلكهم في كل تصرفاتك؟!».

قال عمير وعيناه تتسعان:

«أنت تعلم أنني رافض لكل شيء يا عسير.. تلك المهمة الملعونة التي أسندتها إلينا سدوم.. العاصفة التي واجهناها.. وأخيرا ما تنوي فعله ولا أعلمه حتى اللحظة!».

قال عسير وهو يقترب منه بخطى واسعة:

«ما الذي تظنني أريد فعله يا عمير؟ هه؟! نحن لصوص يا رجل.. لصوص.. هل نسيت هذا يا صاح؟!».

قال عمير وهو يشبك ذراعيه أمام صدره:

«نحن لصوص مقابر يا عسير.. ولم نسرق القوافل من قبل».

قال عسير وهو يهز كتفيه العريضتين:

«لا فارق لديَّ.. القافلة بها من الخيرات ما يكفي ويزيد.. إذا نجح ذلك الرجل في قتل ابن سدوم ستدب الفوضى بين الرجال.. ومن الحماقة ألا نغتنم الفرصة يا عمير.. هيا وانفض عنك جبنك وتخاذلك...»..

بتر عبارته عندما رأى وجه عمير يمتقع، وعينيه تتسعان، ومنهما أطل ذعر الدنيا، وراح جسده يرتجف بقوة، فتوترت ملامحه وهو يقول:

«عمير! ماذا دهاك؟!».

مرت لحظات احتبست فيها الكلمات في حلق عمير.. وأخيرا وجد في نفسه القدرة ليقول:

«وراءك يا عسير.. لقد رأيته وراءك!!».

التفت عسير بحركة حادة ليرى الرمال أمامه، فعاد ينظر نحو عمير وهو يقول محتدا:

«لا يوجد أي شيء ورائي! هل أصاب عقلك مس أم ماذا؟!».

أخذ عمير نفسا عميقا قبل أن يقول بصوت مبحوح:

«لقد رأيته يا عسير.. أقسم لك.. كيان أسود رهيب.. برز من الرمال.. وامتدت منه يدان هلاميتان، و.. و...»..

قال عسير يقاطعه:

«وماذا يا رجل؟! تكلم».

انفرجت شفتا عمير ليقول شيئا ما، لكن يدا سوداء انبعثت من الرمال بغتة تحت قدميه، وأطلق عمير صرخة مذعورة عندما امتدت اليد تلتف حول ساقيه، وشعر بجسده يطير في الهواء قبل أن يسقط على الأرض.

أمام عيني عسير المذعورتين.. راحت اليد تجذب عمير تحت الرمال بسرعة رهيبة.. وهذا الأخير يطلق صرخاته الكفيلة بإيقاظ الأموات في قبورهم.. ولكن العجيب أن صرخاته لم تبلغ أسماع تجار القافلة!!

استل عسير سيفه وانقض بقوة على اليد الممسكة بعمير وراحت تجذبه بسرعة مجنونة إلى باطن الرمال، و...

«عمير.. تماسك!».

رفع سيفه ليهوي به على اليد، لكن كيانًا أسودَ يبلغ طوله مترين تقريبا برز من الرمال عن يساره مثيرا عاصفة محدودة، وبكل قوة انقض على عسير الذي شعر بجسده يطير في الهواء مسافة كبيرة، وشهقة قوية تفلت منه، وأطلق صرخة قوية عندما ارتطم جسده بالأرض، وشعر

بكل شبر في جسده يصرخ ألما!!
مرت لحظات عليه وهو راقد على الأرض.. صدره يعلو ويهبط بسرعة.. صرخات عمير تخفت.. وتخفت.. حتى اختفت تماما!!
نفض جسده ليعتدل.. تجاهل آلامه المبرحة وهو يهتف:
«عمير.. عمير.. كلا.. عمييييييييير».
حاول أن يعتدل.. لكن الكيان الأسود انقض عليه وألقاه للوراء بضعة أمتار، ليضيف إلى آلامه آلاما جديدة مضاعفة!!
من سقطته على الأرض رأى الكثير من الكيانات السوداء تبرز من الرمال.. الواحد تلو الآخر.. وببطء راحت تتقدم من المخيم الذي أقامته القافلة.. وفي قرارة نفسه أيقن عسير أنه لن يشهد شروق شمس اليوم الجديد!!

* * *

زفر الملك غالب في غضب وهو يدور كالليث الجريح في غرفته المتسعة، وفي عقله دارت آلاف الأفكار السوداء.. ما له يشعر بالضعف والتخاذل؟ إنه لم يعتَد هذا الأمر من نفسه.. لم يعتده أبدا.. لماذا أصبحت مقدرات أموره موزعة بين نبوءات قديمة قد تتحقق وقد لا تتحقق وبين ساحر يهودي خبيث لا يؤتمن على فسيلة قمح، فما باله بحياته؟!
أين غالب القديم بكل قوته وسطوته وشموخه وإرادته التي انحنت أمامها جباه الجميع؟
لماذا استسلم لمثل هذا الأمر؟
هل يخشى على حياته حقا؟ هل أصبح حملا وديعا بعد سنوات من القتال والتخطيط والملك؟
لا، إنه لن يسمح بعد هذه السنوات كلها بأن يسيطر الخوف عليه فيحرمه من السكينة والنوم.. إنه لن يترك نفسه في مهب ريح الخرافات والسحرة.. يجب أن يتحرك.. إن تحت يديه جيوشا هائلة وثروات تكفي لتصنع له حصنا لا مثيل له.. يقيه كل شيء وأي شيء..
دارت الأفكار في رأسه كرياح السموم.. وظل يدور حول نفسه وهو يبحث عن طرف الخيط.. يجب أن يبدأ من مكان ما أو شخص ما.. وعند هذه النقطة التمعت عيناه ببريق قاسٍ وقال بصوت حانق:
«نعم.. كيف غابت عني هذه النقطة من قبل؟».
قالها ثم اندفع خارجا من مخدعه صوب برج قصره البعيد، وقال مخاطبا خادمه الذي يظل مستيقظا طوال الليل:
«أحضر لي الجلاد وقائد الجيوش حالا».

انتفض الخادم من المفاجأة وقال بصوت مرتجف يكسوه الهلع:
«أين يا مولاي؟».
اندفع الملك غالب في حزم وسرعة يقطع طريقه بين أروقة القصر والخادم يتبعه انتظارا إلى الإجابة، فقال:
«أحضرهم على جناح السرعة إلى السجن الشمالي».
اندفع الخادم في سرعة رهيبة لينفذ أمر سيده، في حين اندفع الملك غالب كالسهم نحو القصر والأفكار تغلي في عقله وتحرقه.. وقد أفزع منظره الحراس والجنود.. واضطربت قلوبهم..
فتلك النظرة التي يحملها غالب لم يروها منذ سنوات عندما كان يقود الجيوش بنفسه ويعاقب الأسرى..
كانت أياما سوداء وجحيما خالصا صنعه غالب في قصره.. لذا عندما ابتدر حارس السجن قائلا:
«افتح الأبواب أيها الكسول قبل أن أطيح بعنقك». فإن الحارس فتح الأبواب بسرعة البرق..
ودخل الملك غالب يتبعه لفيف من الحرس، لكنه لم يبالِ ووجَّه حديثه إلى أحد الحراس وقال:
«أحضروا لي العراف العجوز إلى الغرفة السوداء».
شهق الحراس وارتجفت قلوبهم واندفع بعضهم يحضر العراف، في حين راح سؤال مخيف يتردد في عقولهم: أي جرم ارتكبه هذا العراف ليكون مصيره الغرفة السوداء؟
طارت الخمر من رؤوس الجميع ووقفوا جميعا متأهبين لتنفيذ طلبات الملك وقد سرت قشعريرة مخيفة في أجسادهم..
وقف الملك للحظات في قلب الغرفة السوداء كريهة الرائحة وراح يملأ صدره من هواها الفاسد وهو مغمض العينين محاولا استعادة مشاعر مفرطة في الوحشية كانت قد غادرته منذ سنوات..
لحظات ثم استدار إلى الحرس المتأهبين وقال:
«أشعلوا المواقد أيها الأغبياء.. واشحذوا جميع السكاكين والكلابات وأحضروا بعض المشاعل الإضافية».
تخبط الجنود وكل منهم يحاول أن يذهب في اتجاه لإجابة طلب من طلبات الملك فنظر الملك نحوهم في غضب وقال:
«بسرعة أيها الأغبياء وإلا قطعت رءوسكم بسيفي».
قالها مقرنا الأمر بسحب سيفه.. وما هي إلا لحظات حتى كانت الغرفة قد أضيئت بشدة وتحولت إلى خلية نحل والجميع يعملون في سرعة رهيبة وفي عقولهم دار حوار واحد «لقد عاد الشيطان ليسكن قلب ملكهم ولن يخرج إلا بعد أن تراق أنهار من الدم».
كانت عينا الملك غالب تتابعان التحركات كلها وترصد جميع التغيرات التي أحيت الغرفة وجعلتها تعود كسابق أيامها.
وتوقفت عيناه على وجه العراف النحيل المسن الذي يدفعه الجنود في غلظة، وعندما شاهد

الرعب على وجهه تألقت عيناه في شدة وقال بصوت شيطاني:
«انزعوا عنه ملابسه.. وعلقوه من قدميه كالذبيحة».
اندفع الجنود المذعورون ينفذون أمر مليكهم، فنزعوا ملابس العراف الذي شله الخوف فلم يقاوم أو يدافع عن نفسه ولم يشعر بنفسه إلا وهو معلق كالذبيحة فأخذ يطلب الرحمة من الملك الذي اقترب منه في هدوء وأخذ يتطلع إلى وجهه في صمت والعراف يكاد قلبه يتوقف وعيناه تصطبغان بلون الدماء التي تجمعت في رأسه، حتى إنه انتفض في قوة عندما سمع صوت الملك يقول:
«والآن أخبرني بما تعرفه عن اللعنة القديمة دون أن يفلت منك أي تفصيل».
توتر جسد العراف في خوف، لكنه ظل صامتا فلم ينفعل الملك، لكنه قال بصوت هادئ:
«أحضر لي هذا السيخ المحمي».
دوت صرخة رعب من العراف وابتسم الملك وهو يتناول السيخ من الحارس ثم نظر نحو طرفه شديد الاحمرار وقال:
«ليبدأ المرح».
ثم أطلق ضحكة شيطانية عالية ووضع الطرف المحمي على بطن العراف الذي تعالت صرخاته مع تصاعد رائحة شواء مزعجة..
وسقطت قلوب الحراس في أقدامهم وهم يشاهدون الهول الذي يحدث أمامهم..

* * *

«لقد أصبح القمر بدرا».
قالها ذلك الأعرابي في ذهول وقلبه يرتجف من الخوف والهلع..
دعك عينيه ليتأكد مما يرى.. ثم قال بصوت مذعور:
«يا آلهة الكون انجديني».
كاد يجن وعقله المضطرب يفيض بآلاف التفاصيل المخيفة..
أخذ يدور حول نفسه في خوف وهلع وقلبه يخفق بشدة وقال محدثا نفسه من جديد:
«لقد صدق حديث الساحرة.. وظهرت الإشارة التي لم أتوقع رؤيتها يوما».
قبض على عمود الخيمة بيده ثم ترك جسده يسقط أرضا ومع سقوطه هاجمته تلك الذكرى الملعونة..
«طلبك ليس هينا جهير».
عبس وجهه وغطته سحابة الضيق فقال:

«ألن تستطيعي أن تنفذيه؟».

اتسعت ابتسامة سدوم لتزيد وجهها المتغضن بشاعة وقالت:

«لا شيء يستعصي على سدوم ولكن...».

قال بلهفة المحروم:

«ولكن ماذا أيتها الكاهنة المقدسة؟».

قالت بصوت عابث:

«الثمن مرتفع، ولن تقدر عليه يا جهير».

التمعت اللهفة في عينيه وقال:

«اطلبي ما تشائين أيتها الكاهنة الكبرى.. حتى لو كان ألفا من الإبل».

نظرت نحوه باستخفاف ثم قالت بصوت حازم:

«الإبل ليست مطلبي يا جهير».

قال بتعجل:

«جرة كاملة من الذهب لو رغبتِ ولكن اقضي حاجتي».

صمتت قليلا ثم قالت:

لا أبغي ذهبا أو ماشية، ما أريده هو خدمة مقابل الخدمة التي سأؤديها لك».

اندفع قائلا بصوت منفعل بعد أن لمح الخلاص في كلماتها وقال:

«اطلبي ما تشائين.. مجاب».

«لا تتعجل الموافقة؛ فهو طلب يحتاج لقدر كبير من الشجاعة لا تتوافر لعصبة كاملة من الرجال».

قال بصوت منفعل:

«جربي جهير بطل الحروب والنزال ولن تندمي».

نظرت نحوه نظرة زلزلت كيانه وقالت بصوت قاسٍ:

«أتقسم على الأمر بالدم مهما كان؟».

«أقسم يا سيدتي.. ولكن ما الأمر؟ ومتى تريدين تنفيذه؟».

نظرت نحوه بعين مشتعلة حتى ظن أنه لمح في عينيها لهبا يتحرك وقالت:

«الموعد بعد سنوات عندما يستحيل المحاق بدرا في ليلة واحدة و...».

قاطعها قائلا:

«وهل هذا الأمر قابل للتحقق؟».

قالت:

«نعم هو قابل للتحقق، ولكن لتتذكر.. لو لم تنفذ الأمر كما وعدت سأحرمك من المرأة التي تعشق بعد أن أزوجها لك وسأقتل أطفالك أبشع قتلة وسأمثل بهم كما لم يمثل ببشر قط.. فهل تقبل بالأمر؟!».

طال صمته لدقيقة كاملة ثم وازن الأمر في رأسه وقال بينه وبين نفسه: من يضمن أن يعيش لحظة إضافية ليعيش سنوات؟!

سنوات سأقضيها في المتعة مع المرأة التي عشقتها والتي لا تطيق أن تنظر في وجهي.. لن تكون عاتكة لأحد غيري..

وعلى ذكر عاتكة جرت الرغبة في جسده فقال في صوت حاسم:

«أنا طوع أمرك يا سيدتي.. ولكن ما الأمر؟».

قالت سدوم بصوتها المخيف:

«ستذهب إلى الوادي.. في تلك الليلة التي يستحيل فيها المحاق بدرا».

نظر نحوها في عدم فهم كامل، فاستطردت قائلة:

«وادي الجن يا جهير».

وأسقط في يده.. لكن ولهه بعاتكة جعله يجرح إبهامه ويقسم أمامها قسم الدم..

وها هو المحاق قد استحال بدرا..

أي رعب كان يصيبه كلما رأى القمر محاقا؟!

لقد مرت السنوات حتى كاد ينسى، لكن ها هي الإشارة تأتي لتذكره بقسمه ووعده مع من لا يمكن أن تخلف معه الوعود..

يا ليته ما قطعه..

ولكن كما يقولون سبق السيف العذل..

وها هو الموت ينتظره مبتسما سعيدا بحصوله على غنيمة سهلة..

ينتظره.. في وادي الجن..

* * *

(١٥)

«لقد سعدت بمساعدتك لي هذه السنوات كلها».

قالها حزقيل وابتسامة صفراء ترتسم على شفتيه، وأخذ يفرك كفيه معا ببطء وهو ينظر بعينين متألقتين إلى المرأة الفاتنة الواقفة أمامه، وفي عينيها الواسعتين بدا وكأن النار تتأجج بقوة.

كانت ترتدي ثوبا أسود يتجاوز ساقيها طولا، ووشيت أطرافه بخيوط فضية، وانسدل شعرها الأسود الناعم حتى بلغ كعبيها طولا، وأحاط بجبهتها شريط له لون فضي باهت، وكسا شفتيها الغليظتين بعض الشيء طلاء أسود براق.

«أنت تعلم أنني كنت أقوم بدور محدود يا حزقيل.. ولم أكن أسعى لمساعدتك خصيصا».

قالتها وهي تتأمل أظافرها التي طُليت بلون أسود كذلك، فأطلق حزقيل ضحكة قوية قبل أن يمسح فمه بظهر يده ويقول:

«لكنك أسديت إليَّ أعظم خدمة في حياتي يا كاهنة النار.. خدمة لا تقدَّر بثمن».

وصمت قليلا قبل أن يقول:

«الأميرة عالية أصبحت تحت سيطرتي تماما.. وأيضا ذلك البائس القادم من الصحراء إلى تدمر.. خطتي تسير على خير ما يرام».

وبرقت عيناه وهو يقول بجذل:

«سدوم لن تسبقني إلى الغاية الكبرى أبدا يا عزيزتي كاهنة النار.. أبدا».

التقى حاجبا كاهنة النار في تقطيبة عميقة وهي تقول:

«لكن دعني أحذرك يا حزقيل.. أنت وسدوم تعبثان بأمور تتجاوز معرفتكما بكثير، و...»..

قال حزقيل يقاطعها:

«هل تظنين هذا حقا يا كاهنة النار؟!».

تطلعت إليه كاهنة النار قليلا قبل أن تقول:

«ألا تدرك خطورة الوضع وحقيقته المروعة يا حزقيل؟! الأمر ليس مجرد قوة تمنح لمن ينجح في

السيطرة عليها تفوقا بلا حدود.. الأمر يتجاوز هذا بمراحل.. إنها لعنة ستحيط بالبشر جميعا.. ولو استيقظ الشر الكامن في مصر من رقاده ستكون حربا شعواء!!».

قال حزقيل وهو يميل للأمام قليلا:

«أنا واثق مما أفعله يا كاهنة النار.. لا داعي لكل هذا القلق دون أي مبررات قوية.. الغلبة لي حتما».

ومال للأمام أكثر وهو يضيف بصوت بدا لكاهنة النار كفحيح الأفاعي:

«ولا تنسي أنك قد قبلتِ أن تتخذي جانبي يا عزيزتي.. أليس كذلك؟!».

سرت في جسدها رجفة قوية لم يلحظها حزقيل، وقالت بصوت جامد:

«هذا كله يمكن أن يتغير يا حزقيل.. لا يغرنك ما فعلته من أجلك حتى الآن»..

قال حزقيل بصوت مخيف:

«كلا يا كاهنة النار.. من يعمل مع حزقيل لا يتركه بهذه السهولة أبدا.. ومن يريد خيانتي أو حتى يفكر فيها تكون عاقبته واحدة.. لا راد لها أبدا».

وصمت هنيهة قبل أن يقول مضيفا:

«الموت.. وبلا رحمة.. أو شفقة!».

اتسعت عينا كاهنة النار، وتألقتا ببريق غاضب، فشدت قامتها وهي تقول:

«هل تهددني يا حزقيل؟! تهدد كاهنة النار بالموت؟!».

قالتها ورفعت كفها عاليا.. وأحاطت بها على الفور هالة نارية متأججة ذات لفح رهيب، وعلى الفور أحاطت بها وبحزقيل دائرة من العقارب رفعت أذنابها استعدادا للهجوم، وأمام عيني الكاهنة المشتعلتين بالنار ضحك حزقيل.. اهتز جسده بقوة وكأنه يشاهد مشهدا طريفا، فقالت كاهنة النار بصوت هادر:

«يمكنني أن أسحقك الآن يا حزقيل.. من يقدر على نجدتك من قبضتي الآن؟! من؟!».

تطلع إليها حزقيل قليلا قبل أن يقول ببطء:

«هل أنت واثقة من قدرة هذه الألعاب الصبيانية على إيذائي يا كاهنة النار؟!».

قالها وراحت شفتاه تدمدمان بكلمات هامسة لم تبلغ أذن الكاهنة.. وعلى الفور هبت في المكان ريح ثلجية رهيبة.. وأطلقت كاهنة النار صرخة متألمة عندما أحاطت بها هالة ثلجية ذات لون أبيض باهت.. وعلى الفور خبت النيران المحيطة بها.. وشحبت ملامحها.. وبدا أنها تعاني آلاما رهيبة لا تطاق.. وتفرقت العقارب من حولهما فرارا من هذه الريح الثلجية.. وسمعت كاهنة النار حزقيل يقول بصوت جهوري:

«لا تحاولي يا كاهنة النار.. فمهما بلغت قوتك.. فما هي إلا نقطة في بحر قوتي.. أنت الآن

خادمة تحت قدمي.. تابعة ستطيع الأوامر دون مناقشة.. اركعي تحت قدمي الآن.. قدمي لسيدك الجديد فروض الولاء والطاعة!».

كانت كاهنة النار ترغب في المقاومة.. لكنها شعرت بقوة رهيبة تجبرها على الركوع أمام حزقيل، وراح قلبها يدق بجنون بين ضلوعها وحزقيل يقول:

«مهمتك أن تقودي سهيل إلى قصر الملك غالب كما تقتضي الخطة.. هل هذا مفهوم؟!».

أرادت أن ترفض.. أن تعترض.. أن تصرخ في وجهه وتلعنه.. لكنها وجدت لسانها يقول رغما عنها: «السمع والطاعة يا سيدي!».

* * *

كان سهيل يترنح وهو يغادر تلك الحانة الكبيرة في تدمر.. وجهه محمر من فرط الخمر التي عبَّها، وحرارة تنبعث من جسده لا تجعله يحس بلفحات البرد العاوية في طرقات المدينة الخالية من المارة وقد اقترب الفجر، واتشحت السماء بلون شاحب.

كان يسير بخطى مترنحة وهو يدندن بكلمات الأغنية الماجنة التي كانت ترددها تلك الراقصة اللعوب في الحانة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو يتذكر رقصتها الأخيرة.. جسدها اللين يتمايل في نعومة الأفاعي.. ابتسامتها اللعوب.. بريق عينيها المتأججتين بالرغبة المحرمة.. لن ينسى أبدا اقترابها منه وميلها عليه وقولها بصوت ساحر خلب لبه وأعماه:

«لم لا ترافقني إلى مخدعي الليلة أيها الفتى الوسيم؟!».

واتسعت ابتسامته وهو يتذكر تفاصيل اللقاء في مخدعها، فتنهد بحرارة وقال بصوت أثقلت الخمر نبراته:

«لقد كانت ليلة من ليالي العمر يا سهيل.. هاهاها».

كانت ضحكاته ترن في الطرقات، وراح يتمايل ويدور حول نفسه بحركات خرقاء في طريقه إلى الخان الذي تنزل فيه القافلة عندما ظهرت أمامه بغتة!!

تسمَّر في مكانه.. أحس ببرودة رهيبة تخترق جلده وتنفذ إلى عظامه فتبعث فيها آلاما رهيبة.. أحس بكل تأثير الخمر يتلاشى من رأسه وهو ينظر إلى كاهنة النار وقد أحاطت بها تلك النيران المتأججة، وحولها العقارب ذات الأذناب المشرعة كسيوف تستعد للطعن!!

«مـ... مـ... من أنت؟! وما... ماذا تريدين مني؟!».

انفرجت شفتاها لتقول بصوت رهيب كاد يجمد الدماء في عروقه:

«أنا كاهنة النار أيها الفاني.. وجئت أقودك إلى حيث قُدر لك أن تكون».

وجد نفسه يتراجع للوراء قليلا.. تردد للحظة قبل أن يستدير ويطلق ساقيه مبتعدا عنها..
أخذت نفسا عميقا، وتأججت النار من حولها أكثر وقالت بصوت خافت:
«الحقوا به.. لا بد أن يكون في قصر الملك غالب الليلة!».
أصدرت العقارب طنينا قبل أن تنطلق في صف واحد.. خلف شخص واحد.. سهيل!!
«لا مفر من القدر.. يطبق حلقاته حول أعناقنا بقبضة من حديد!!».
قالتها كاهنة النار وهي تسبل جفنيها.. وعلى الرغم من مشهد النار المخيفة من حولها..
انحدرت دمعة على وجنتها!!
ودون رغبة منها.. عادت ذكرياتها إلى ذلك اليوم الذي التقت فيه الساحر اليهودي حزقيل.. ويا له من يوم!!

* * *

ساعات من الألم الرهيب..
ساعات من العذاب الذي لا يدري كيف تحمله جسده الضعيف..
دماؤه سالت بغزارة.. جسده امتلأ بالحروق البشعة من رأسه وحتى أخمص قدميه!!
وأمامه وقف الملك غالب وصدره يعلو ويهبط في لهاث سريع، وفي يده استقر سيخ محمر.. قربه من عيني العراف العجوز المعلق أمامه كالذبيحة وقال بصوت هادر:
«عليك اللعنة أيها العراف القذر.. لماذا تأبى أن تخبرني بكل ما تعرفه؟ هه!».
انفرجت شفتا العراف العجوز وهو يقول:
«مولاي.. مولاي.. الرحمة يا مولاي.. الرحمة!».
قال غالب وهو يشد على السيخ بقوة:
«لن تنالها حتى تفضي بكل ما تعرفه.. وإلا سأعذبك حتى تتصفى روحك قطرة قطرة!».
قال العراف:
«بحق الآلهة يا مولاي.. لقد أخبرتك بكل ما أعرفه.. سردته مرارا وتكرارا، و...»..
قال غالب يقاطعه بغضب:
«كاذب وحقير!! أنت لم تخبرني بأمر اللعنة أبدا!!».
اتسعت عينا العراف.. وامتقع وجهه الشاحب أصلا وهو يقول ذاهلا:
«الـ... الـ... اللعنة؟!».
قال غالب وهو يدني السيخ من عين العراف:

«ها.. بدأت تتذكر إذًا أيها العجوز اللئيم! لقد أتى التعذيب بثمار طيبة.. هيا.. أفصح بما تكتمه في صدرك.. أفصح وإلا فقدت نور عينيك!».

وراح يدني السيخ أكثر وأكثر.. وجسد العراف ينتفض كالذبيحة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.. أحس بالحرارة الرهيبة تضرب عينيه.. الألم رهيب.. لا يطاق.. راح يصرخ.. ويصرخ.. الدماء تتفجر من عينيه حيث انغرس سيخ الملك غالب الذي اتسعت عيناه في شبق عجيب لرؤية الدماء تسيل من طرف السيخ.

«الرحمة يا مولاي.. سأخبرك بكل ما أعرفه!».

هتف بها العراف بصوت واهن.. فألقى الملك غالب السيخ أرضا ومد يده إلى أحد الحرس صارخا: «إليَّ بسيخ آخر».

ناوله الحارس سيخا محميا، أدناه الملك غالب من عين العراف الأخرى وهو يقول:

«والآن أيها العراف.. هات ما عندك.. ولكن حذارِ من الكذب على الملك غالب وإلا كانت عينك الأخرى هي الثمن!».

همَّ العراف بقول كل ما يعرفه عن تلك اللعنة القديمة.. لعنة الشفق الأسود.. عندما يغطي وجه السماء.. حين تأتي ساعة يواجه فيها البشر ذلك الشر الرهيب!!

وقبل أن يتفوه العراف المسكين بكلمة واحدة، دلف أحد الحرس وهمس بكلمات عاجلة في أذني قائد السجن الذي اتسعت عيناه وهو يقول:

«تبا!!».

التفت إليه غالب وقال بغضب:

«ماذا هناك أيها الحمقى؟!».

ابتلع قائد السجن ريقه بصعوبة قبل أن يقول:

«مولاي.. لقد ألقى الحرس في القصر القبض على شاب غريب رأوه يعدو كالمجنون بالقرب من الأسوار.. كان يصرخ ويقول: كاهنة النار.. والعقارب تطارده، و...»..

قال غالب يقاطعه كالعاصفة:

«ماذا؟!».

انتفض جسد قائد السجن وقال ملوحا بيديه أمام وجهه:

«مولاي.. لقد أمسكوا به...»..

أشار إليه الملك أن يصمت.. وراح يقلب الأمر في رأسه.. العراف قرر أن يعترف.. سيخبره بكل شيء عن تلك اللعنة.. ولكن ذلك الشاب أثار اهتمامه.. كاهنة النار؟! وعقارب؟! ذكريات الماضي

تعود حية أمام عينيه من جديد، فهل...؟!
«أنزلوه.. ضمدوا جراحه حتى أعود إليه».
قالها الملك غالب وهو يلقي السيخ من يده، وبخطى واسعة غادر المكان تاركا الصمت الرهيب يخيم على كل من فيه!!

* * *

تحركت الرمال من جديد، لكن حركتها هذه المرة كانت مختلفة.. لقد تباعدت ثم تناثرت في هدوء وبعدها بدأت تغوص في قلب الصحراء من جديد.. ومن بين الرمال ظهرت تلك الأيادي المعدنية وكأنها نبتت من العدم..
لحظات ثم حدث الضجيج وتناثرت الرمال في قوة، حتى إنها صنعت عاصفة رملية محدودة..
هدأت ليظهر اثنا عشر فارسا مدججا بالدروع والأسلحة..
اصطفوا ثم تحركوا في نظام وخفة وكأنهم يسبحون فوق الرمال..
حددوا مسارهم ثم انطلقوا في سرعة وبلا كلل يقطعون مئات الفراسخ في قلب الصحراء..
وعندما وصلوا إلى نقطة محددة اصطفوا في دائرة كاملة وتوسطهم قائدهم ثم رفعوا أيديهم نحو السماء..
وعادوا ليغوصوا في قلب الرمال من جديد..
ثارت الرمال للحظات..
ثم ساد الهدوء تلك البقعة النائية من الصحراء التي لم تطأها قدم بشري قط..

* * *

«ماذا بك الليلة يا جهير؟ لماذا تنظر للقمر وكأنك تنتظر منه شيئا ما و...؟»..
قالت زوجة جهير عبارتها ثم قطعتها وهي تتطلع إلى القمر الذي استحال بدرا لامعا في قلب السماء، ثم قالت بصوت مرتجف: ما الذي دهى القمر؟ ألم يكن محاقا منذ دقائق؟
نظر نحوها جهير وشفتاه تختلجان في خوف وأسى وقال بصوت مرتجف:
«إنها الإشارة يا زوجتي العزيزة.. الإشارة»..
نظرت له في عدم فهم وقالت متسائلة:
«أي إشارة يا زوجي العزيز؟ ما أراه أمامي هو سحر قوي.. سحر استطاع أن يسحر عيوننا أو يبدل شكل القمر.. وفي كلتا الحالتين فإن الأمر مخيف وخطير»..

نظر نحوها بإعجاب وحب.. فكم هو معجب بعقليتها وعلمها.. إنها المرأة الكاملة.. المرأة التي باع من أجلها روحه ووهبها للشيطان بعهد الدم..

رفع عينيه إلى عينيها السوداوين شديدتي الجمال ومسح وجهها بعينيه ليمتع عينيه بجمالها الاستثنائي ثم قال:

«لقد أُخبرت عن الأمر من قبل.. أخبرتك أنني أدين إلى الكاهنة العظمى بدين عظيم.. لأنها وهبتني ما يساوي حياتي.. وهذا الوعد واجب التنفيذ ولا يمكن التنصل منه لأي سبب كان.. وأخبرتك أن هناك إشارة ستأتي ويومها سأغادر إلى المجهول».

ثم أشار نحو القمر ورفع بصره إليه ثم أعاده إلى وجهها وقال:

«وها هي الإشارة قد ظهرت واختلف القمر واستحال بدرا»..

نظرت نحوه زوجته بقلق ثم قالت:

«في أي أمر زججت بنفسك يا أبا الصغار؟ إن ما أراه في عينيك يخبرني أن رحلتك بلا عودة.. فلا تذهب لو كان الخطر واحدا واجلس لنواجهه معا»..

نظر نحوها في حب ثم هز رأسه في مرارة وقال:

«يا ليت الأمر يتعلق بي وحدي.. لما كان شغل فكري ولا لحظة واحدة.. لكنه يتعلق بمن أحب.. لا يا زوجتي العزيزة، لن أستطيع أن أخلف وعدي أو أتنصل مما زججت بنفسي فيه»..

صمت وهو ينظر إلى وجهها الذي أغرقته الدموع وقال بصوت مرتجف لا يفوقه ارتجافا إلا جسده:

«ساعديني يا حبيبتي لأعد الراحلة.. لقد أتت الإشارة والتأخير لن يغير من شيء بل قد يجلب الويل علينا»..

نظرت له في استسلام وهي تدير الأمر في رأسها، وعندما شعرت بالعجز اندفعت نحوه واحتضنته في قوة وقالت بصوت مبحوح باكٍ:

«عُد لنا يا جهير.. عد لنا.. لن نستطيع نحن أو الأطفال الحياة من دونك».

ضمها في قوة ثم قال بصوت مختنق:

«الأمر بيد الآلهة وهي من اختارتني لهذه المهمة.. وربما كان فيها خير لنا»..

انتفض جسدها الرقيق فضمه أكثر في حنان.. وهو يحيطها بذراعيه..

فتحت عينيها بصعوبة ثم نظرت وهي بين ذراعيه نحو القمر الذي أصبح في نظرها هو رسول الموت الجديد وارتجفت من جديد وفي رأسها دار سؤال وحيد:

هل سيعود جهير يوما؟!

* * *

«يجب أن أقضي على هذه الساحرة».

قالها ظام، ذلك الجني الغاضب، وقد تألقت عيناه ببريق لامع وكاد يطق منهما الشرر وهو يشعر بعجز وشعور ظام الذي سُمي على اسمه، وهو أحد أعوان أحد ملوك الجن، الملك ميمون أبانوخ، وكان من المتمردين العصاة في عهد سليمان - عليه السلام - وقد سلسله سيدنا سليمان، ما جعل زوجته تنظر نحوه في قلق ثم تقول:

«رفقا بنفسك يا ظام.. ما هي إلا مهمة تقوم بها وينتهي الأمر».

نظر نحوها بغضب وقال بلغته الغريبة:

«يا عائنة، إن تلك اللعين لا تترفق في طلباتها.. وإذا حاولت نقاشها لا شيء لديها إلا التعذيب بالحديد والنار، كما أنها توعدتني بأن تصب الرصاص المصهور في حلقي لو فشلت».

صمت قليلا ثم استطرد: «لكن ليس هذا ما يؤلمني»..

نظرت نحوه زوجته بخلقتها البشعة وقالت له بصوت مشفق:

«إذًا ماذا يؤلمك يا زوجي الجسور؟».

نظر نحوها بمرارة وتصاعدت من جسده رائحة خانقة وقال بصوت منكسر:

«الشعور بالعجز يا عائنة.. الشعور بالعجز والذل..

كيف لبشرية مهما كانت قوتها أن تسلبني حريتي وحياتي؟ كيف يا عائنة؟».

نظرت نحوه زوجته ثم هزت رأسها في يأس وقالت:

«تلك اللعين لا قلب لها، لا شيء يهمها إلا القوة القديمة.. كم أتمنى لو ذهبت إليها وخنقتها ثم مزقتها والتهمت قلبها ذلك الصخرة الصلدة التي لا رحمة بداخلها»..

قال ظام بصوت مختنق:

«وهل تعتقدين أنني لم أفكر في الأمر؟ لقد فكرت وكدت أحاول، لكن تلك اللعين تحيط نفسها بقطيع من الذئاب.. وأنت تعرفين أن الذئاب ترانا.. بل ولها القدرة على اقتناصنا وافتراسنا.. لقد استعدت تلك الملعونة جيدا»..

نكست زوجته رأسها ثم عادت ترفعه ونظرت نحوه بفضول وقالت:

«هل عرفت ما هي المهمة التي كلفتك بها؟»..

هز رأسه بمعنى الإيجاب ثم نظر نحوها والحيرة تغمر وجهه وقال:

«إن هذا الأمر بالذات سيطير صوابي.. فالمهمة التي كُلفت بها يمكن أن يقوم بها أي بشري عادي.. لا حاجة بها إلى اللجوء إلينا»..

التمعت عين الزوجة بفضول أكثر وقالت متسائلة: «ما هذه المهمة؟».

أشاح بيده الشبيهة بقوائم الكلب لكنها أنحف وقال:
«تريدني اللعين أن أقتل رجلا.. مجرد رجل.. وأنثر دماءه في وادي الجن القديم»..
صمتت الزوجة لحظات ثم هزت رأسها وهي تمد يدها لعظمة قديمة تركها أحد الكلاب خلفه وقضمت منها قضمة وقالت وعدم الفهم يكتنفها:
«تقتل رجلا فقط! ما هدفها تلك اللعين؟ ولماذا وادي الجن القديم؟ لماذا؟!»..
هز رأسه في صمت دون أن يجيب، وبداخله تصاعدت موجات كراهية لا حدود لها وأمام عينيه تجسدت صورة سدوم الكريهة كقدر لا مفر منه..

* * *

(١٦)

«سيدي شعيب.. سيدي شعيب.. الغوث يا سيدي!».

هب شعيب واقفا، وتجهمت ملامحه وهو يرى زين الخادم يعدو نحوه، والذعر بادٍ على وجهه، وأحس شعيب بقلبه يهوي بين ساقيه عندما توقف الخادم أمامه، وقال بصوت متقطع:

«سيد.. ي.. سـ.. سهيـ.. سهيل!».

أمسك شعيب بتلابيبه وقال وهو يصيح في وجهه:

«سهيل؟! هل أصابه مكروه؟! تكلم أيها اللئيم! تكلم وإلا أطرت برأسك!».

قال زين والعرق يتصبب على وجهه غزيرا:

«سيد.. سيدي ششـ.. شعيب.. الرحمة!».

استل شعيب من حزامه خنجرا ووضع نصله على عنق زين وهو يقول:

«سحقا لك.. تكلم وإلا سالت دماؤك القذرة في الحال، و...».

قال أحد كبار تجار القافلة وهو يمد يده:

«كفى يا شعيب.. دع الخادم.. دعه ولا تفقد أعصابك على هذا النحو!».

قال شعيب وهو يضيق عينيه:

«ألا ترى ما يفعله بنا هذا الوغد؟! إنه يتلاعب بنا!».

قال زين وهو يتراجع للوراء قليلا بعد أن أفلته سيده:

«كلا يا سيدي.. أنا خادمكم المطيع».

قال الرجل الذي استوقف شعيب:

«أخبرنا إذًا ما أصاب سيدك سهيل».

ابتلع زين ريقه بصعوبة قبل أن يقول:

«لقد كنت معه في تلك الحانة.. أراقبه من بعيد كما أوصتني سيدتي هند قبل أن تغادر القافلة جرهم.. لقد شرب سيدي كثيرا.. قضى ليلة مع تلك الراقصة.. وبعدها خرج وهو يدندن، و..

و.. و...»..

بتر عبارته ووجهه يمتقع، وعيناه تتسعان، فقال شعيب وقلبه يدق بجنون:

«وماذا؟! تكلم عليك اللعنة!».

هز زين رأسه بقوة قبل أن يقول:

«لقد ظهرت تلك المرأة بغتة.. ظهرت وقد أحاطت بها النيران التي لم تؤثر فيها.. تبادلت مع سيدي سهيل حديثا لم أسمع فحواه لكوني كنت بعيدا عنهما.. رأيت سيدي يصاب بالذعر.. أخذ يركض بكل قوته.. وراح سرب من العقارب يطارده، و...».

قال شعيب وقد اتسعت عيناه عن آخرهما:

«امرأة أحاطت بها النار، وسرب من العقارب؟! ما الذي يحدث بحق الآلهة؟!».

قال الرجل الآخر مستنكرا:

«هل أسرفت في تناول الخمر أيها الأحمق؟! كيف تحيط النار بأي شخص دون أن تحرقه؟!».

قال زين وهو يحرك كفيه معا:

«وحق الآلهة لم أذق أي خمر يا سيدي.. وهذا هو ما حدث بالضبط!».

نظر الرجل إلى شعيب وقال يسأله:

«شعيب.. أتصدق هذيان الخدم؟!».

التقت عيناه عيني شعيب.. قرأ فيهما الحيرة.. الخوف.. والقلق.. بلا حدود.. أي حدود على الإطلاق.

«أعد عليَّ ما رأيته يا زين».

اتسعت عينا زين والرجل الآخر وهما يريان أمارات التفكير العميق وقد بدت على وجه شعيب وهو ينطق بالعبارة الأخيرة.

* * *

لقد نجا مؤقتا من غضبة ذلك الشيطان الرهيب غالب..

كان جسده يئن بألم رهيب.. ألم كاسح يجتاح كل ذرة في جسده.. يتسلل تحت الجلد.. ينفذ إلى العظام، يغمر روحه.. يحيطها بالسواد.

دماؤه كونت بركة صغيرة في المكان الذي ألقوه فيه.. الظلام يحيط به من كل جانب.. ألا يأتيه الموت فيخلصه من هذا العذاب؟!

«نواس.. أقسم على صيانة السر وعدم البوح به لأي مخلوق».

نظر إلى جده بعينين تلوح فيهما حيوية الشباب وعنفوانه وهو يقول:
«أقسم يا جدي».
انهمرت دموعه غزيرة عندما تذكر هذا القسم منذ أكثر من عشرين عاما.. كان حينها شابا في بدايات العقد الرابع من عمره.. شاب امتلأ حتى النخاع بحب الحياة وبريقها.. عندما أخبره جده بتلك اللعنة.. وباقتراب ظهور النذير.. واقتراب المعركة الأخيرة التي ستقع بين الخير والشر.
لقد أخبره جده أيضا بأن عهد الشفق الأسود قد بات يهدد بالسيطرة على كل شيء!!
لكن جده طلب منه أن يقسم ألا يبوح بالسر أبدا إلا عندما يظهر النذير.. إنه لا يظهر إلا لمن يحملون في أعماقهم رغبة حقيقية في مواجهة الشر وسحقه.. هذه مهمته.. أن يجمع جنود الخير.. ليقودهم في معركة حاسمة ضد جنود الموت!!
«آه.. أنا مضطر للحنث بقسمي يا جدي.. الألم رهيب.. العذاب لا يُحتمل.. جسدي ضعيف.. زوجتي وأبنائي يحتاجون إليَّ!».
مع آخر حرف نطق به.. خفق قلبه بقوة عندما أضاءت الزنزانة الضيقة بضوء أبيض شاحب.. اتسعت عيناه عن آخرهما.. أحس بفيض من القوة يغمره.. روحه تتحرر.. تنطلق من عقالها لتتحد بهذا الضوء العجيب!!
«نواس.. لقد اقتربت اللحظة المنتظرة.. النذير تحرر من محبسه.. المعركة تقترب.. أعد نفسك!».

* * *

كصقر يحلق فوق صيده ويستعد للانقضاض عليه..
كليث يحوم حول غزال ضعيف لا حول له ولا قوة..
كان غالب يدور حول سهيل المقيد أمامه في أغلال معدنية.. ومن عينيه أطلت نظرة ذعر بلا حدود.
ما يحدث الآن أشبه بكابوس رهيب.. مفزع!!
لقد كان خارجا من الحانة والخمر تعبث برأسه.. عندما رأى كاهنة النار تظهر أمامه بغتة.. طاردته العقارب بلا كلل حتى وجد نفسه قريبا من أسوار القصر العالية.. اختفت العقارب بغتة.. وجد ثلة من الحرس الأشداء يلقون القبض عليه.. وها هو الآن في حضرة الملك غالب.. ملك تدمر.. أقوى ملوك العرب قاطبة!
لماذا؟! لا يدري.
ما الذي سيفعله به؟! لا يملك أدنى فكرة.

هل سيطلق سراحه عندما يعلم أنه من قبيلة جرهم؟! لا يملك أن يستمسك بهذا الأمل الواهي!

«من أنت؟! وما الذي تفعله في تدمر؟!».

قالها الملك غالب بصوت جهوري، وعيناه تتألقان ببريق غاضب، فابتلع سهيل ريقه بصعوبة بالغة قبل أن يقول مجيبا:

«أنا سهيل بني جرهم.. من قبيلة جرهم يا مولاي.. لقد أتيت مع عمي في قافلة في طريقها إلى مصر، و...».

قال الملك يقاطعه:

«ولماذا جئت إلى قصري يا فتى؟! كيف جرؤت على الاقتراب من الأسوار؟! ألا تعلم أنه لا أحد من العامة له الحق في الاقتراب من قصر الملك غالب؟!».

قال سهيل وجسده يرتجف من رأسه وحتى أخمص قدميه:

«مولاي.. أنا لم أقصد سوءا.. أقسم لك.. لكن تلك المرأة ظهرت لي.. و.. و...»..

قال الملك غالب يقاطعه بصوت هادر أثار الخوف في نفس قائد الحرس:

«ما الذي تعرفه عن كاهنة النار يا فتى؟! تكلم!».

اتسعت عينا سهيل عن آخرهما وهو يقول:

«كاهنة النار؟! أهذه صفتها؟!».

لطمه قائد الحرس بقوة وهو يقول:

«لا توجه الأسئلة للملك أيها التعس!».

التفت إليه الملك غالب وقال وهو يرميه بنظرة مشتعلة:

«لو مددت إليه إصبعا دون إذن مني سأمزقك إربا.. هل تفهم؟!».

بُهت قائد الحرس، ورفع يديه يحمي وجهه وهو يقول بخنوع:

«أمر مولاي.. أمر مولاي».

عاد الملك غالب يلتفت إلى سهيل وقال وهو يقترب منه كثيرا لتضرب أنفاسه الحارة وجه هذا الأخير:

«هيا يا فتى.. تكلم ولا تخشَ شيئا.. ما الذي تعرفه عن كاهنة النار؟».

ابتلع سهيل ريقه بصعوبة بالغة قبل أن يقول:

«مولاي.. أنا لا أعرف هذه المرأة البتة.. صحيح أنني رأيتها من قبلُ في طريقنا إلى تدمر، لكني لا أعرف من تكون، وما الذي تريده مني!».

انقض عليه الملك وقال وهو يمسك بعنقه:

«هراء!! كاهنة النار لا تظهر إلا نادرا أيها الكاذب.. وما دمت قد رأيتها فهناك شيء ما يربطك بها!!».

قال سهيل وعيناه تغرقان في الدموع:

«أقسم لك إنني لا أعرفها يا مولاي.. لا أعرفها».
تطلع إليه الملك غالب قليلا قبل أن يدفعه بقوة ليسقطه أرضا فترتطم قيوده بالأرض مصدرة دويا، وراح صدره يعلو ويهبط في لهاث عنيف وهو يقلب الأمر في ذهنه.
سنوات طويلة مذ رأى كاهنة النار..
منعته من قتل ابنته..
ابنته التي أخبره حزقيل أنها قاتلته إن بقيت في تدمر..
ابنته التي لا بد أن ترحل بعيدا..
هذا الفتى الجرهمي الراحل مع قافلة إلى مصر..
لماذا ظهرت له كاهنة النار أكثر من مرة؟!
ولماذا طاردته عقاربها حتى أسوار القصر؟!
كل الأمور تشابكت على نحو عجيب..
كل شيء بات أشبه بالعبث غير المفهوم على الإطلاق!!
فكر يا غالب.. ها هي الفرصة قد أتتك.. لتنفذ ما خبرك به حزقيل!!
«أجل يا مولاي.. إنها فرصتك الأخيرة.. والوحيدة!».
استدار بكل كيانه ليرى حزقيل واقفا أمامه.. ابتسامته واسعة.. عيناه متألقتان ببريق ظافر.. كفاه مضمومتان معا!!
أما سهيل فقد انهار تماما عندما رأى الساحر اليهودي يظهر بغتة من العدم!!
وشحب وجه قائد الحرس، وامتدت يده لا إراديا إلى مقبض سيفه!!
«حزقيل.. هل أنت واثق؟!».
قالها الملك غالب وهو يشير بسبابته إلى سهيل الملقى أرضا، فهز حزقيل رأسه إيجابا:
«إنها الوسيلة الوحيدة لتأمن على حياتك يا مولاي.. الفرصة التي لن تتكرر إن أضعتها».
قال الملك غالب وجسده يرتجف على نحو عجيب:
«لكن كيف أضمن ألا يصيبها أي سوء يا حزقيل؟!».
تألقت عينا حزقيل أكثر وهو يقول:
«مولاي.. أنا أضمن لك سلامة الأميرة عالية.. ولن يصيبها مكروه أبدا».
ابتلع غالب ريقه قبل أن يقول:
«ولكن...»..
بتر عبارته.. اقترب منه حزقيل.. نظر في عينيه مباشرة.. شعر غالب وكأنه يغوص فيهما..

«إنها الفرصة الوحيدة.. أنت لا تملك أن تقاوم الإغراء.. افعلها.. لقد أتى إليك الجرهمي بنفسه.. أرسلها مع القافلة إلى مصر.. أرِح نفسك وعش هانئا».

واتخذ الملك غالب قراره الحاسم..

دون أن يدرك ولو للحظة أنه يقود ابنته الوحيدة إلى حتفها!!

* * *

(١٧)

لا تزال الزنزانة مظلمة..

ولا تزال جدرانها الكئيبة تضغط على روحه فتكاد تزهقها بلا رحمة..

وما زال جسده يئن من فرط الألم بعد كل التعذيب الذي لاقاه على يد الملك غالب.. وفقد عينه كذلك..

لكن قلبه ما زال يخفق بذلك الأمل الذي تراءى له في هذا الظلام الخانق..

لقد تحرر النذير من محبسه أخيرا.. تماما كما أخبره جده منذ عشرين عاما..

إنه الذي سيبحث عن جنود الخير في كل مكان يمر به.. سيدور الأرض شرقا وغربا.. جنوبا وشمالا.. قبل أن يقودهم إلى صحراء مصر حيث القبر الملعون.. إلى حيث سينهض الشر الكامن من جديد ويبدأ عهد الشفق الأسود..

حينذاك ستكون معركة رهيبة.. يشيب لهولها الوليد في بطن أمه!!

معركة قد يتوقف مصير البشرية بأسرها على نتيجتها..

فلو انتصر الشر وساد الشفق الأسود، لكانت نهاية البشر..

نهاية حريتهم، أحلامهم، وطموحاتهم..

وبداية عهد من العبودية والذل والاستبداد!!

ذلك الملك الأحمق لا يدري شيئا..

والساحر اليهودي المغرور حزقيل يقوده ببطء نحو حتفه وحتف ابنته دون أن يدرك أنه يعبث مع قوة تفوق قدراته بآلاف المرات!! ويل للبشر.. ويل لهم من هول يسعى نحوهم حثيثا!!

من عينه السليمة انهمرت دموعه غزيرة.. حارة..

شعر بها تزيد من آلامه.. وتؤجج نار وحدته.. وتزيد من إطباق الظلمة على روحه..

وعلى الرغم من هذا ظل قلبه صامدا يقاوم.. يحاول ألا ينهار.. وألا يضعف..

ولكن متى يأتي النذير إليه؟ متى يضمه تحت جناحه ويعلنه واحدا من جنود الخير الذين

سيخوضون المعركة الأخيرة في مصر؟
فجأة أضاءت الزنزانة دفقة من ضوء فضي باهت على أطرافه تألقت شرارات ذهبية..
اتسعت عينه السليمة عن آخرها.. وراح قلبه يدق بجنون وهو ينظر إلى ذلك الرجل القادم نحوه وقد اكتسى جسده بما يشبه مسوح الرهبان.. وفي يده استقر منجل له ذراع طويلة ونصل تألق تحت تأثير ذلك الضوء الأزرق المحيط بالرجل!!
«نواس.. لقد تألمت كثيرا من أجل هذه اللحظة.. أنت الآن واحد من جنود الخير.. فهل قلبك مستعد للمعركة الكبرى التي باتت قريبة للغاية؟».
ترددت العبارة بصوت قوي.. عميق.. بدا لنواس وكأنه آتٍ من أغوار بئر سحيقة.. والرجل يقترب منه وكأنه يسري فوق الأرض ولا يمشي كالبشر.
«لكني الآن رجل أعور عجوز، فكيف أستطيع أن أحارب معك؟!».
قالها نواس وقد نسي ألمه ويأسه في هذه اللحظة.
اقترب منه النذير.. خلع مسوحه ليبدو من تحتها جسد ممشوق أُحكمت حوله درع براقة ذات نقش عجيب في منتصفها وكتابات بلغة غريبة يراها نواس لأول مرة في حياته!
كانت ملامحه تختفي خلف قناع أسود ولا تبدو منه إلا عينان متألقتان بشدة.
مد يده يمسح بها على جراح نواس الكثيرة.. وأحاطت بهذا الأخير هالة من الضوء الأزرق الباهت.. وشعر بالقوة تسري في عروقه مسرى الدم..
أحس بضعفه يتلاشى.. بعجزه يتراجع.. وكان شبابه يعود إليه من جديد!!
«أنت الآن جاهز للمعركة يا نواس.. اتبعني!».
قالها النذير وهو يناوله المسوح.. وضعها نواس فوق جسده العاري.. مد يده يتحسس عينه العوراء فوجد فوقها عصابة جلدية.. انفرجت شفتاه ليقول:
«لكن.. كيف سنغادر سجن القلعة؟! هذا مستحيل!».
وكم أدرك أن عبارته حمقاء وهو في حضرة هذا الرجل.. أو هذا الشيء إن شئنا الدقة؛ فالنذير لم ولن يكون بشريا على الإطلاق!!
«ألا تثق في النذير يا نواس؟!».
ابتلع نواس ريقه بصعوبة قبل أن يقول:
«كلا.. أثق بك.. وسأتبعك ولو إلى الجحيم!».
التفت إليه النذير وقال بصوته العميق:
«قد يكون الجحيم أكثر رحمة مما نحن مقبلون عليه في الأيام التالية يا نواس!!».

* * *

«أيها السيد العجوز.. لقد وصلنا».

فتح بنامون عينيه ببطء.. ورفعهما إلى السماء التي تلونت بأضواء الشروق الأولى، وبدت فيها غيوم داكنة على نحو عجيب وغير مألوف في هذه البقعة من الأرض.

امتدت يده بحرص إلى تلك اللفافة الصغيرة التي يحملها في حجره.. فضها ببطء وألقى نظرة على الصندوق الصغير ذي الحواف المعدنية المنقوشة بحروف وطلاسم كهنة آمون، قبل أن تسري في جسده رجفة عندما أتاه صوت يقول:

«صندوق رائع.. محكم الصنع.. من أين لك به يا هذا؟».

غطى بنامون الصندوق على عجل قبل أن يلتفت إلى الحوذي الشاب وقال وهو يقفز من على العربة الخشبية الصغيرة التي حملته إلى هذه البقعة بعيدا عن واحة نبتا إلى هذا المكان القريب من الجبل الكبير:

«لا تدس أنفك في أمور لا تعنيك يا فتى.. هاك أجرك، وارحل من هنا سريعا».

تناول الحوذي القطع الذهبية التي منحها إياه بنامون وقال وهو يتأملها بشبق عجيب:

«وحق الآلهة!! إنه ذهب حقيقي.. أليس كذلك أيها السيد؟!».

ولما لم يحر جوابا رفع رأسه ليرى بنامون قد تركه وسار مستندا إلى عصاه الخشبية باتجاه الجبل، فدس القطع الذهبية في ثيابه وهو يهتف:

«هيه.. انتظر.. الجبل مكان غير آمن على الطلاق.. انتظر أيها المجنون!».

توقف بنامون عن المسير.. استدار إلى الحوذي ورماه بنظرة غاضبة:

«قلت لك ارحل أيها الأحمق.. ألم تأخذ أجرك ذهبا؟! هيا ارحل!».

قال الشاب وهو يحك رأسه الأصلع:

«لكن.. ألا تعلم الحكايات المروية عن الجبل الكبير؟! الموت يترصد كل من يفكر عبوره أو الاقتراب منه حتى!».

مط بنامون شفته السفلى، وفي نفسه قال: حمقى! كلكم حمقى! وهز رأسه قبل أن يقول موليا الشاب ظهره:

«قلت لك ارحل قبل أن يفوت الأوان.. عد إلى أبويك.. أو إلى زوجتك إن كانت لك واحدة».

تطلَّع إليه الشاب قليلا قبل أن يهز رأسه وقال وهو يعود أدراجه إلى عربته الخشبية:

«يا له من عجوز غريب الأطوار!».

قالها وقفز على العربة، ولكز الجواد الهزيل بساقه ليصهل بقوة قبل أن يضرب الأرض بحوافره مبتعدا في الاتجاه المعاكس!

وفي السماء راحت أشعة الشمس تتسلل ببطء من بين الغمام الداكن لتكشف أمام عيني بنامون عن قمة الجبل الكبير التي بدت وكأنها وحش رابض يستعد للانقضاض والتمزيق بلا رحمة!!

«بنامون.. لقد وعدك الكاهن الأكبر أنها الوحيدة القادرة على مساعدتك لحمل هذه المسئولية الثقيلة.. هي وحدها يا بنامون!!».

أخذ بنامون نفسا عميقا قبل أن يغرس عصاه في الرمال والحجارة..

«يا سيدة الجبل.. يا سيدة الجبل.. يا سيدة الجبل.. ثلاث مرات ندائي.. ثلاث مرات أطلبك لتظهري.. وثلاث مرات أعلم أنك موجودة وتنتظرين مقدمي!!».

* * *

عسير واقف وسيفه مشهر في يده..

وعمير أمامه وقد اختفى جسده تقريبا تحت الرمال وتلاشت صرخاته أو كادت..

وتلك الأشباح السوداء تقترب ببطء من مخيم القافلة الملعونة المتجهة إلى مصر.. ولا أحد يدري إن كانت ستبلغ وجهتها أم تتحول هذه البقعة من الصحراء إلى مقبرة جماعية!!

«سحقا.. ما هذه الأشياء؟! ما هذه الأشياء؟!».

قالها عسير وهو يمسك سيفه بكلتا يديه ويبتلع ريقه بصعوبة بالغة وهو يشعر به أكثر جفافا من صحراء لم تعرف المطر سنوات طويلة!

وفجأة انقض عليه أحد تلك الأشباح وعواء رهيب ينطلق منه، فقفز عسير جانبا وتدحرج جسده على الرمال الباردة قبل أن يعتدل من جديد وصدره يعلو ويهبط، وقلبه يدق بجنون بين ضلوعه، ورأى ذلك الشبح يلتفت إليه بسرعة رهيبة.. يطلق عواءه قبل أن يتلاشى.. يذوب ويمتزج بالرمال فجأة.. واتسعت عينا عسير، وأفلتت منه شهقة عندما عاد الشبح يظهر أمامه وينقض عليه وأنيابه تلمع في ضوء القمر، وحاول عسير أن يتراجع وهو يضرب بسيفه جسد الشبح.. سمع عواء متألما قبل أن يشعر بألم رهيب يتفجر في ذراعه اليسرى ودمائه الحارة تسيل عليها!

بكل قوته.. وبكل غريزة الحياة في أعماقه دفع قدمه في بطن ذلك الشبح الأسود وألقاه بعيدا على الرمال.. ونظر إلى ذراعه المصابة ورأى دماءه تصنع بركة صغيرة على الرمال بين ساقيه!!

«آآآآه.. تبا لك.. من أنت؟ آآآآه».

انطلقت صرخة بدر تتردد بين الخيام.. عندما انقض عليه واحد من هذه الأشباح وغرس أنيابه

في عنقه ودماؤه الحارة تسيل بغزارة فتؤجج وحشية هذا الشبح ليغرس أنيابه أكثر وأكثر!!
استل سهم سيفه وغادر خيمته عندما صكت الصرخة مسامعه، وما إن أصبح خارج الخيمة حتى اتسعت عيناه وهو يرى الهول المتجسد أمام عينيه!!
رجال القافلة يعدون يمينا ويسارا محاولين الفرار من تلك الأشباح السوداء التي تحيط بمخيمهم إحاطة السوار بالمعصم.. رآهم يحاولون المقاومة.. يُسقطون واحدا أو اثنين.. ولكن لا فائدة.. كلما سقط واحد ذاب جسده وامتزج برمال الصحراء قبل أن ينهض مكانه اثنان آخران يهاجمان بكل وحشية وشراسة!!
«سيدي سهم.. وراءك!».
استدار سهم وهو يطوح بسيفه في صدر أحد الأشباح المنقضة عليه.. وانطلق عواؤه يكاد يصيبه بالصمم قبل أن يسقط أرضا ويذوب جسده في الرمال لينهض مكانه اثنان من الأشباح تألقت أنيابهما قبل أن ينقضا سويا على سهم الذي أحس بضربة قوية في بطنه.. وطار جسده في الهواء قبل أن يسقط وكل ذرة من جسده تصرخ في ألم!!
وتفجرت الدماء من كتفه عندما غرس أحد الشبحين أنيابه فيه، وشعر بدمائه الحارة تسيل بغزارة!!
وأدرك سهم والشبح الثاني يميل عليه ليغرس أنيابه في عنقه أنها نهايته دون شك!!

* * *

اشتعلت عينا سدوم بنار الغضب وهي تحدق في النار المتأججة أمامها في ذلك الوعاء النحاسي، وتحركت شفتاها بكلمات.. بتمائم وعزائم بلغة مجهولة.. وأخيرا زفرت قبل أن تقول:
«يا لك من لئيم يا حزقيل.. الخطافون.. ولكن هل ستصمد ألاعيبك في وجه طيور سدوم؟!».
قالتها وسكبت محتويات لفافة صغيرة بيدها في الوعاء ليزداد تأجج النار وتنطلق في المكان صرخة أشبه بصراخ آلاف الطيور الغاضبة وهي تطير في أسراب لا حصر لها!!
وفي السماء خارج الخيمة تشكلت سحابة سوداء بدت وكأنها قطعة انفصلت من عباءة السماء المظلمة.. وراحت تتحرك على نحو عشوائي للحظات قبل أن تختفي بغتة.. وعادت تتجسد من جديد في تلك البقعة من الصحراء التي تتعرض فيها القافلة لهجوم الخطافين!

* * *

بدا المشهد وكأن الجميع تحولوا إلى تماثيل من الحجر..
الملك غالب وعيناه معلقتان بوجه حزقيل الذي تألقت عيناه بقوة وهو يضم كفيه معا..
سهيل الراسف في قيوده الحديدية وهو لا يفهم أي شيء مما يحدث حوله على الإطلاق!!
«حزقيل.. هل أنت واثق؟!».
قالها الملك غالب بصوت خافت وهو ينقل بصره بين سهيل والساحر اليهودي الذي قال وهو يقترب منه:
«ألا تريد الاطمئنان على حياتك يا مولاي بعد ذلك الكابوس الذي هاجمك في منامك؟!».
قال الملك غالب وهو يعقد حاجبيه:
«بلى.. لكن.. ما الذي يضمن لي ألا يمس عالية أي سوء في هذه الرحلة؟!».
قال حزقيل وهو يميل عليه قليلا:
«أنا أضمن لك هذا يا مولاي.. صدقني».
قال الملك غالب وهو يتراجع برأسه للوراء:
«هل تقسم على هذا يا حزقيل؟! هل تقسم على بقاء الأميرة عالية حية لا يمسها السوء أبدا؟!».
قال حزقيل وابتسامة صفراء ترتسم على شفتيه:
«أقسم لك يا مولاي.. لن يمس الأميرة عالية أي سوء حتى تبلغ وجهتها بعيدا عند تدمر».
وفي نفسه قال مكملا عبارته:
«الوجهة التي سيحددها حزقيل أيها الملك الأحمق».
وبداخله جلجلت ضحكة حملت كل نشوته وظفره وقد بات قريبا جدا من أولى خطوات الاستيلاء على القوة التامة.. والمطلقة!!

* * *

نظر حزقيل إليها، ومط شفته السفلى عندما رآها ترتجف كريشة في مهب الريح، فقال بصوت مخيف:
«كفى يا امرأة.. لِمَ الخوف الآن وقد بلغنا هذه المرحلة المهمة من الخطة؟!».
قالت الجارية اليهودية السمراء آطام وهي ترفع إليه وجها شاحبا ممتقعا:
«كلما فكرت في المصير الذي ينتظر الأميرة عالية أكاد أُجن يا معلم حزقيل، و...»..
انقض عليها حزقيل وغرس أظافره في ذراعها وقال بصوت كالفحيح وهو يميل عليها قليلا:
«لكنكِ كنت تعلمين هذا المصير الذي ينتظرها منذ توليت تربيتها يا آطام.. أليس كذلك؟!».
هزت آطام رأسها بقوة قبل أن تقول:

«بلى يا معلم.. ولكن.. ولكن...».

بترت عبارتها فقال حزقيل يستحثها:

«ولكنكِ أحببتها؟ بدأتِ تشعرين بأنها ابنتك بعد كل هذه السنوات التي قضيتها معها في هذا المكان، أليس هذا صحيحا يا آطام؟!».

اتسعت عينا آطام في ذعر.. وهزت رأسها ببطء، وأطلقت صرخة عندما دفعها حزقيل بقوة لا تتناسب مع سنه أو مظهره البالي، وأنَّت كل ذرة في جسدها ألما، وارتجفت بقوة عندما قال حزقيل وهي تراه يندفع نحوها وكأنه لا يمشي على الأرض:

«إياك أن تنسي دورك الحقيقي يا آطام.. لقد أتيت بك إلى تدمر خصيصا لمهمة واحدة.. ألا وهي رعاية الذبيحة البشرية حتى تأتي اللحظة المناسبة لتقديمها على المذبح المقدس.. وها هي اللحظة قد حانت.. وعليك أن تؤدي واجبك تجاه ما نسعى إليه.. وإلا قتلتك بأبشع طريقة لا يمكن أن يتخيلها عقلك التافه.. هل تفهمين هذا؟!».

حاولت آطام أن تعتدل.. وهزت رأسها وهي تقول ودموعها تغادر مقلتيها:

«بالتأكيد يا معلم.. بالتأكيد».

حدجها حزقيل بنظرة نارية قبل أن يقول:

«اذهبي واستعدي للرحيل مع الأميرة.. هيا عليك اللعنة!».

نهضت آطام وأسرعت تغادر المكان وهي تعدو كالمجنونة نحو جناح الأميرة الغافلة عن ذلك المصير الرهيب الذي ينتظرها في ذلك الدير السري الذي أقامه الأجداد في بقعة سرية من الصحراء.

كانت ممرات القصر ساكنة.. مظلمة.. ومن النوافذ المفتوحة لتستقبل نسمات الليل العليلة تسلل ضوء القمر البارد ليضيء وجه آطام الشاحب.. عينيها المتسعتين.. ودموعها التي أغرقت وجهها.

على أطراف أصابعها تسللت آطام إلى مخدع الأميرة عالية.. أزاحت أستار المخدع الحريرية بحرص.. ألقت نظرة متألمة على وجه الأميرة الغارقة في النوم.. جلست على طرف الفراش، وامتدت أناملها تتحسس خصلات من شعر الأميرة الأسود انتثرت على الوسادة، وتشوشت الرؤية أمامها عندما ازداد انهمار دموعها، وخرج صوتها خافتا وهي تقول مشيحة بوجهها:

«سامحيني يا عالية.. سامحيني يا صغيرتي!!».

* * *

«أخبريني يا سيدتي.. هل الطريق صحيح؟».
قالها جهير بصوت منهك والإرهاق الشديد يظهر جليا على وجهه كشمس الصباح.. فنظرت نحوه العجوز التي لم يرتَح لمنظرها منذ وقعت عيناه عليها.. بنظرة كريهة.. بعينها السليمة غير المطفأة.. ما جعله يرتجف دون سبب واضح..
عجوز تتجاوز المائة من العمر تسكن في وادٍ قاحل.. لا أثر لبئر قريبة أو زرع أو حيوان.. وحيدة هي كوحدة خيمتها المهترئة.. تجلس بداخلها وكأنها غراب أسود يرتدي الأسمال البالية..
لم تعِبه العجوز على الفور.. وظلت تتطلع نحوه لثوانٍ معدودة.. حتى إنه فكر كثيرا في الانصراف.. لكنه قبل أن يشرع في التحرك أتى صوتها المقبض ليخبره بكلمات مقتضبة:
«وادي الجن القديم على مسيرة نصف يوم من هنا.. تخطَّ الجبل واسلك الشعاب الشرقية»..
نظر نحوها بإشفاق، فعلى الرغم من سحنتها الكئيبة ووجودها المريب في هذا المكان.. فإنها على الرغم من كل شيء امرأة عجوز وربما كانت في حاجة إلى المساعدة..
نظر نحوها وعينه ترفض تجاهل العين المطفأة التي كساها البياض وقال:
«أترغبين في أي شيء يا سيدتي قبل أن أنصرف؟».
أتى صوتها هذه المرة سريعا، لكنه هادئ ومقبض:
«رحلتك قصيرة يا عابر السبيل.. رحلة مشئومة.. عد.. وحياتك وحياة صغارك أهون الأشياء أمام الهول القادم».
ارتجف جهير في خوف وسرت في جسده رعدة ملحوظة وهو يقول للعجوز:
«لكني لا أستطيع العودة.. حياتي دون من أحب».
«عد يا عابر السبيل.. فموتك سيفتح بوابات الجحيم.. ووقتها لن ينجو منها أحد».
«عد فالموت يترصدك.. وموعدك اقترب.. عد.. عد.. عد..».
انتفض جهير في غضب وقال بصوت ثائر:
«أي شيطان أنت أيتها العجوز؟ تتوعدينني بالموت أنا وصغاري ثم تطلبين مني العودة.. فإن كان الموت في كلتا الحالتين قدري فسأنهي رحلتي وأموت.. فربما يكون هناك أمل لزوجتي وصغاري».
«لا أمل يا عابر السبيل.. إن دماءك المقدسة هي بداية اللعنة.. لو كان بي قدرة لمنعتك.. لكني لا أستطيع أن أقف أمام الأقدار.. عد يا عابر السبيل.. عد».
غادرها جهير غاضبا وهو يلعن غباءه الذي جعله يلجأ إلى هذه العجوز الخرفة..
امتطي راحلته واتخذ الطريق الذي وصفته له العجوز..

الشمس لم تكن عونا أبدا للتائهين بقلب الصحراء.. فهي تصب حرارتها بكرم لا مثيل له فوق كل شيء..

كان يرغب في الراحة.. لكنه قرر أن يكمل رحلته نصف يوم آخر..

تناول قربة الماء وجرع منها حتى ارتوى وقاس ما تبقى.. وهز رأسه وقال محدثا نفسه:

«لن يكون العطش هو سبب موتك اليوم».

اخترق الصحراء وفي رأسه بدأت تدوي كلمات العجوز من جديد:

«إن دماءك المقدسة هي بداية اللعنة».

«بالتأكيد هي عجوز مجنون.. فأنا مجرد عبد استطاع بشجاعته أن ينال حريته.. وينمي تجارته.. فأي قداسة في دمي؟!».

هز رأسه من جديد واستمر في طريقه والشمس من فوقه ترسل أشعتها الحارقة دون رحمة..

* * *

(١٨)

«تقدم يا رسول الكاهن الأعظم.. تقدم فأنا أنتظرك منذ زمن طويل.. تقدم ولك الأمان».

تسارعت أنفاس بنامون.. وتعالت ضربات قلبه وهو يستمع لصوت سيدة الجبل العذب.. لذلك الصوت الساحر الذي لا مثيل له بين النساء..

الصوت الذي امتلك عليه حواسه وجعله ينسى كل شيء حتى مهمته وهو يتقدم في بطء تسبقه عصاه.. ثم توقف ونظر حوله في حيرة وقال بصوت جهوري:

«إلى أين أتقدم يا سيدة الجبل؟ الطريق مغلق».

تردد صوتها العذب من جديد، حتى إن قلبه العجوز خفق بنبض شاب.. وتمنى أن يراها للحظة واحدة.. تمنى أن يضمها.. أن يظل عمره بالكامل يعمل على خدمتها.. لكن صوتها الملائكي عاد من جديد ليخرجه من أفكاره متدفقا كنهر من الفتنة والجمال:

«لا تجعل الظواهر تخدعك.. تقدم إلى الأمام ولن تعترضك صخور الجبل».

خفق قلبه من جديد وقال:

«لو كان الوصول لكِ يحتاج لنقل الجبل لنقلته صخرة صخرة».

عاد صوتها ضاحكا منعشا رقراقا وهي تقول:

«لن تحتاج لنقل الجبل.. كل ما تحتاجه ثلاث خطوات وتكون أمامي.. فقط ثلاث خطوات».

قطع بنامون الخطوات الثلاث في لمح البصر فاخترق الجبل وكأنه لم يوجد قط.. لتصطدم عينه بوجه سيدة الجبل.. ويتعثر ويسقط فوق الأرض الصخرية متأوها..

فإن كان الصوت عذبا ساحرا.. فالشكل كان مخيفا منفرا.. وكأنك تنظر إلى شيطان في هيئته الحقيقية.. امرأة..

بالتأكيد هي امرأة.. الجسد القوي المشدود.. مع الصدر الناهد.. والشعر الناعم المسترسل.. وكانت كل المشكلة في الشعر..

فلو أنه يغطي الرأس فقط لكان تاجا لا مثيل له.. لكنه في كل مكان.. في وجهها.. وذراعيها.. وقدميها..

كاد يفرغ معدته، لكنه تماسك وهو يتذكر كلمات الكاهن الأعظم..

«لا تثير غضب سيدة الجبل يا بنامون.. فغضبتها لا تبقي ولا تذر».

تطلع بنامون برهبة إلى المسخ الجالس فوق عرش صخري.. وبعد أن اعتادت عينه الإضاءة الخافتة.. بدأ يتفقد المكان بنظرات سريعة..

قصر كامل محفور بداخل الجبل.. قصر من صخر.. كل ما فيه صخري.. لا أثاث.. لا فرش.. لا خدم أو عبيد أو أنيس..

«هل أعجبك قصري؟».

جفل بنامون، لكنه رفع رأسه واغتصب ابتسامته اغتصابا ونظر نحوها وهو يغالب حلاوة صوتها وعذوبته اللتين عكرتهما صورتها الوحشية وقال:

«إنه قصر نادر لسيدة أكثر ندرة».

دوت ضحكتها العذبة وقالت بصوتها الرخيم:

«مجامل أنت أيها المبعوث.. مجامل ككاهنك الأعظم».

ضربت الفوضى أطنابها بداخل كيان بنامون.. فهو ممزق بين كراهيتها والهروب من خلقتها البشعة وبين صوتها العذب الفاتن.. حاول أن يتماسك، لكنه عجز فنظر بعينيه صوب الأرض وقال:

«لقد قادتني تعليمات الكاهن الأكبر إليك.. لكنها لم تدلني على الخطوة المقبلة.. والخطر المقبل لا يحتمل إضاعة الوقت.. أو الجهل به.. فدلِّني على الطريق».

دوى الصوت العذب كقيثارة وإن خالطه شيء من الجدية:

«وهل أنت مستعد لتحمل هذه المسئولية؟ هل قلبك مؤهل للخطوة المقبلة؟».

دغدغ الصوت الرائع أحاسيسه فجعله يجيب بلا تفكير:

«أنا مستعد.. المهم أن تنجو البشرية».

عاد الصوت ليصدح كالموسيقى واحتوى بداخله كل كيان بنامون الذي أخذ يستمع وهو مفتون لحقيقة اللعنة..

* * *

لم تدر الأميرة عالية ماذا تقول أو ماذا تفعل وهي واقفة أمام والدها الملك غالب تسمع ما قاله للتو! كانت تشعر بكل شيء يدور من حولها على نحو عجيب.. لقد أذهلها والدها بهذا الأمر العجيب..

«لكن.. لكن.. لماذا تريدني أن أرحل مع هذه القافلة يا أبي؟!».

أخيرا وجدت الأميرة عالية صوتها لتلقي السؤال عليه، وراح قلبها يضطرب بقوة بين ضلوعها

وهي تنتظر إجابة تشفي حيرتها وألمها اللذين يعصفان بها في هذه اللحظة.
أخذ الملك غالب نفسا عميقا ملأ به صدره العريض، وأخرجه في زفرة قوية قبل أن يعقد ذراعيه وراء ظهره وقال وهو ينظر إليها بعينين صارمتين:
«هل تخالفين أوامر والدك يا عالية؟! لقد أخبرتك أن رحيلك من تدمر فيه مصلحة لك.. أنا أحافظ على حياتك إن كنت لا تلاحظين هذا يا فتاة!».
اتسعت عيناها وهي تتراجع للوراء قليلا.. ولم تدر لماذا تذكرت كلمات حزقيل لها بأن الرحيل هو مصيرها.. وها هو والدها يأمرها بالرحيل لأنه يريد الحفاظ على حياتها.. إنها لا تفهم أي شيء على الإطلاق.. كل شيء مختلط.. كل شيء يحدث لها على نحو عبثي رهيب!!
«ما الذي يهدد حياتي هنا في تدمر؟! وكيف يحميني الرحيل يا أبتاه؟!».
قالتها الأميرة عالية والدموع تتجمع في مقلتيها، فزفر الملك غالب بقوة قبل أن يقول مشيحا بوجهه:
«ليس من حقك أن تسألي هذا السؤال يا عالية.. سترحلين عن تدمر مع القافلة الراحلة.. وستكون آطام معك لرعايتك، ولكن لن يعرف أحد في القافلة أنك الأميرة عالية سوى شخص واحد فقط.. سيكون مسئولا عن حمايتك طوال الطريق».
ابتلعت الأميرة ريقها بصعوبة.. وجاهدت ألا تفلت منها دموعها وهي تقول بصوت مختنق:
«ومن يكون هذا الشخص يا أبتاه؟».
تردد الملك غالب قليلا قبل أن يقول مجيبا:
«اسمه سهيل.. واحد من سادات جرهم.. وواحد من ملاك القافلة الراحلة إلى مصر.. سيكون ملازما لك طوال الطريق».
قالت الأميرة عالية تسأله وقبضة قاسية تعتصر قلبها:
«وما الذي سأفعله عندما أصل إلى مصر يا أبي؟!».
قال الملك غالب وهو ينظر إليها:
«الحاكم الروماني هناك صديق لي منذ سنوات كثيرة.. لقد كتبت رسالة أطلب منه أن يبقيك في قصره هناك.. ستكونين بأمان عنده.. ستحملين الرسالة معك».
اقتربت منه وقالت وهي تمد يدها إليه:
«أبي.. لا أريد أن أرحل.. دعني أبقَ معك.. أرجوك، و...»..
قال يقاطعها وهو يدفعها بعيدا عنه بقسوة:
«كلا.. بقاؤك هنا مستحيل.. لا بد أن ترحلي.. هل تفهمين هذا؟ لا بد من رحيلك!».
ساد الصمت بعد عبارته قليلا قبل أن يصفق الملك بيده ليدلف إلى المكان عبد أسود مفتول

العضلات تتبعه الجارية آطام، فقال الملك:
«آطام.. عبدون.. ساعدا الأميرة على حزم متاعها استعدادا للرحيل.. عالية.. عودي إلى جناحك الآن.. غدا مع شروق الشمس ترحلين مع القافلة».
تطلعت إليه الأميرة عالية قليلا وقد ارتسم الذهول على وجهها الجميل.. إنها لا تصدق ما تسمعه الآن.. لم تعهد والدها بهذه القسوة أبدا.. لقد كان طوال سنوات طفولتها وصباها حريصا على حياتها كل الحرص.. دوما يريد سلامتها.. دوما يرغب في رؤيتها في أحسن حال.. وعلى الرغم من أنها لم تشعر يوما بأي بادرة من حنان منه فإنه كان يحرص على حياتها كحياته.. وكان هذا يكفيها!!
يا لك من مسكينة.. بائسة يا عالية!!
لا تعرفين أنه ما فعل هذا طوال تلك السنوات إلا حرصا على حياته هو!!
لقد كان يحمي نفسه.. لم يكن ليجرؤ على عصيان كاهنة النار التي ظهرت له عندما حاول قتلك وأنتِ رضيع في مهدك!!
وها هو الملك القاسي يدفعك في رحلة مجهولة.. قد تظنين أنه يريد حمايتك كما يدعي.. لكنه كالأحمق يرمي بك بين براثن خطر رهيب.. خطر لا قِبل لأحد بمواجهته على الإطلاق.. إنه يضعك بمحض إرادته تحت رحمة ذلك اليهودي اللعين حزقيل..
أنت يا عالية لا تعرفين أنك لن تكوني مع تلك القافلة عندما تغادر تدمر.. طريقك يسلك اتجاها آخر..
أنت يا عالية.. لن تبلغي مصر.. ولن تصل رسالتك إلى الحاكم الروماني هناك!!
فكم أنت أحمق أيها الملك غالب.. كم أنت غبي.. قصير النظر.. لم تعلمك السنون أي شيء!!
«السمع والطاعة يا أبي!».
تقولينها يا عالية بصوت كسير قبل أن تغادري بخطوات مثقلة بالهم والألم يتبعك العبد الأسود وخلفه آطام وقد أخفت دموعها بأنامل ترتجف!!
هي الوحيدة في هذا القصر تعلم ما أنتِ مقبلة على مواجهته!!
هي فقط!!

* * *

كان بنامون واقفا أمامها متسمرا..
ينتظر ما ستخبره به.. لقد نفذ تعاليم الكاهن الأكبر قبل موته..
وها هو الآن ينتظر..

«النذير».

قالتها سيدة الجبل بصوتها العذب وعيناها تتألقان بين غابة الشعر التي تغطي جسدها، فابتلع بنامون ريقه بصوت مسموع قبل أن يقول:

«ماذا؟!».

قالت وهي تنهض من فوق عرشها الصخري وتتقدم نحوه بخطوات وئيدة وهي ترفع يدها أمام وجهها:

«النذير يا بنامون.. لقد ظهر القبر المختار في الصحراء.. وجنود الموت قاموا من مرقدهم تحت الرمال.. ينتظرون قيام سيدهم من سباته الذي دام آلاف السنين.. فكان لا بد للنذير أن يتحرر من سجنه.. ليقوم بدوره».

قال بنامون بصوت ذاهل:

«لا أفهم يا سيدة الجبل!».

تنهدت سيدة الجبل قبل أن تقول:

«النبوءة القديمة.. اللعنة التي ستحل على البشر الفانين يا بنامون.. كل شيء مكتوب في صفحة القدر.. ولا أحد قادر على دفعه».

لاذت بالصمت لحظة قبل أن تتوقف أمامه وهي تقول مكملة:

«هناك حمقى يسعون لتحرير اللعنة يا بنامون.. حمقى يظنون أنها قوة تسهل السيطرة عليها والتحكم بها لمن يملك القدرة والسرعة والدهاء.. لكنهم لا يعلمون أبدا أنهم يحررون شرا رهيبا سعى قديما للسيطرة على البشر وتحويلهم إلى عبيد تحت قدميه.. هذا الشر سيكون له أعوان من الصعب قهرهم.. سيكون تحت إمرته جيش رهيب.. يملك قوة كاسحة.. ولهذا تحرر النذير.. لهذا انطلق بكل قوته ليجمع جنود الخير تحت لوائه.. يكون جيشه الذي سيواجه به قوة اللعنة المقبلة».

ومالت عليه لتلفح أنفاسها وجهه وهي تقول:

«لكن النذير سيكون بحاجة إلى أقوى سلاح في هذه الحرب يا بنامون.. السلاح الوحيد القادر على قهر اللعنة ودفنها كما حدث في الماضي.. وأنت تملك هذا السلاح الآن».

اتسعت عينا بنامون وقال وجسده يهتز من فرط الانفعال:

«أنا؟! عن أي سلاح تتحدثين يا سيدة الجبل؟!».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة سرعان ما اتسعت قبل أن تتحول إلى ضحكة تردد صداها في جنبات قصرها الصخري.. وأخيرا توقفت عن الضحك وهي تقول:

«إذًا.. الكاهن الأكبر لم يخبرك بسر السلاح.. أليس كذلك يا بنامون؟!».

هز بنامون رأسه ببطء قبل أن يقول:

«بلى.. كل ما أخبرني به هو أن أذهب إلى المعبد.. وأحصل على ذلك الصندوق الصغير من مخبئه في المقصورة المقدسة هناك قبل أن آتي به إلى هنا.. إليك يا سيدة الجبل!».

تألقت عينا سيدة الجبل من جديد وهي تقول مشيرة بيدها نحو صدره:

«آه.. الصندوق الصغيييير.. ها أنت قلتها يا بنامون.. هل الصندوق معك الآن؟!».

تناول بنامون من بين ثيابه لفافة صغيرة وقال وهو يمدها نحو سيدة الجبل:

«أجل.. ها هو يا سيدة الجبل».

مدت سيدة الجبل يديها إليه.. تناولت اللفافة.. فضتها بلهفة.. تألقت عيناها مرة ثالثة وهي تتحسس الصندوق ذا الحواف المعدنية القاسية.. وبنامون ينظر إليها برهبة.. وقلبه يدق بقوة في صدره.. والعرق يتصبب على جبهته باردا!!

قالت سيدة الجبل وهي ترفع غطاء الصندوق:

«هنا.. في هذا الصندوق.. يكمن السلاح يا بنامون.. لكن لا بد من وجوده في يد الشخص الذي سيكون قدره أن ينهي اللعنة.. ذلك الشخص الذي غادر أرضه فعلا.. إنه الآن في طريقه إلى هنا.. إلى حيث ستندلع نار المعركة الأخيرة».

قالتها وأغلقت الصندوق بقوة ليتردد الصدى من حولهما مضاعفا!!

* * *

(١٩)

فجأة تعالى في السماء ذلك الصريخ الرهيب..

صريخ يصم الآذان وتلك السحابة السوداء تبدو وكأنها تنفصل عن السماء وتغطي وجه القمر الفضي بانتشارها!!

وتجمد المشهد فجأة!!

الأشباح السوداء.. الخطافون.. تجمدوا وهو يرفعون رءوسهم عن أجساد ضحاياهم وينظرون إلى السحابة السوداء التي راحت تتحرك على نحو عشوائي قبل أن تبدأ في الانقسام إلى عشرات.. بل مئات.. بل قل آلاف الأجزاء المتساوية في حجمها.. واشتراكها في اللون الأسود..

وعلى الفور أيضا اتخذت هذه الأشكال هيئة طيور لها عيون حمراء كالدم.. ومناقير راحت تفتح وتغلق مطلقة ذلك الصريخ الرهيب..

«وحق الآلهة!! أي هول هذا الذي نواجهه؟!».

هتف بها زهير وهو يضرب بسيفه ذلك الشبح الجاثم فوقه، ليطلق عواءه قبل أن يذوب جسده في رمال الصحراء.

اعتدل زهير والدماء تسيل من جرح في كتفه، وآخر في ساقه، وراح صدره يعلو ويهبط في لهاث عنيف وهو يرى تلك الطيور السوداء وهي تنقض من علياء السماء على أجساد الخطافين.. وأمام أعين رجال القافلة الذين بقوا على قيد الحياة دارت معركة رهيبة.. وحشية.. لا تنتمي بأي حال من الأحوال إلى عالم البشر..

إنها معركة بين جنسين وحشيين:

الطيور السوداء الذين سخرتهم سدوم..

والخطافون الذي يأتمرون بأمر حزقيل..

إنها معركة بين قطبي الشر.. سدوم وحزقيل..

الأولى تريد نجاة القافلة.. ونجاة من فيها ليصلوا إلى مصر ويبدأوا في تنفيذ مخططها للسيطرة

وحيازة القوة المطلقة..
وحزقيل يرغب في تدمير هذا المخطط.. ويسعى جاهدا للوصول قبلها إلى مراده.. وتحرير القوة الكامنة هناك.. في مصر..
كلاهما يسعى بطرائقه ووسائله الشيطانية الرهيبة..
كلاهما يستعين بخدم وأتباع من عالم رهيب.. مخيف.. وبشع!!
ولكن.. أيهما سينجح أولا؟!
كانت الطيور تطير عاليا وقد حملت بين مخالبها أجساد الخطافين.. قبل أن تهوي بها على الرمال لتمزقها إلى أشلاء!!
ووجد رجال القافلة أنفسهم يتراجعون..
ووقفوا من هذا الهول أمامهم موقف المتفرج!!
نسوا جراحهم.. آلامهم.. نسوا كل شيء وهو يتابعون المعركة التي لا يعلمون أنها صراع بين إرادتين شريرتين!!
مرت ساعات لم يعد أحد بقادر على حسابها أو تقديرها..
قبل أن ينتهي كل شيء.. وتعود هذه البقعة من الصحراء إلى هدوئها الرهيب..
الخطافون أدركوا أنهم لن يتمكنوا من مواجهة الطيور السوداء.. لا أحد يعلم كيف أدركوا هذا أو علموه..
لكنهم بدأوا يختفون في الرمال.. يذوبون فيها.. يمتزجون بحباتها دون أن يتركوا وراءهم أي أثر على الإطلاق!!
أما الطيور السوداء فراحت تدور في السماء قليلا قبل أن تتجمع.. وتلتحم مرة أخرى مكونة تلك السحابة السوداء التي أخذت تبتعد.. وتبتعد.. وعاد ضياء القمر الفضي ينسكب من جديد على الرمال، و...
«عسير.. عسير.. أين أنت؟!».
اتسعت عينا عسير وهو يرى عمير يترنح أمامه وهو ينفض الرمال التي غطت كل شبر من جسده، فقال وهو ينظر إلى ذراعه المصابة:
«عمير.. أنت على قيد الحياة!!».
قالها واندفع نحوه وهو يطوقه بذراعه السليمة ويضحك في شبه جنون!!
«سيدي سهم.. سيدي سهم».
التفت سهم إلى صهيب الذي توقف أمامه وهو يلهث بقوة قبل أن يقول:

«أنـ... أ... أنت مصاب يا سيدي».
نظر سهم إلى كتفه النازفة.. وتهاوى سيفه على الأرض.. ورفع عينيه إلى السماء ينظر إلى القمر.. لم يدر لِم خُيل إليه أنه رأى وجه أمه يطل عليه من وجهه الفضي البارد.. وسمعها تقول بصوتها المخيف:
«لا بد أن تواصل القافلة طريقها إلى مصر.. هذا قدرهم.. وقدرك يا سهم».
ابتلع سهم ريقه.. أشاح بوجهه ليهرب من هذه الملامح الغاضبة.. دار بعينيه في المكان من حوله.. رأى الرجال يلملمون جرحاهم.. ويدفنون موتاهم في الرمال..
يفعلون هذا في صمت.. في خوف..
رفع عينيه إلى القمر.. وقال وهو ينظر إلى وجه أمه:
«وهل تظنين أنهم سيفعلون هذا؟!».
اتسعت عينا صهيب وهو يرى سيده يصرخ على هذا النحو، وظن به الجنون بعد الهول الذي مرت به القافلة حتى الآن!!
«لا يهمني في القافلة إلا بضع حيوات يا أحمق.. هي من ستواصل طريقها إلى مصر.. وكل واحد منها سيقوم بالمهمة التي كُلف بها».
قالتها أمه وابتسامة مخيفة تلوح على شفتيها، فقال سهم وهو يلوح بقبضته:
«وماذا عني؟! أي دور رسمته لي يا كاهنة بني عامر الكبرى؟! هه؟ أي دور؟!».
لكن ابتسامة أمه اتسعت.. وراح وجهها يتلاشى ببطء من وجه القمر!!

* * *

«لماذا سترحل القافلة بهذه السرعة يا سيد شعيب؟».
قالها رجل أسود فاخر الثياب.. له بطن كبير وعيون جاحظة.. وهو يتطلع إلى شعيب في تعجب وكأن ما يحدث خرق هائل لنواميس الكون..
نظر نحوه شعيب بضيق وهو يرنو ببصره صوب الخيمة التي يحرسها اثنان من العبيد الأقوياء وقال:
«لقد انتهى البيع والشراء.. واشترى الملك كل البضائع بربح كبير.. فلماذا الانتظار وإضاعة الوقت؟».
نظر نحوه نظرة قميئة تدل على ضيق أفق شديد وقال بانفعال:
«لماذا هذه السابقة التي لم تحدث من قبل؟ وما الداعي ليشتري الملك القافلة؟».
كان ضيق شعيب قد بلغ مبلغه فقال بصوت يحمل ضيقا لا نهائيا:
«اذهب إليه واسأله».

نظر هذا الشخص نحو شعيب بلا مبالاة وهو يغادره متوجها صوب الخيمة التي يقف على بابها الحارسان عندما اعترض طريقه سهيل..

«دعها الآن يا عمي فهي مرهَقة بشدة وسنوقظها قبل الرحيل مباشرة».

استجاب شعيب لطلب سهيل وتراجع ليسير معه إلى جانب قصيٍّ بعيدا عن مكان القافلة المزدحم وعلى وجهه ارتسمت ملامح الجدية الشديدة..

تغير وجه سهيل عن وجهه القديم وارتسمت على وجهه علامات الجدية كمن يحمل فوق ظهره حملا ثقيلا ينوء بحمله ونظر نحو عمه شعيب نظرات ذات معنى وهو يقول:

«لقد نشرت الخبر في كامل القافلة».

نظر نحوه شعيب وفكره سارح وقال:

«وماذا كانت ردود الفعل يا سهيل؟ هل ارتاب أحد في الأمر».

«هز سهيل رأسه نافيا وهو يقول:

«لم يتحدث أحد في شيء إلا ذلك السمين مسعود وأنت أدرى به مني».

مط شعيب شفتيه كناية عن الاستياء وهو يربت على كتف سهيل ثم أدار رأسه نحوه وهو يقول بحذر:

«ألم يظهر ذلك اليهودي بعدُ؟».

هز سهيل رأسه مرة أخرى وقال:

«لا، لم يظهر بعد».

استدار شعيب ناظرا نحو الخيمة وقال:

«كن دائما بالقرب من الخيمة.. واحمِ الأميرة بحياتك.. وأجب كل متطلباتها.. إنها تحت حمايتنا الآن.. لقد جعل الملك حياتها مرتبطة بحياة القبيلة كلها.. وأريد أن أنال رضاه لا سخطه».

«لا تخشَ شيئا يا عماه».

قالها سهيل ثم ذهب ليجلس مرابضا بالقرب من الخيمة، في حين توسد شعيب الأرض وأخذ يتذكر أحداث الأمس القريب.. تلك الأحداث التي قلبت حياته رأسا على عقب..

«أهذا هو عمك أيها الفتى؟».

قالها الملك غالب في قوة وهو يتطلع إلى شعيب المذعور.. وعلى وجهه ترتسم ملامح قوة وبأس لا يكلان.

«نعم.. هو عماه، ماذا ستفعلون به؟».

قالها سهيل وهو ينظر لعمه الذي شد الحراس وثاقه وقد ظهرت على وجهه أمارات خوف شديد.. لكن الملك غالب تجاهله تماما وهو يوجه كلامه للحراس ويشير إلى شعيب:

«من أمركم بتقييده أيها الأغبياء؟».

تلعثم قائد الحرس وارتجف جسده وهو ينظر للملك في خوف شديد وقال:

«أتتنا الأوامر بالقبض عليه.. فسلكنا معه الطريقة المتبعة».

ظهر الضيق على وجه الملك وقال بصوت نافد الصبر:

«فكوه أيها الأغبياء فهو ضيف.. ونحن لا نعامل الضيوف هكذا.. أتريدون أن تضربوا سمعتنا وسط العرب؟».

اندفع الحراس يفكون قيود شعيب وقد اجتاحتهم عاصفة لا تهدأ من الأسئلة:

«فمتى كان يعبأ الملك بسمعته أو بشكله أمام أحد؟ إنه ينفذ ما يريد وقتما يريد وأرواح ضحاياه وأسراه ستظل تلعنه حتى لحظة موته»..

بالطبع هذه كلها كانت تساؤلات داخلية لم يبرز أي منها على السطح.. فمن يجازف بعنقه لمجرد فضول غبي قد انتابه من جملة عابرة للملك الذي لا يرحم؟!

انتهوا من فك قيود شعيب الذي اكفهر وجهه وشحب حتى أصبح لونه أصفر كرمال الصحراء الجدباء وهو يتساءل في داخله عمَّا حدث من لحظة القبض عليه حتى لحظة مثوله أمام الملك لتنقلب المعاملة..

تقدم شعيب ليمثل أمام الملك ولفتت نظره تلك النظرة الخبيثة التي يتطلع بها إليه ذلك الشيخ كئيب السحنة الذي يقف متحفزا بالقرب من الملك.. بالطبع لم يكن يعرف حزقيل.. لكنه سمع عنه وتمنى ذات لحظة أن يقابله ليستشيره في موضوع الأوهام التي تطارد سهيل..

لم يشعر نحوه قط بالارتياح..

«تقدم يا شعيب، لا تخشَ شيئا.. وأنت يا قائد الحرس اصرف جميع من في الديوان وانتظرني بالخارج ولا أريد أن يقاطعنا أحد مهما كانت مكانته أو أسباب قدومه».

أشار قائد الحرس إلى جنوده لينصرفوا وهو يشد قامته في وقفه عسكرية ويقول بصوته الخشن: «تحت أمر مولاي».

لحظات وخلا الديوان إلا من الملك وحزقيل وسهيل وعمه شعيب وران الصمت للحظات قطعها الملك قائلا:

«الآن يا شعيب ستعرف سبب مقدمك.. وسبب تشرفك باستدعائنا لك.. لكن لتجِب عن سؤالي في البداية».

كان شعيب قد فارقه الروع فاندفع ليقول:

«ليسأل مولاي وأنا رهن السمع والطاعة».

دوى صوت غالب الجهوري ليتردد في جنبات الديوان وقال:

«وهذا ما أتوقعه منك يا شعيب.. فما سمعته عنك في الساعات الماضية يدل على أنك رجل يُعتمد عليه».

ظهر الاطمئنان أخيرا على وجه شعيب وهو يقول:

«رهن إشارتك يا مولاي».

«ما ستسمعه هنا الآن يا شعيب سري لأقصى مدى تهون من بعده الحياة.. لذلك أرغب في أن تنصت جيدا؛ لأنني لا أحب أن أكرر كلامي».

هز شعيب رأسه دون أن ينطق دليلا على الفهم، فاستطرد الملك قائلا:

«لقد أحطت علما بخبر العقارب.. وكاهنة النار التي رآها سهيل.. وهذا لم يكن محض خيال أو افتراء.. ما رآه سهيل كان سحرا عظيما.. سحرا يهدد ابنتي الأميرة عالية.. ويربطهما معا برباط خاص.. ولن تُفصم عرى هذا السحر إلا بابتعاد الأميرة عالية عن المملكة لوقت ما.. وفي هذا الوقت يجب أن يحاط الأمر بالسرية المطلقة».

كان شعيب يستمع وعيناه تتسعان من التعجب والدهشة.. فأنى له أن يتوقع أن من تشغل باله التجارة واتساع نفوذ عقل الجرهمي سيدخل في صراع لا ناقة له فيه ولا جمل..

قطع أفكاره صوت الملك وهو يقول:

«ستطيع أوامر حزقيل وكأنها تصدر عني.. وعند عبور هذه الغمة سأجزل لك العطاء وسأجعلك أثرى أثرياء قبيلتك».

«حياتي فداؤك يا سيدي.. ولكن ما المطلوب مني تحديدا؟».

«سيخبرك حزقيل بكل شيء، ومن هذه اللحظة ستطيعان أنت وابن أخيك حزقيل وهي نهاية الأمر».

اعتدل شعيب في جلسته وقبل أن يسترسل في أفكاره أتاه صوت مسعود الفضولي واحتلت بشرته السوداء وعيناه الجاحظتان وجسده البدين مساحة الرؤية عند شعيب فأدار وجهه الناحية الأخرى وهو يقول بضيق:

«ماذا هناك يا مسعود؟ ألم ننتهِ من حديثنا؟».

نظر نحوه مسعود في غباء وقال:

«هل حقا تريدني أن أذهب لأسأل الملك؟».

قام شعيب من جلسته منتفضا وترك مسعود بغبائه وفضوله.. واختلط بباقي رجال القافلة هربا من ذلك المزعج الذي أخذ يردد:

«هل أذهب أم لا يا شعيب؟ أجب يا رجل».

* * *

ظهرت فجأة فوق رمال الصحراء وكأنما العدم أنجبها أو انزاح عنها ستار خفي..
ظهرت بكامل قوتها وسحرها.. أنثى تتحدى قوانين الطبيعة.. جمال لا مثيل له يتألق بقلب هالة من النيران المشتعلة..
ودون مقدمات أحاط بها قطيع هائل من الذئاب.. قطيع لم يخشَ النار وكأنه لا يراها.. قطيع له أنياب ومخالب على استعداد في أي لحظة لتنثر الدماء والموت في كل مكان..
ومن داخل خيمتها ظهرت سدوم ببشرتها المتغضنة كغراب بين متحفز.. عيناها تلمحان بحيوية لا يملكها جسدها.. وعقلها يعمل هادرا محاولا أن يستقصي حقيقة ما يحدث..
نظرت نحو كاهنة النار التي تضيء من حولها جزءا كبيرا من الفراغ، حتى إنها تبدو كماسة متألقة في قلب الليل.. ثم ابتسمت ابتسامة خبيثة زادتها قبحا على قبحها وارتفع صوتها في قوة وهي تقول:
«أي رياح ألقت بك هنا أيتها الكاهنة؟».
نظرت كاهنة النار نحو الذئاب في قلق وقالت:
«رياح التعاون يا سدوم».
صمتت سدوم للحظات ثم قالت:
«التعاون في أي شيء؟ لا يوجد ما يربطنا معا.. ثم إني جديرة بإنهاء أعمالي.. فهاتي ما عندك».
نظرت الكاهنة إلى الذئاب وقالت:
«أهذه الذئاب طبيعية؟ أي ذئاب هذه التي لا تخشى النار؟».
أشارت سدوم نحو الذئاب بفخر وقالت:
«إنها ذئاب سدوم يا سيدتي.. ألم تسمعي بها؟».
نظرت الكاهنة نحو الذئاب بقلق حقيقي، لكنها أخفته وهي تقول:
«ولماذا السمع؟ ها أنا ذا أراها.. أبعديها عن طريقي لأن بيننا حديثا وسيطول إلى أقصى مدى».
أشارت سدوم إلى الذئاب فانطلقت بسرعة رهيبة في كل اتجاه وابتلعها الليل والصحراء، ثم دخلت سدوم وخلفها الكاهنة التي تلاشت الهالة من حولها.. ليظهر جمالها الطبيعي الذي لا مثيل له..
استوت سدوم في جلستها ونظرت نحو الكاهنة التي وقفت كمعجزة حقيقية وبادرتها بالسؤال قائلة:
«التعاون من أجل ماذا؟».
نظرت نحوها الكاهنة وقالت بلهفة وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة:

«من أجل القضاء على حزقيل اليهودي».
اتسعت ابتسامة سدوم، ما جعل بشرتها تتغضن أكثر وقالت:
«اجلسي أيتها الكاهنة.. فيبدو أن حديثنا سيطول».
جلست الكاهنة فوق حشية ناعمة ظهرت من العدم.. بعد أن تمتمت سدوم بعدة كلمات.. ثم قالت:
«ها أنا ذا.. كلي آذان مصغية».

* * *

«أولا دعيني أسألك شيئا ما يا كاهنة النار».
قالتها سدوم وهي تستوقف كاهنة النار من الاسترسال في الحديث بإشارة من كفها المعروقة، فقالت كاهنة النار وهي تقطب جبينها:
«سلي ما تشائين يا سدوم».
ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتي سدوم وقالت وهي تنظر إلى النار التي اشتعلت أمامها وراحت تتراقص في كل اتجاه:
«لماذا تريدين التخلص من حزقيل؟ ما أعلمه هو أنكما متفقان في كل شيء.. أنت تعملين تحت إمرته منذ سنوات طويلة.. أليس كذلك يا عزيزتي؟!».
ابتلعت كاهنة النار ريقها بصعوبة قبل أن تقول:
«أريد استعادة حريتي يا سدوم.. لقد حوَّلني ذلك اليهودي اللعين من كاهنة ذات قوة وسيادة إلى خادمة تؤدي له مهامَّ وضيعة.. وهذا لا أرضاه.. لا بد أن أشفي غليلي بالتخلص منه».
وضاقت عيناها وهي تقول مردفة:
«لكني بكل ما أملكه من قوة لا أستطيع أن أفعل هذا.. إنه يعرف كل طرقي ووسائلي.. وسيعرف كيف يتصدى لها جميعا.. لهذا لجأت إليكِ.. أنشد تعاونك.. أنا أعلم أن حزقيل عدوك منذ زمن بعيد.. والتخلص منه غاية تسعين إليها».
تراجعت سدوم للوراء قليلا وقالت وهي تحرك كفها فوق النار المتراقصة ببطء:
«ولماذا تظنين أنني سأساعدك على التخلص منه دون مقابل؟!».
تراقصت ابتسامة على شفتي كاهنة النار وهي تقول:
«ومن قال إنني لن أمنحك مقابل مساعدتك لي يا سدوم؟! لا تسيئي الظن بي إلى هذه الدرجة يا كاهنة بني عامر الكبرى».

وأخذت نفسا عميقا ملأت به صدرها قبل أن تقول:

«فأنا أعلم أنك تسعين إلى الهدف ذاته الذي يسعى إليه حزقيل.. كل منكما يسعى إلى حيازة القوة والنفوذ لنفسه.. كلاكما يسعى بطرقه ليسبق الآخر.. ولأكون صادقة معك يا سدوم.. حزقيل قطع شوطا كبيرا للغاية، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من بلوغ الغاية العزيزة إلى نفسه، و...»..

قالت سدوم تقاطعها بصوت مخيف:

«هراء!! ذلك اليهودي لن يسبق سدوم إلى القوة المطلقة أبدا يا كاهنة النار!! ذلك اللئيم أراد أن يقضي على رجالي في طريقهم إلى مصر.. لقد أرسل الخطافين.. لكن محاولته باءت بالفشل أمام الطيور السوداء، و...»..

قالت كاهنة النار تقاطعها وعيناها تتألقان:

«مخطئة أنت يا سدوم.. حزقيل أراد أن يشتت انتباهك عن هدفه الحقيقي.. إنه يسعى الآن في اتجاه آخر تماما.. لقد اقترب كثيرا يا عزيزتي!».

اربدت ملامح سدوم لتزداد بشاعة ورهبة ومالت للأمام قليلا وهي تقول:

«هاتي ما عندك.. لا داعي لهذه المقدمات الطويلة.. ما الذي تريدين قوله عن نوايا حزقيل؟ قوليه دون إبطاء!».

أطلقت كاهنة النار ضحكة قصيرة قبل أن تقول:

«ليس قبل أن أحصل منك على وعد بمساعدتي يا سدوم.. هه.. هل سأحصل على الوعد؟!».

لكن كاهنة النار لم تكن تنتظر الإجابة فعليا من سدوم.. فقد قرأتها واضحة في عينيها المخيفتين!!

ضحكت كاهنة النار مرة أخرى قبل أن تقول:

«الآن.. أخبرك بكل ما أعرفه.. فأعيريني سمعك وجل انتباهك يا كاهنة بني عامر!!».

* * *

(٢٠)

قال عمير وهو يلف الضمادة حول ذراع عسير المصابة:

«أما زلت مصرا على مواصلة الرحلة إلى مصر يا عسير؟!».

تبدت الحيرة على وجه عسير، وقال وهو يمسح حبات العرق التي تجمعت على جبهته:

«عمير.. لقد اختارتنا سدوم لهذه المهمة.. أخذت علينا عهودا وأيمانا غليظة أن نذهب إلى مصر وننفذ تلك المهمة».

كانت السماء قد اتشحت بلون أزرق باهت علامة اقتراب الفجر الجديد بعد ذلك الهول الذي واجهته القافلة من ساعة أو يزيد قليلا.

«عسير.. لقد رأيت الموت بعيني هاتين.. رأيته يكاد ينشب أنيابه ومخالبه في روحي.. دعنا نهرب يا رجل.. دعنا ننجُ بحياتنا قبل فوات الأوان!».

ابتلع عسير ريقه بصعوبة قبل أن يقول:

«عندما عرضت علينا سدوم تلك المهمة.. وطلبت منا أن نسرق لها ذلك القبر في صحراء مصر.. قبلت لأنني رأيتها أمرا قمنا به سنوات طويلة.. في مصر.. في الشام.. وحتى في اليمن والعراق».

وصمت هنيهة قبل أن يقول مكملا:

«لكن ما واجهناه حتى الآن يجعلني أشعر بعظم الحماقة التي أقدمنا عليها بقبولنا هذه المهمة يا عمير.. أشعر وكأننا نسير نحو حتفنا بمحض إرادتنا!».

تألق الأمل في عيني عمير، وقال وهو يربت كتف عسير برفق:

«أخيرا تأكدت من هذا يا رجل؟! لترحمك الآلهة! هذا ما كنت أريد أن أخبرك به قبل خروجنا مع هذه القافلة المشئومة.. هذه المهمة لا تحمل لنا إلا الموت هذه المرة.. إنها طريق بلا عودة.. هلاك لا مفر منه!».

نظر إليه عسير بعينين متسعتين وقد عادت حبات العرق تتجمع على جبهته:

«لكن هل تتركنا سدوم إذا قررنا الهرب يا عمير؟! إنها ساحرة مقتدرة.. تسخر الجن لخدمتها..

فكيف الفكاك من براثنها؟! كيف؟!».

تلفت عمير حوله وقال بصوت خافت:

«دعني أفكر.. أنا واثق من أننا سنجد طريقة ما.. صدقني!».

«سيدي سهم.. ما تفكر فيه مستحيل؟!».

قالها الخادم صهيب وهو ينظر إلى سهم الذي انتهى من تضميد إصابته وقال:

«لا بد أن أواصل الطريق إلى مصر يا صهيب.. لا بد».

ابتلع صهيب ريقه وقال ملوحا بيده أمام وجهه:

«رجال القافلة قرروا أن يعودوا أدراجهم.. ما واجهته القافلة يؤكد لهم أن الآلهة صبت جام غضبها فوق رءوسهم.. تلك العاصفة الرهيبة، ومن ثم تلك الأشياء التي هاجمتهم في الهزيع الأخير من الليل».

قال سهم وهو يتمنطق بحزامه وسيفه:

«يمكنك أن تعود معهم يا صهيب.. لن ألومك أبدا إن فعلت هذا».

قال صهيب يسأله بصوت تسللت إليه نبرة توسل جلية:

«تعالَ معي إذًا سيدي سهم.. لنعُد معًا إلى القبيلة.. لماذا ترحل وحدك؟!».

همَّ سهم بقول شيء ما، لكن صوتا ما سبقه ليقول:

«اطمئن يا بن سدوم.. لن تكون وحيدا في هذه الرحلة.. فأنا سأكون معك!».

التفت سهم وصهيب ليريا زهير يتقدم منهما وهو يجر سيفه في الرمال خلفه، فقال سهم ويده تمتد إلى مقبض سيفه:

«من تكون يا هذا؟! رأيتك أكثر من مرة في القافلة وإن لم تسنح لنا فرصة للتعارف».

أخذ زهير نفسا عميقا، وقال وهو يعيد سيفه إلى غمده:

«اسمي زهير.. ولا يهمك أن تعرف عني أكثر من هذا سوى أنني في هذه القافلة مثلك تماما.. تنفيذا لأوامر شخص أنا وأنت نعرفه جيدا».

انفرجت شفتا سهم ليقول بصوت خافت:

«أمي.. سدوم!».

أومأ زهير برأسه إيجابا قبل أن يقول:

«بالضبط.. لا أعرف لماذا ترسل ابنها إلى مصر.. لكني أعرف ما كلفتني به نظير مساعدتي في نيل ثأري منه».

التقى حاجبا سهم في تقطيبة عميقة وهو يسأله قائلا:

«ثأرك ممن؟!».

نظر زهير إلى السماء الشاحبة قبل أن ينظر من جديد إلى سهم ويقول:

«حزقيل!».

وازدادت تقطيبة سهم عمقا.. وفي جسده سرت رجفة قوية لم يعرف أبسبب الخوف أم بسبب البرد!

* * *

«تقدم يا يام ولا تخشَ شيئا».

انتفض يام للحظة ثم تقدم من الملك غالب في سرعة.. ففتح له غالب الباب الصغير الذي لا تمكن تفرقته عن الحائط الصخري الذي يكون السور الشرقي بالكامل لقصر الملك غالب وتبعه في خطوات سريعة متعثرة وكأن هناك من يطارده..

قطع الملك غالب أحد الممرات السرية التي يمتلئ بها القصر ثم انعطف مع منحنى آخر حتى وصل إلى غرفة متسعة مؤثثة جيدا وإن كان الأثاث لا يحمل طابع الثراء أو الذوق..

جلس الملك فوق مقعد خشبي متين وانعكست على وجهه نيران المشاعل فأعطت لوجهه النحيف لمحة شيطانية جعلت قشعريرة باردة تسري في أوصال يام..

«الآن هاتِ ما عندك».

قالها غالب وهو يتكئ على مسندي المقعد الخشبيين وعيناه الحادتان مركزتان على وجه يام المرتجف وكأنه يحاول أن يسبر أغواره أو يكشف دواخله.. فعلى الرغم من كل شيء هو لا يثق في ذلك اليهودي.. وعامة هو لا يثق في اليهود.. ولكن ما يثير قلقه هو أن هذا اليهودي خائن.. والخائن لا عهد له، فما بالكم بيهودي وخائن؟

قطع أفكاره صوت يام المرتجف الذي لا يدري سر ارتجافه:

«الأمر جد خطير يا مولاي.. وحزقيل بدأ في خطته الكبرى.. وأنت ساعدته دون قصد.. أو ربما هو من دفعك لهذا».

اعتدل الملك في مجلسه وظهر على وجهه الاهتمام المشوب بالقلق وقال بصوته القوي:

«التفاصيل يا يام.. التفاصيل».

«ابتلع يام ريقه ثم أغمض عينيه وتنفس نفسا عميقا وقال بصوته المرتجف:

«منذ عرضت عليَّ التعاون وقد أصبحت أتقرب من حزقيل حتى جعلني مساعده الأول وأطلعني على خطته الكبرى والتي يريد عن طريقها أن يمتلك القوة.. من أجل أن يعود المجد

لجنسنا بعد سنوات التيه الطويلة.. وبالفعل اقتنع الجميع بما يريد ويسعى إليه.. ولكني إن لم أقتنع لحظة واحدة.. فالمجد الوحيد الذي يسعى إليه هو مجده الشخصي.. و...».

تطلع غالب نحوه باهتمام شديد في حين ابتلع يام ريقه ثم أكمل:

«ووصلت ثقة حزقيل في ولائي إلى حد أنه استأثرني بمكان الدير السري القابع في الصحراء».

اعتدل غالب في مجلسه عند سماع الجملة الأخيرة وأخذ ينصت باهتمام فائق:

«هبطت معه إلى الدير ورأيت دهاليزه السرية وعرفت منه المكان الذي سيبدأ منه كل شيء.. وعرفت منه أن القربان البشري اقترب موعد تقديمه».

قاطعه غالب قائلا:

«ما حقيقة هذه القوى؟ وما القربان البشري؟!».

صمت يام للحظات قصار ثم نظر في عيني الملك وقال:

«القوة الموجودة بالدير هي نقطة البداية لكل شيء.. هي قوة الكلمات العظمى.. القوة التي ستتيح لحزقيل أن يهزم عدوته اللدود سدوم، و...».

قاطعه الملك في سرعة والدهشة على وجهه:

«سدوم! عن أي سدوم تتحدث؟ أي كاهنة بني عامر!».

هز يام رأسه بالإيجاب وقال:

«هي بعينها يا سيدي.. فهي الأخرى تسعى وراء القوة».

قال غالب وهو يُعمل تفكيره فيما سمعه من كلمات:

«إذًا فلحزقيل عدو ويسعى أيضا نحو القوة.. عدو رهيب قد يفوقه قوة أيضا».

لم يفهم يام مغزى كلمات غالب، لكنه قال:

«بالطبع.. فسدوم ساحرة قديرة.. وتستعين بالجن في إدارة شئونها والانتقام من أعدائها.. وما أعرفه أن هناك حربا ضروسا تدور رحاها الآن بين سدوم وحزقيل».

«جيد جدا».

قالها غالب فتطلع نحوه يام دون فهم، لكن غالب أشار إليه وقال:

«وماذا عن القربان البشري، الأضحية؟».

أغمض يام عينيه وكأنه يحاول أن يستدعي ذكرى ما وقال بصوت هادئ:

«سأخبرك بكامل القصة التي أخبرني بها حزقيل».

تحفزت كل خلية في جسد الملك غالب وقال بصوت منفعل:

«هات ما عندك يا يام.. فكلي آذان مصغية».

وأغمض يام عينيه مرة أخرى ليستدعي هذه الذكرى..

«هنا يا يام.. تقبع المعرفة.. يقبع السر الأعظم.. علوم خارقه لم يتداولها إلا الصفوة عبر تاريخ الأرض الممتد.

هنا يا يام أصل قوتنا.. ومصدر مجدنا المقبل.

هنا يا يام يبدأ وينتهي كل شيء».

نظر يام إلى حيث يشير حزقيل وظهر عدم الفهم على وجهه أكثر على الرغم من أن انفعالاته قد بلغت ذروتها وهو يتطلع نحو البئر العميقة شديدة السواد التي تتوسط قلب الغرفة السرية الموجودة بأعماق الدير السري، وقال بصوت مضطرب:

«وماذا يوجد في قلب البئر يا سيدي؟ ما القوة التي تحتويها؟ فما أراه مجرد بئر عميقة لا قرار لها».

ابتسم حزقيل ابتسامة صفراء وقال بصوت عميق:

«ما يوجد هنا يا يام سر الأسر.. القوة التي ستجعلني أهزم كل أعدائي.. إنها أصل النبوءة القديمة».

نظر يام نحو البئر الغامضة وقال بصوت مرتجف وقد بدأت البئر تكتسب هالة من الهيبة وتبعث بداخله قشعريرة باردة:

«وما النبوءة القديمة يا سيدي؟».

* * *

«من أنت يا سيدي؟».

قالها نواس وهو ينظر لجسده الذي استعاد قوته وحيويته وعيناه متسعتان من الدهشة وهو ينظر لذلك الشخص أو الكيان الذي يرتدي مسوح الرهبان ويمسك في يديه المنجل الحاد الخاص بالحصاد..

كان يشعر بفضول هائل وخوف غير مبرر على الرغم من حالة النشاط الهائلة التي تجتاحه.. فحتى بصره استعاده..

استدار ذلك الشخص الغامض الغارق في الظلال نحوه دون أن يكشف عن وجهه أو ينجح الضوء في ذلك.. فشعر نواس بتوتر شديد وهو يحاول أن يخترق تلك الحجب التي تتوارى خلفها تلك الملامح..

«أنا النذير يا نواس».

نظر نحوه نواس بتركيز محاولا أن يثبر أغواره أو يكشف عن لمحة من ملامحه دون فائدة فقال:
«من أي بلد أنت؟ ولماذا لا أستطيع أن أرى وجهك؟».
ساد الصمت للحظات ثم دوى الصوت العميق من خلف الحجب وقال:
«أنا ابن الزمان والمكان.. أنا خلاصة علوم متفوقة لا مثيل لها.. أنا النذير.. ويوما ما سأعود إلى العدم كما أتيت من العدم»..
صمت لحظة ثم أكمل:
«وأنت لا ترى وجهي لأنه لا وجه لي».
شعر نواس بقلبه ينقبض فلم يرغب في أن يكمل الحوار في هذا الجزء وأدار دفة الحوار لجهة أخرى:
«ما الخطوة المقبلة أيها النذير؟».
«الانتظار هو الخطوة المقبلة يا نواس».. قالها النذير.
نظر نواس بغير فهم نحو النذير وعيناه لم تتوقفا لحظة عن تفحصه:
«الانتظار إلى متى أيها النذير؟».
استدار النذير بوجهه نحو النافذة الحجرية وأخذ يتطلع نحو القمر وقال بصوته العميق:
«لا تتعجل الشر يا نواس.. فهو آتٍ لا محالة».
توتر صوت نواس وقال:
«لكني لا أفهم شيئا أيها النذير».
«غدا تفهم.. وغدا تلتقي الآخرين».
شدت العبارة انتباه نواس.. فقال بصوت ملهوف:
«الآخرون».
دوى صوت النذير العميق وقال:
«نعم يا نواس الآخرون.. نواة الجيش ودرع البشرية».
مط نواس شفتيه ثم تقدم ليحاذي النذير وفي عقله تدوي آلاف التساؤلات التي لم تجِب عنها كلمات النذير الغامضة، وقال محدثا نفسه بصوت خافت:
«إلى الغد إذًا أيها النذير».
وأخذ يتطلع للقمر وقلبه يخفق في عنف شديد..

* * *

«لكن هذا الطريق لا تسلكه القوافل في العادة يا سيد حزقيل!».

قالها شعيب وهو يعقد حاجبيه، ويشبك ذراعيه أمام صدره، وتبادل نظرة سريعة مع سهيل قبل أن يقول الأخير ناظرا إلى الساحر اليهودي الواقف أمامهما بثبات عجيب وعينين متألقتين: «ما يقصده عمي أننا قد نتعرض للتيه في الصحراء يا سيد حزقيل لو سلكنا هذا الطريق.. إنه طريق لا تطرقه القوافل كثيرا، وتكثر فيه وحوش الصحراء، و...»..

قال حزقيل يقاطعه وابتسامة ترتسم على شفتيه:

«كنت أظن أن جلالة الملك غالب أمركما أن تطيعاني يا سادة.. أليس هذا صحيحا؟!».

ابتلع شعيب ريقه بصعوبة، وقال وهو يضع يده على كتف سهيل:

«بلى يا سيد حزقيل.. ونحن لا نستطيع مخالفة أوامر الملك.. لكن سلامة القافلة عندي بالأهمية ذاتها أيضا، و...»..

قال حزقيل يقاطعه وابتسامته تتسع:

«أهم من حياة الأميرة عالية يا شعيب؟!».

اتسعت عينا شعيب وقال وهو يتراجع للوراء قليلا:

«لكن ما علاقة سلامة القافلة وأمنها بحياة سمو الأميرة يا سيد حزقيل؟! كنت أظن أن الأميرة سترحل معنا إلى مصر، و...»..

قال حزقيل يقاطعه مرة أخرى وابتسامته تواصل اتساعها:

«أولا: حياة الأميرة تتوقف على أن تسلك القافلة هذا الطريق يا شعيب.. وثانيا: كلا.. الأميرة عالية لن تذهب إلى مصر كما قال لك الملك غالب.. هناك سحر رهيب يهدد حياتها.. ولن تنفصم عراه إلا بابتعادها عن تدمر».

قال سهيل يسأله:

«لكن إذا لم يكن ذلك الطريق يقودنا إلى مصر.. فإلى أين يا سيد حزقيل؟!».

قال حزقيل وقد تلاشت ابتسامته:

«إلى حيث ستكون الأميرة عالية في مأمن تام من الخطر الذي يهدد حياتها».

قال سهيل مندهشا:

«لكن كيف نبرر لرجال القافلة انحرافنا عن الدرب المعهود إلى مصر؟ سوف يلاحظون حتما أننا لا نسلك الطريق إلى هناك، و...»..

بتر عبارته عندما لم يجد ما يقوله، فقال حزقيل وهو يقترب منه:

«لا تشغلا بالكما بهذا الأمر التافه.. سوف تمضي القافلة في الطريق المقرر لها دون أن يثير هذا أي شك أو ريبة».

وصمت لحظة قبل أن يقول وابتسامته تعاود الارتسام على شفتيه:
«المهم هو حياة الأميرة عالية.. و... فقط!».

* * *

قالت كاهنة النار وعيناها تتألقان بقوة، وبدتا لسدوم وكأنهما تشتعلان بنيران حقيقية:
«الدير السري».
ضاقت عينا سدوم وتوترت ملامحها على نحو لم يفُت عيني الكاهنة المشتعلتين، ومرت لحظات من الصمت قبل أن تقول بصوت قاسٍ كملامحها:
«ما الذي تتحدثين عنه يا كاهنة النار؟! أي دير سري تقصدين؟!».
ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي كاهنة النار، وقالت وهي تميل للأمام قليلا:
«أخبريني يا كاهنة بني عامر.. ألا تريدين معرفة ما يدبر له حزقيل حقا؟!».
قالت سدوم وهي تضيق عينيها أكثر وتجز على أسنانها بقوة:
«اعلمي أن صبري قليل يا هذه.. فلا تختبريه!».
قالت كاهنة النار في ذهول متهكم:
«هل تهددينني في ديارك يا سدوم وأنا التي جئت أنشد مساعدتك!».
أفلتت من سدوم زمجرة غاضبة قبل أن تقول وهي تنهض واقفة:
«كفى.. إذا كنتِ قد أتيتِ إلى هنا لتعبثي بسدوم أو تمنحي سيدك اللعين حزقيل فرصة ما لا أعرفها فلا أقلّ من قتلك بلا رحمة هنا.. أنت لا تعلمين سدوم عندما يفلت غضبها من عقاله.. أستطيع سحقك دون أن تهتز في جسدي شعرة واحدة!».
لم تدر لماذا شعرت كاهنة النار بالخوف يتسلل إلى نفسها.. تبا.. إنها تعلم من هي سدوم.. وما هي حدود مقدرتها التي بلا أي حدود على الإطلاق.. لكن لا.. اثبتي.. أنتِ في موضع القوة الآن.. هي من تحتاج إليك.. أجل.. إنها ترغب بشدة أن تسبق حزقيل.. اثبتي فأنتِ من تملكين خيوط اللعبة في يدك!
«لقد جئت أنشد مساعدتك.. صدقيني يا سدوم».
قالتها كاهنة النار بلهجة جادة وهي تعقد حاجبيها الجميلين، فقالت سدوم وهي تعاود الجلوس:
«بالحديث عن محض هراء؟!».
قالت كاهنة النار تقاطعها بلهجة حادة:

«لا تعبثي بي أنتِ يا سدوم.. الدير السري ليس محض هراء.. وكذلك قوة الكلمات السبع.. إنها حقائق.. يسعى إليها حزقيل بخطى واثقة».

قالت سدوم وهي تسيطر على غضبها بصعوبة بالغة:

«الدير السري أسطورة قديمة.. لا أحد نجح في الوصول إليه حتى يصل إلى سر الكلمات السبع من الأساس».

قالت كاهنة النار تسألها بعد لحظات من الصمت:

«ما الذي تعرفينه عن أسطورة الدير السري والنبوءة القديمة يا سدوم؟!».

راحت سدوم تتطلع إليها دون أن تنبس ببنت شفة، فتألقت عينا كاهنة النار قبل أن تقول مكملة ومجيبة عن سؤالها:

«دعيني أخبرك أنا بما أعرفه عن الدير يا سدوم.. وإنها لعمري قصة مثيرة بالفعل!».

* * *

«تعود حقيقة الأمر إلى مئات السنين يا نواس.. عندما بلغ اليهود شأوا عظيما في فنون السحر الأسود والكهنوت!».

سرت رجفة في جسد نواس عندما ألقى ذلك الرجل المدعو «النذير» هذه العبارة على مسامعه بصوته العميق.

كان الليل يسود بسكونه التام.. والقمر يلقي ضوءه الفضي البارد على رمال الصحراء فبدت أمام عيني نواس وكأنها حبات من اللؤلؤ المنثور، وهبت ريح باردة راحت تحرك تلك المسوح الرهبانية المحيطة بجسد النذير الذي قال مكملا دون أن يلتفت إلى نواس:

«لقد بلغوا آنذاك درجات رهيبة من القوة والسيطرة على فنون الظلام.. عاثوا في البلاد فسادا.. سيطروا على الكثير من الملوك والأمراء بقوة سحرهم وشرورهم التي لا حدود لها على الإطلاق.. حتى قامت جماعة منهم ببناء الدير السري في قلب الصحراء».

قال نواس وعيناه تتسعان:

«الدير السري؟!».

قال النذير وهو يهز رأسه إيجابا ببطء:

«أجل يا نواس.. لقد قامت هذه الجماعة التي أطلقت على نفسها اسم حاران ببناء الدير السري في غفلة من الناس والزمن.. كانوا يعلمون أن لعنة الشفق الأسود ستنهض من جديد بعد أن هزمتها قوى الخير منذ آلاف السنين.. في هذا الدير أودعوا كل علومهم وفنونهم السوداء في قوة رهيبة..

قوة سجنوها في أعماق بئر مظلمة في قلب الدير.. قوة قادرة على شق الطريق أمامهم نحو القوة الأعظم التي من شأنها أن تمنحهم السطوة والنفوذ اللذين يسعى إليهما جنسهم منذ زمن طويل دون فائدة.. لكنهم كانوا يخشون أن يمضي الوقت ويموتوا جميعا دون أن يبقى أي واحد منهم على قيد الحياة ليعيد تحرير القوة الكامنة في قلب الدير.. وبهذا وُلدت الكلمات السبع يا نواس!».

* * *

«الكلمات السبع؟!».

قالها الملك غالب وعيناه تتسعان عن آخرهما، ويده تقبض بشدة على مسند عرشه، فقال يام بعد أن ازدرد ريقه بصوت مسموع:

«أجل يا مولاي.. لقد أدرك كهنة حاران أنه لا بد من وسيلة تعيد تحرير تلك القوة التي دفنوها في أعماق الدير السري.. وسيلة تتوارثها الأجيال، الواحد تلو الآخر.. وسيلة لا تموت مع الزمان.. فكانت قوة الكلمات السبع!».

قال الملك غالب يسأله وحبات العرق تتجمع على جبينه:

«وهل... هل... هل لديك أي فكرة عن هذه الكلمات السبع يا يام؟!».

قال يام وهو يهز رأسه نفيا:

«كـ... كلا يا مولاي.. حزقيل لم يأمني على هذا السر الرهيب أبدا.. لقد استأثر به لنفسه باعتباره منحدرا من نسل كهنة حاران القدامى.. هو الوحيد الذي يعرف سر الكلمات السبع وحقيقتها...»..

قال الملك غالب يقاطعه وعيناه تشتعلان بالغضب:

«وما فائدتك لي إذًا أيها اليهودي اللئيم؟!».

قال يام وقد شحبت ملامحه وراح جسده النحيل يرتجف بقوة:

«قد لا أعلم ماهية الكلمات السبع يا مولاي، لكني أعرف خطة حزقيل.. وأعرف أيضا أنه يسعى لتحرير القوة الكامنة في قلب الدير بتقديم القربان البشري هناك!».

التقى حاجبا الملك غالب في تقطيبة عميقة وهو ينظر إلى يام.. ومرت لحظات من الصمت قبل أن يقول وهو ينهض من على عرشه:

«قربان بشري؟! هلا أوضحت أكثر يا يام».

قال يام وهو يهز رأسه بقوة:

«بالتأكيد يا مولاي.. بالتأكيد!».

قالت سدوم وقد بلغ انفعالها ذروته:

«لقد عثر حزقيل على القربان البشري.. الدم الملكي.. أليس كذلك يا كاهنة النار؟!».

قالت كاهنة النار وابتسامة واسعة تلوح على شفتيها:

«لقد قلت لكِ إن حزقيل يسير بخطى ثابتة نحو هدفه الأثير يا عزيزتي سدوم.. فما تظنين برأيك؟».

قالت سدوم وهي تفرك كفيها معًا بقوة:

«لا بد أن يكون الدم الملكي لأميرة عذراء يتيمة الأم يا كاهنة النار.. من في هذه الأرجاء يملك هذه المواصفات إلا شخص واحد.. بالأحرى أميرة واحدة؟!».

قالت كاهنة النار وابتسامتها تتسع:

«هذا صحيح.. الأميرة عالية ابنة الملك غالب.. هي من سيحتاج إليها حزقيل لتنشيط قوة الكلمات السبع في الدير السري».

قالت سدوم وهي تجز على أسنانها بقوة كادت تحطمها:

«أتريدين القول إن حزقيل وصل إلى الأميرة حقا؟!».

رفعت كاهنة النار يدها تنظر إلى أظافرها المطلية بلون أسود قبل أن تقول ناظرة إلى عيني سدوم:

«الأميرة في طريقها الآن إلى الدير السري يا سدوم؛ حيث ينتظر حزقيل بفارغ الصبر وعلى أحر من الجمر ليبدأ خطته نحو السيطرة المطلقة».

عاد الصمت يسود.. ولم يعد مسموعا إلا صوت عواء الرياح خارج خيمة سدوم.. وصوت أنفاسها تتردد لاهثة.. وكاهنة النار تتابعها.. وابتسامتها ثابتة على شفتيها.. وقد أدركت في قرارة نفسها أنها تسير بثبات نحو هدفها!! ويا له من هدف!!

* * *

وصل جهير إلى المكان المحدد.. كيف عرف أنه وصل؟ كيف عرف أنه المكان المحدد؟ أسئلة اقتحمت عقله وفرضت عليه نفسها دون أن يتوصل لإجابة محددة فحدث نفسه قائلا:

«لقد وصلت وكفى.. واللعنة على من يتساءل كيف».

وضع يده على أذنيه ليصمت ذلك العواء الرهيب الذي يتردد عبر الصحراء ويخترق تلافيف عقله عبر أذنيه بإصرار مخيف.. عواء لم يتوقف لحظة واحدة منذ بدأ رحلته الملعونة..

اخترق الوادي القديم ومشاعر مخيفة تسيطر على كيانه.. تدفق عرق غزير على وجهه على الرغم من برودة ليل الصحراء..

لا شيء إلا الظلام والمزيد من الظلام.. والعواء..

ذكريات زوجته وأبنائه تصليه العذاب.. عهده مع تلك العجوز الملعونة سدوم يخبره بأن الموت هو نهاية الرحلة..

وقد شارفت الرحلة بالفعل على الانتهاء..

تقدم أكثر والظلام يجثم على صدره.. ويغلف روحه..

ظلام ثقيل له وطأة وثقل وكأنه كيان مادي يحل محل الهواء والرمال والروح نفسها..

تقدم بخطوات وئيدة وجسده يرتجف مع العواء الذي بدأ يتعالى، حتى إنه فقد أعصابه وأخذ يبكي وينوح من دون دموع..

كان قلبه يخفق بشدة وعقله هناك مع زوجته.. لم يتخيل يوما أن يفقدها.. لقد ضحى بالكثير لتكون له.. لقد تخيل كل شيء إلا أن تصل التضحية لحرمانه منها..

تعالى العواء مع صوت ريح هائلة.. لكنه لم يُبالِ وتقدم بكل استسلام إلى قلب الوادي..

كم يعشق زوجته.. منذ وقع بصره عليها وهي لا تفارق مخيلته..

ترى ما القوة الهائلة الموجودة في ذلك الشيء السرمدي المسمى الحب؟

كيف لان قلبه الذي كان حجرا صلدا عند مرأى هذه الأنثى؟

وأين كان عقله عندما توجه لسدوم كاهنة بني عامر ليعقد معها عقد الدم؟ و...

فجأة تجمدت أفكاره وتجمد جسده والتصقت قدماه في الرمال مع انشطار الظلام وتردد العواء وانبثاق النار..

«آآآووووووووووووووو».

اتسعت عيناه عن آخرهما عندما سمع العواء يتردد من حوله، وفي جسده سرت رجفة قوية.. هذا العواء الرهيب.. إنها ليست أول مرة يسمعه فيها.. لقد سمعه من يومين.. من المستحيل أن يكون هذا واحدا من ذئاب الصحراء الجائعة.. إنه عواء يخص شيئا آخر أكثر شرا وخطورة، فأي شيء عساه يكون يا ترى؟!

فجأة هبت في وجهه ريح باردة.. ريح قوية ألقته على ظهره، فشعر بالألم يزداد في جسده.. وبكل شبر فيه يرتجف فرقا!

«آآآآآآووووووووووو.. لقد جئت إلى حتفك أيها البشري الفاني.. جئت إلى الموت بمحض إرادتك».

هز رأسه يمنة ويسرة، تفجرت الدموع من عينيه، وقال بصوت مبحوح:

«لم آت إلى هنا لأموت.. لم آت إلى هنا لأموت.. لقد جئت تبعا لمشيئة الآلهة».

ترددت من حوله ضحكة عالية، وتبعها صوت يقول:

«ما من بشري يأتي إلى هذا المكان ويطلب حياةً أيها البشري.. هنا أرض الموت.. هنا حيث اللاعودة، الفناء هو مصير كل من يطأ بقدمه هذه البقعة من الأرض، وبقدومك إلى هنا حكمت على نفسك بالموت!».

حاول أن يعتدل، لكن هبَّة أخرى من الرياح الباردة أجبرته على الاستلقاء على ظهره فوق الرمال الباردة، وجسده ينتفض بقوة!

«آآآآآووووووو.. استعد للموت أيها البشري!».

تجمد جهير للحظات شاب فيها شعره.. وهو يتخيل مصيره بين يدي هذا الجني المخيف..

تقدم منه الجني ببطء وكأنه يملك الوقت كله أو كأنه يريد أن يختبر قوة خصمه الذي أرسلته سدوم لقتله وري رمال الوادي القديم بدمائه..

نظر نحو جهير باحتقار شديد.. أودعه كل كراهيته وحقده على سدوم.. ثم قرر أن ينقض عليه.. ليتم مهمته وينال حريته ويحرر رقبته من تلك المشئومة سدوم..

اقترب أكثر وأكثر وجهير ينظر نحوه في عنف ويعبث في ملابسه وكأنه يبحث عن شيء ما..

ظل مستلقيا فوق الرمال التي لم تفقد حرارتها بعد.. وعيناه مثبتتان على وجه الجني دون أن ترمشا أو تهتزا..

تقدم الجني بهيئته الحقيقية البشعة وبقدميه المشعرتين القريبتين من أقدام الكلب.. وقد قرر أن يمزق جهير إربا..

انحنى فوقه وعينا جهير لا تطرفان.. وكشف عن أنياب حادة ومخالب.. في هذه اللحظة أغمض جهير عينيه وكأنه استسلم للموت وفي عقله دوت كلمات الكاهن الذي زاره قبل مقدمه:

«المسك والحلتيت المستخرج من شجرة الأنجدان.. هما سلاحك ضد عدوك».

نظر جهير بقلب واجف للكاهن ثم قال:

«وهل يقضي المسك والحلتيت عليه؟».

نظر الكاهن نحوه نظرة العالِم ثم قال بصوت عميق:

«لو كان من الجن العادي فالقضاء عليه أكيد.. لكنه لو كان ماردا أو عفريتا فإنه سيقيك شروره ولن يمكنه منك».

تناول جهير لفافة جلدية من الكاهن تم إغلاقها بإحكام وقال:

«ألن يشم رائحتها قبل استخدامها فيفر أو يصنع لي شركا؟».

هز الكاهن رأسه في قوة وقال:

«اللفافة الجلدية مشبعة بدهن خاص لا يسمح للروائح بتجاوزها».

قبض جهير على اللفافة بقوة وأودعها ثيابه ثم أخرج كيسا مليئا بالفضة وناوله للكاهن الذي وزنه بيده للحظة ثم ابتسم في جشع..

تلاشت الذكرى من رأس جهير بسرعة رهيبة وهو يفض اللفافة.. وتصاعدت رائحة المسك الذكية لتختلط برائحة الحلتيت الكريهة لينتفض الجني في قوة ويصرخ صرخة عظيمة ثم يندفع نحو الظلام ليتوارى بداخله، وفي اللحظة نفسها حدث شيء مذهل قلب كل مخططات جهير رأسا على عقب..

فغريزة الحياة بداخله هي ما دفعه لزيارة الكاهن.. وعلى الرغم من خوفه على زوجته وأطفاله فإنه قرر أن يجرب حظه.. وما دام ذاهبا لوادي الجن القديم فلا أقل من أن يتحصن ضدهم.. وهذا لا يخل بالعهد الذي قطعه.. فهو لم يعد سدوم بأي شيء أكثر من الذهاب..

لكن هذا الأمر لم يعجب سدوم التي تجسدت أمامه في هيئتها المنفرة التي يبدو بجوارها الشيطان كملاك رائع..

التمع الغضب في عينيها كبرق في سماء ليلة شتوية ونظرت نحو جهير بكراهية وقالت بصوت يقطر حقدا:

«ماذا فعلت أيها التعس؟ أي تفكير ملعون قادك لمثل هذه الأفعال؟».

نظر جهير نحوها في خوف عاتٍ والدموع تتساقط من عينيه دون أن يجيب وقد التصق بالرمال وهو يتضرع إلى الآلهة أن تخسف به الأرض.. ولكن أنى هي لتسمع وتعقل؟!

تقدمت منه سدوم في غضب عاتٍ وانتزعت منه اللفافة ثم لطمته على وجهه فشجت رأسه وقالت:

«لولا أني أتابع كل شيء بنفسي لأفسدت لي بحماقتك عمل سنوات وسنوات».

قالتها ثم ابتعدت باللفافة لمسافة كبيرة وجهير ملقًى على الأرض كبعير نافق.. ثم توقفت بعد فترة وقالت بصوت هادر: «عد يا ظام لتستكمل مهمتك.. عد لتنتقم ممن أذاك».

تجسد الجني هذه المرة أمام جهير ولم يُضِع وقته وانقض عليه ومزقه إربا ونثر عظامه في كل مكان دون أن تصدر عن جهير أدنى حركة..

سالت دماء جهير لتختلط بالرمال وتتسلل عبرها إلى أعماق الصحراء وهبطت في المكان المناسب لتكسر الطلسم القديم وتبدأ أيام اللعنة..

ابتسمت سدوم ابتسامة جزلة ثم تلاشت وذابت في العدم..

ومن مكان الدماء ظهر دخان كثيف صعد إلى السماء وبدأت سحابة داكنة تتكون في الأفق لتحجب القمر.

* * *

لم يكن مثلهم، لكنه منهم..
من صنعوه هم أنفسهم من صنعوهم..
هو يمتلك الحكمة.. وهم يمتلكون القوة..
معادلة صريحة.. فالقوة التي تُضاف إليها الحكمة تعني القوة المطلقة..
القوى التي تحرك الجبال وتجفف الأنهار وتحيل الأخضر إلى بوار وتبخر الماء وتجمد النار..
وقفوا جميعا تحت ضوء القمر..
اثنا عشر جنديا مدرعا شاكي السلاح..
انتصبوا وكأنهم جلاميد من صخر أو كتل من ظلام..
لم تعكس دروعهم ضوء القمر.. ولم يصدر عنهم صوت تنفس أو أي لمحة من الحياة..
اقترب منهم على صهوة جواده الأشهب ومن خلف لثامه أمرهم بالحفر بلغة لا مثيل لها..
وتعاون الجنود الاثنا عشر على الحفر في الرمال..
كم مر من الوقت؟
ربما دقائق وربما ساعات، ولكن أخيرا ظهر المراد..
وبقوة لا مثيل لها حمل الجنود التابوت الحجري ثم ساروا خلف الحصان وراكبه حتى ابتلعهم الظلام جميعا..
وفي هذه الأثناء وفي خيمتها جلست سدوم أمام الإناء الممتلئ بالدماء وغمست فيه تمثالا خشبيا لفارس يمتطي حصانه، ثم أغمضت عينيها وعلى وجهها ظهرت ابتسامة قبيحة.. ومن مكان خفي بقلب الخيمة انطلقت صرخة هائلة وكأنها لإنسان يحتضر..
فتحت سدوم عينيها ونظرت نحو الفراغ وقالت بصوت هادئ:
«قريبا يحين وقتك أيها الملعون».
ثم عادت تغمض عينيها وتستمع للصرخات وتنتشي بها وكأنها موسيقى عذبة..

* * *

«سهيل.. لقد اقتربنا كثيرا من وجهتنا».
قالها شعيب وهو يرفع عينين أطل منهما التوتر بلا حدود، وراح يراقب النجوم قليلا قبل أن يقول مشيرا بيده ناحية الجنوب:
«هناك.. مسيرة ساعة أو أقل ونصل إلى ذلك التل الذي حدده لنا حزقيل؛ حيث سنقابل من سيقودنا إلى ذلك المكان الذي ستبقى فيه الأميرة عالية».

ابتلع سهيل ريقه بصوت مسموع، ومد يده إلى مقبض خنجره وهو يقول:
«عماه.. قلبي يحدثني أننا نسير في طريق هلاكنا، و...»..
قال شعيب يقاطعه وقد اربدت ملامحه:
«كفى يا سهيل.. نحن لا ننفذ أوامر ذلك الساحر اليهودي.. لا تنسَ أننا هنا تنفيذا لأوامر الملك غالب بضرورة ذهاب ابنته إلى هذا المكان».
قال سهيل مقطبا:
«لكن يبدو لي أن الملك غالب واقع تحت سيطرة ذلك الساحر حزقيل يا عماه.. ألم تره يطلب منا أن نطيع أوامره دون نقاش؟».
قال شعيب وهو ينظر إلى تلك الراحلة التي تحمل فوق ظهرها هودج الأميرة عالية:
«من المؤكد أنها أوامر الملك غالب يا بن أخي.. هذا ليس من شأننا.. ما يهمني هو أن تصل الأميرة إلى الوجهة التي يريدها الملك وحزقيل.. وليكن بعدها ما يكون».
قالها ولكز جواده ليتراجع به نحو الهودج، فقال سهيل وهو يضيق عينيه وينظر إلى النجوم المتألقة في صفحة السماء:
«ما زلت مصرًّا يا عماه.. نحن نسير في طريق هلاكنا!».
«سمو الأميرة.. سنغادر القافلة بعد قليل».
قالها شعيب وهو يقف أمام هودج الأميرة؛ حيث أناخت الراحلة..
كانت القافلة تستعد لإقامة معسكرها قريبا من حدود تلك الواحة التي لاحت على البعد استعدادا لدخولها مع شروق الشمس.
وانشغل العبيد والجنود المصاحبون للقافلة من تدمر في التجهيز للمبيت من نصب للخيام وإعداد النار للشواء المعتاد كل ليلة.
وانقضت الساعات بطيئة.. ثقيلة.. الكل مشغول بالطعام والشراب والسمر..
وبعيدا عن الجميع.. وقريبا من خيمة الأميرة عالية كان شعيب وسهيل جالسين.. التوتر يعلو ملامحهما.. والقلق يعربد في نفس كليهما..
سهيل ينظر إلى الأرض.. يعبث بنصل خنجره في الرمال الباردة..
شعيب لا يفتأ ينظر إلى السماء ونجومها ينتظر الساعة الحاسمة.. عندما يخلد الجميع إلى النوم.. وينشغل الحراس وقد أثقلهم الشراب والطعام.. حينها سيأخذ الأميرة هو وسهيل ومعهما تلك الجارية السوداء آطام إلى ذلك التل لمقابلة مبعوث حزقيل.
«هل حان الوقت؟!».

«اطمئن.. المعلم حزقيل يعلم ما يفعله جيدا.. سيأتون في الموعد المحدد».

كانا واقفين عند منخفض التل الرملي الذي بدا في ظلام الليل موحشا جاثما يستعد للانقضاض على فريسته.

كلاهما ارتدى عباءة سوداء داكنة ذات غطاء رأس واسع أخفى ملامحهما تماما، و...

«لكن ذلك الدير السري.. من كان يتوقع هذا؟!».

قالها أحدهما بدهشة، فالتفت إليه الآخر وقال بصوت بارد:

«صه يا أحمق.. المعلم حزقيل حظر علينا أن نتحدث في هذا الأمر!».

قال الأول وقد توتر صوته:

«لكني لا أرى أحدا حولنا ليسمعنا يا...».

قال الثاني يقاطعه وهو يرفع يده:

«اصمت».

وبرشاقة انحنى على الأرض وألصق وجهه بالرمال، قبل أن يقول وآثار ابتسامة تلوح في صوته:

«هناك ثلاثة جياد تقترب.. أحدها يحمل الأميرة عالية والعزيزة آطام.. دعنا نهرع لاستقبالهم».

جدَّ الاثنان السير إلى جوادين واقفين غير بعيد، واعتلى كل واحد منهما صهوة جواده برشاقة قبل أن ينطلقا مبتعدين عن التل.

«رائع يا شعيب.. لقد أتيت في الموعد تماما».

قالها الثاني وهو يترجل عن جواده، فقال شعيب وهو يتبادل نظرة سريعة مع سهيل:

«نحن ننفذ أوامر الملك غالب والسيد حزقيل بالطبع».

ترجل الأول عن صهوة جواده، واتجه بخطوات وئيدة نحو شعيب وقال وهو يخلع غطاء رأسه:

«بالطبع يا شعيب.. نحن نعلم هذا جيدا».

اتسعت عينا شعيب عن آخرهما، واحتبست الأنفاس في صدر سهيل وهو ينظر إلى تلك الحسناء الواقفة أمامه وقد أضفى ضوء القمر على سحرها أضعافا مضاعفة، فبدت وكأنها تمثال مرمري ذو ابتسامة ساحرة تذيب القلوب، و...

«أنا سارة، وهذا هو يربال.. نحن هنا لنأخذكم مع سمو الأميرة عالية إلى حيث الأمان».

قالت الأميرة عالية وهي تنكمش في جلستها وراء آطام:

«إلى أين تريدان أخذي؟! أنا خائفة!».

اتسعت ابتسامة سارة وهي تقول:

«لا داعي للخوف يا سمو الأميرة.. كل شيء سيسير على خير ما يرام».

وللحظة التقت عيناها عيني آطام.. قبل أن تنظر إلى يربال وهزت رأسها إيجابا.. فرفع هذا الأخير يده.. ومرت لحظات قبل أن ينطلق سهم اخترق عنق شعيب لتفلت منه شهقة قوية ويسقط على الأرض مضرجا في دمائه، فاستل سهيل خنجره وهو يهتف:

«تبا.. ما الذي يحدث؟»..

بتر عبارته عندما قفزت سارة نحوه برشاقة وأمسكت يده وانتزعت الخنجر بقوة أذهلته، وقبل أن يحرك ساكنا كانت قد أغمدت الخنجر في صدره، فتأوه بشدة قبل أن يسقط على وجهه ودماؤه تسيل بغزارة على الرمال!!

وتطلعت سارة إلى جثتين بشبق عجيب قبل أن تقول ناظرة نحو آطام:

«مرحبا بعودتك يا آطام.. مر وقت طويل مذ رأيتك آخر مرة!».

قالت آطام وهي ترمقها بنظرة باردة:

«كان ذلك منذ سنوات طويلة يا سارة.. كنت حينها صبية في العاشرة من عمرك.. أما الآن فقد أصبحتِ فتاة ناضجة.. وقوية كذلك».

أما الأميرة عالية فلم تتمالك أعصابها بعد رؤية ما حدث، ولا مشهد الدماء وهي تغرق الرمال، ففقدت وعيها على الفور.. دون أن تعلم أن الساعات المقبلة ستحمل لها هولا لم تكن لتراه حتى في أكثر كوابيسها جموحا وشططا!!

* * *

كانت رمال الصحراء ممتدة أمامهما تحت ضوء القمر الفضي البارد عندما توقفت سدوم وقالت وهي تضيق عينيها:

«انتظري يا كاهنة النار».

التفتت إليها كاهنة النار وقالت وهي ترسم ابتسامة على شفتيها المطليتين بعناية:

«ماذا هناك يا سدوم؟».

لاذت سدوم بالصمت للحظات قبل أن تقول:

«لماذا ينبغي أن أثق بحسن نواياك الآن، وأنك حقا ترغبين في مساعدتي للتخلص من حزقيل؟!».

قالت كاهنة النار وابتسامتها تتسع:

«لأنك لا تملكين خيارا آخر يا كاهنة بني عامر.. أنت تريدين الوصول إلى القوة المطلقة قبل حزقيل.. وأنا أرغب في الانتقام منه ونيل حريتي.. إنها صفقة عادلة كما ترين.. أليس كذلك؟».

قالت سدوم وهي تحدجها بنظرات ملؤها الريبة:

«ربما يا كاهنة النار.. ربما».

تلاشت ابتسامة كاهنة النار وقالت وهي تميل للأمام قليلا:

«لا وقت نضيعه الآن يا سدوم.. الوقت يمضي بسرعة رهيبة.. الأميرة عالية ستكون في ذلك الدير السري في أي لحظة.. وحزقيل يستعد حتما للطقوس التي ستحرر تلك القوة التي ملكها كهنة حاران ودفنوها في قلب الدير.. فهل أنت مستعدة لمنحه هذه الفرصة الذهبية للتفوق عليك؟!».

ورقص قلب كاهنة النار وهي تقرأ الإجابة عن سؤالها جلية في عيني سدوم، و...

وفي اللحظة التالية اختفت كلتاهما مخلفتين وراءهما الرمال الممتدة إلى ما لا نهاية.. والرياح الباردة تعوي وتثيرها في الهواء!!

* * *

الدنيا تظلم من حوله..

البرودة تنهش جلده وتنفذ إلى عظامه وتبعث فيها آلاما رهيبة لا تُطاق، وعلى الرغم من هذا يشعر بدمائه الحارة تسيل من جسده، ومعها تتسلل روحه ببطء شديد.. أنت تموت يا سهيل.. تموت في هذا المكان البعيد من الصحراء.. بعد أن قمت بأعجب مهمة في حياتك!!

حاول أن يعتدل.. لكن مجرد المحاولة زادت من الألم.. وزادت من تدفق الدم من موضع الطعنة التي أسدتها إليه سارة على حين غرة، و...

وفجأة سمع وقع تلك الحوافر تقترب منه بسرعة.. حوافر بدت وكأنها لجواد يعدو فوق أرض صخرية صلبة..

وأحاط به ذلك الضوء الأزرق الباهت.. وبعث في نفسه سلاما عجيبا.. وطمأنينة يشعر بها لأول مرة في حياته..

ولدهشته الشديدة اختفى ألمه.. وتحولت البرودة التي تنهش جسده إلى دفء محبب.. وراح قلبه يخفق بقوة الحياة.. ورغبته في البقاء فيها مدة أطول، و...

وأخيرا فتح عينيه ليراه واقفا أمامه..

جواد أسود كالليل البهيم..

وعلى صهوته أغرب فارس رأته عيناه.. إن كان ينبغي أن يطلق عليه هذه الصفة..

كان يرتدي مسوحا جعلته أشبه بالرهبان.. وفي يده استقر منجل حصاد كبير التمع نصله الملتوي على نحو عجيب.. واختفت ملامحه تماما خلف تلك المسوح الداكنة.. وإن خرج من موضع

الوجه صوت عميق قوي يقول:
«اطمئن يا سهيل.. لم تحن ساعتك بعد.. لن تتلاشى في دوامة الموت.. ستبقى.. ستعيش.. القدر اختارك لتكون جنديا في الجيش الذي سيخوض آخر المعارك وأشرسها ضد لعنة الشفق الأسود!!».

* * *

«النذير يقترب.. إنه يسير في الطريق المرسوم من أجله منذ مئات السنين».
قالتها سيدة الجبل وهي تتطلع إلى الصندوق المعدني الصغير المستقر بين يديها.. وعيناها تتألقان ببريق عجيب..
سرت الرجفة في جسد بنامون، وابتلع ريقه بصعوبة وهو يقول متسائلا:
«هل.. هل..؟».
قالت تقاطعه وهي تنظر إليه:
«أنت تشعر بالخوف يا بنامون.. أليس كذلك؟!».
اتسعت عيناه وقال وهو يتراجع للوراء بضع خطوات قبل أن يتعثر على الأرض:
«ماذا تقولين يا سيدة الجبل؟!».
ارتسمت على شفتيها ابتسامة مخيفة وقالت وهي تقترب منه بسرعة مذهلة:
«لا تكذب عليَّ أيها البشري.. سيدة الجبل تستطيع أن تشم رائحة خوفك.. إنها قوية للغاية».
لاذ بنامون بالصمت وهو يرمقها بنظرات ذاهلة، في حين عادت هي تتطلع إلى الصندوق وهي تقول:
«ليس مهما.. ليس مهما على الإطلاق.. المعركة الكبرى باتت وشيكة للغاية.. ونذر الخراب تلوح في أفق أسود.. وفي الأيام المقبلة سيشهد البشر البداية الحقيقية».
وصمتت هنيهة قبل أن تقول مضيفة:
«بداية النهاية!!».

* * *

كانت كل ذرة في كيان حزقيل ترتجف من فرط الانفعال واللهفة وهو ينظر إلى جسد الأميرة عالية - فاقدة الوعي - المقيد إلى ذلك القائم الخشبي قريبا من حافة البئر العميقة في قلب الدير السري الذي بناه كهنة حاران منذ سنوات طويلة للغاية.. وتألقت عيناه وهو يمرر أنامله على عنق الأميرة الناعم.. والتفت إلى سارة ويربال وقال مبتسما:

«سارة.. يربال.. لقد أديتما خدمة جليلة لجماعة حاران هذه الليلة.. الآن لم يعد أمامنا إلا أن يصل يام مع الملك غالب إلى هنا.. حينذاك تكتمل أركان المرحلة الأولى من خطتنا الكبرى».

قالت سارة وهي تحني رأسها أمامه بإجلال:

«معلم حزقيل.. نحن دوما رهن إشارتك.. كل ما نريده هو رفعة أمتنا وعودتها إلى سابق مجدها الغابر منذ شق النبي موسى البحر لننجو من بطش فرعون مصر».

قال يربال وهو يتقدم للأمام قليلا:

«إنه تدبير قدري أن مصر التي شهدت خروج أمتنا وهروبها من الهوان هي المكان ذاته الذي سيشهد عودتها إلى القوة مرة أخرى».

أومأ حزقيل برأسه إيجابا قبل أن يقول:

«أجل.. في مصر ستكون بداية عودتنا إلى عرش السطوة والنفوذ بلا حدود.. هناك سنمتلك القوة المطلقة.. ولن يقف أي مخلوق في وجهنا أبدا.. مهما بلغت قوته.. ومهما علا شأنه.. كل ملوك الأرض سينحنون تحت أقدامنا.. نحن من ينبغي أن نكون أباطرة الناس أجمعين!».

قالها وعاد يتطلع إلى الأميرة فاقدة الوعي.. ومرت هنيهة من الصمت قبل أن تتنحنح آطام التي كانت واقفة في ركن قصي من المكان.. تأبى أن تشارك في الحديث.. وقبضة قاسية تعتصر قلبها بلا رحمة.. فالتفت إليها الثلاثة.. وتألقت عينا حزقيل.. وارتسمت على شفتيه ابتسامة كريهة قبل أن يختفي من مكانه بغتة ليعود للظهور أمام آطام التي جفلت وأفلتت منها شهقة مكتومة، و...

«آطام.. آطام.. لقد قمت بدورك على خير ما يرام.. لقد حافظت على حياة الأميرة عالية حتى هذه اللحظة».

قالها حزقيل وهو يمرر أنامله على وجنتها ليرتجف جسدها بقوة، وابتلعت ريقها بصعوبة قبل أن تقول:

«لا أريد أن تموت الأميرة يا معلم حزقيل.. أرجوك».

رفع حزقيل حاجبيه وخفضهما قبل أن تفلت منه ضحكة تردد صداها في تلك القاعة بالدير السري.. وعاد جسد آطام يرتجف.. وحزقيل يقول:

«آطام.. أنت تعلمين أن خطتي تعتمد على الأميرة بشكل كبير».

قالت آطام بلهفة:

«هل... هل...؟».

تجاهلها حزقيل.. وعاد يختفي من مكانه ليظهر أمام الأميرة.. وأسبل جفنيه.. وتحركت شفتاه تهمسان بكلمات لم تصل إلى مسامع أي واحد من الثلاثة: سارة.. يربال.. وآطام!! وأخيرا فتح عينيه.. وقال وهو يلهث بقوة:

«لقد اقترب يام كثيرا.. سارة.. استعدي مع الباقين.. الملك غالب لن يستسلم ليام بسهولة عندما يدرك الحقيقة».

أحنت سارة رأسها وقالت:

«السمع والطاعة معلم حزقيل».

قالتها وأسرعت تغادر القاعة بخطوات واسعة!

* * *

«هنا.. نهاية الرحلة».

لم يدر الملك غالب لماذا شعر بالتوتر والقلق يعصفان بنفسه عندما نطق اليهودي يام بهذه العبارة وهو يشير بيده النحيلة إلى أسوار الدير السري في قلب تلك البقعة الصحراوية.

امتدت يد الملك إلى مقبض سيفه وقال مضيقا عينيه:

«لقد مررت بهذه البقعة من الصحراء أكثر من مرة.. لكني أرى هذا الدير لأول مرة.. ومع ذلك يبدو لي وكأنه موجود من زمن طويل!».

ارتسمت على شفتي يام ابتسامة لم ترق للملك غالب وهو يقول:

«أنت لا تدرك مدى القوة التي بلغها كهنة حاران في الماضي يا مولاي.. لقد امتلكوا أسرار القوة التي لم يمتلكها أحد من قبل».

مط الملك غالب شفته السفلى وقال وهو يشد على مقبض سيفه:

«إلا سرا واحدا يا يام».

لاح التساؤل في عيني يام، فقال الملك غالب مكملا:

«الخلود.. لقد رحلوا جميعا ولم يبق منهم فرد على قيد الحياة.. فما فائدة القوة التي امتلكوها في الماضي؟!».

قال يام وهو يفرك كفيه معا:

«ما بالي أرى حديث الملك غامضا إلى هذه الدرجة؟ لا أحد في الدنيا يملك سر الخلود!».

قال الملك غالب وهو يستل سيفه ببطء:

«وما بالي أعجز عن الثقة بك أيها اليهودي؟!».

شعر يام بحلقه يجف بغتة.. وامتدت يده لا إراديا إلى خنجره المعلق في سرج جواده وهو يقول:

«مولاي.. لماذا تقول هذا؟ لقد أخبرتك بما ينتويه حزقيل نحو الأميرة عالية.. بل وقدتك إلى هذا

المكان الذي لا يعرف أحد بوجوده أبدا، و...».

قال الملك غالب وهو يترجل عن صهوة جواده، وبدا مهيبا وهو يتقدم إلى يام وسيفه مشهر أمامه: «هويتك وحدها تجعلني أشك فيك.. الخيانة.. أنا لا أثق بالخونة أبدا.. لكن هذا الوضع يختلف كثيرا.. لسنوات طويلة عرفت حزقيل.. كان مستشارا لأبي.. كان يثق به إلى درجة رهيبة.. وللحق كان أبي محقا فيما يفعل.. حزقيل ساحر أريب.. ويملك معرفة رهيبة.. لقد نجح في خداعي.. دفعني للحفاظ على حياة ابنتي إلى هذه الدرجة.. كان يعلم أنه سيكون بحاجة إليها يوما ما.. أو إلى دمها لو أردنا الدقة».

وأخذ نفسا عميقا ملأ به صدره قبل أن يقول مكملا:

«رجل كهذا خدع أقوى ملوك العرب هذه السنوات كلها.. أمن الممكن أن يخدعه أحد أتباعه ويخونه ويكشف عن سره إلى عدوه الأول؟! هل هذا معقول يا يام؟!».

بعكس ما كان يتوقع الملك غالب.. انفجر يام بالضحك.. واهتز جسده بقوة وكأن الملك ألقى دعابة للتو.. وأخيرا توقف عن الضحك وقال وعيناه تتألقان:

«رائع.. مثير.. وكأني أرى المعلم حزقيل يتحدث أمامي اللحظة أيها الملك غالب.. يا له من رجل غير عادي حقا.. لقد صدقت.. رجل كهذا من المستحيل خداعه.. ومن الحماقة خيانته لأي سبب!».

اشتعل الغضب في عيني الملك غالب، وقال وهو يقبض على سيفه بكلتا يديه:

«سحقا لك أنت وحزقيل أيها اليهودي القذر.. قدني إلى حيث ابنتي.. قدني وإلا أذقتك من العذاب ما لا تقدر على تخيله.. هيا، و...»..

بتر عبارته وتقلصت ملامحه في ألم شديد عندما اخترق سهم يده اليمنى.. وصفر آخر لينغرس في يده اليسرى، فأفلت السيف وهو يطلق صرخة متألمة!!

وعلى الفور.. ومن خلف التلال الرملية المنتشرة في كل مكان حوله.. ظهر أكثر من عشرين فارسا يرتدون عباءات سوداء واسعة بأغطية رأس أخفت ملامحهم تماما، وفي يد كل واحد منهم استقر قوس كبير، وعلى كتفه جعبة أسهم ممتلئة.

وتقدم أحدهم إلى الأمام.. ونزع غطاء الرأس لتبدو ملامح سارة الجميلة وهي تقول ملوحة بقوسها أمام وجه الملك غالب:

«لقد أخبرك يام أيها الملك غالب.. إنها نهاية الرحلة!».

* * *

تجمدت سدوم وكاهنة النار في مكانيهما عندما اهتزت الأرض بقوة رهيبة.. وعوت الرياح على نحو غير مسبوق على الإطلاق.. واختفى وجه القمر وراء غمامة شديدة السواد.. ومن ذلك الدير السري انبعث لسان من النار ارتفع إلى عنان السماء.. وترددت في الصحراء صرخة شخص يعاني ألما رهيبا.. تبعها عواء بدا وكأنه لألف ألف ذئب، على الأقل!!

تبادلت سدوم نظرة ملؤها التوتر مع كاهنة النار التي ابتلعت ريقها بصوت مسموع قبل أن تقول:

«سدوم.. يبدو أننا وصلنا متأخرتين.. لقد فعلها حزقيل!!».

قالت سدوم وهي تضيق عينيها وتضم كفيها معا وتقول بصوت ارتجف له جسد كاهنة النار:

«من هنا سأتولى أنا الأمر يا كاهنة النار.. اتبعيني!».

* * *

كان المشهد مخيفا.. ويبعث الرجفة في الجسد حقا..

تلك القاعة في قلب الدير تضيئها المشاعل المثبتة على الجدران الحجرية الخشنة..

بجوار البئر العميقة.. وإلى قائمين خشبيين رُبط كل من الملك غالب - الذي شغله ذهوله عن الألم المنبعث من يديه المصابتين - والأميرة عالية التي لم تستعد وعيها بعد..

في طرف بعيد وقف كل من يام وسارة ويربال وآطام ينظرون بأعين أطل منها الخوف والترقب لما سيحدث بعد قليل، وقد أصبح القربان البشري هنا.. في قلب الدير الذي بناه الأجداد..

أمام البئر.. وفي ثياب عجيبة من جلود الحيوانات.. وقف حزقيل.. وقد تألقت عيناه على نحو مخيف.. ومجنون..

في يده استقر خنجر ذو نصل ملتوٍ.. له مقبض من الذهب المتألق..

انفرجت شفتاه ليقول وهو ينظر في ظلام البئر الدامس:

«ماناس.. حيرن.. أهولو.. ميميت.. إيعحريم.. ماسانو.. أوكيانا.. يا سر الأجداد.. يا قوة الكلمات السبع.. لقد حانت اللحظة الحاسمة.. يا أيتها القوة الخالدة.. احضري إليَّ اليوم.. لقد حانت الساعة المنتظرة.. لقد تحقق الهدف الذي بنى الأجداد من أجله هذا المكان المقدس».

وببطء استدار إلى الملك غالب الذي بدا وجهه شاحبا.. واتسعت عيناه عن آخرهما وقد زالت عنه كبرياء الملك وعجرفته الكاذبة..

حزقيل يقترب منه وعيناه لا تفتآن تتألقان بذلك البريق المجنون، وشفتاه تنفرجان ليقول وهو يقرب النصل البارد من عنق الملك:

«الدم الملكي الأزرق.. الدم القوي.. الكثير منه سيسيل اليوم.. سيخترق قلب الظلمة الدامسة.. سيكون الارتواء الأول».

وبحركة مباغتة مرر نصل الخنجر على عنق الملك.. وأمام الأعين التي اتسعت في ذهول حرَّك يده.. وبدأ تيار الدم ينبثق من عنق الملك الذي غاضت ملامحه، وفقدت عيناه بريق الحياة.. وصار طوع بنان حزقيل ليتحرك في الهواء وكأنه كائن حي له كيانه المستقل.. ويصب في قلب البئر.. وبدا صوت التقائه بالقاع مثيرا للرجفة في الأبدان.

وعلى نحو مفاجئ.. اهتزت الأرض بقوة رهيبة.. ومن البئر انبعث دخان أسود ذو رائحة كريهة انتشر في المكان سريعا..

وفي شبق.. راح حزقيل يعب من هذا الدخان الأسود.. وجسده يهتز بقوة.. بعنف.. والعرق يتصبب غزيرا على وجهه والأجزاء العارية من جسده التي لم تغطها جلود الحيوانات!!

«والدم العذري.. من الجسد الحي.. ستكون الشعلة الأخيرة.. الجذوة التي ستنهض بعدها القوة الكامنة من مرقدها!!».

قالها حزقيل وهو يشق جرحا ضئيلا في ذراع الأميرة الغائبة عن الوعي.. وقرب النصل من البئر.. وتابع القطرات وهي تسقط تباعا وتغوص في ظلام البئر..

ومن قلبه المظلم.. انفجر لسان من النار.. وشق طريقه ليخترق سقف القاعة ويحطمه ليرتفع إلى عنان السماء..

وانهار الجميع على الأرض.. وذلك العواء ينطلق من قلب البئر.. والدخان الأسود الكريه يتكاثف.. ويتجمع.. حتى اتخذ تلك الهيئة الشيطانية المخيفة.. فتح حزقيل ذراعيه.. وضحك ملء فيه قبل أن يقول بصوت جهوري:

«تعالَي إليَّ أيتها القوة.. لتسكني جسدي البالي.. لتزيدي من صلابته.. امنحيني الخلود.. امنحيني السطوة الكاملة!».

وبسرعة رهيبة.. ارتفعت الهيئة الدخانية.. وانقضت على جسد حزقيل الذي تقلصت ملامحه في ألم رهيب.. وراح جسده يهتز بعنف غير عادي.. والدماء تتفجر من أنفه وأذنيه بغزارة.. انهار على ركبتيه.. أمسك برأسه بين يديه.. أغلق عينيه.. وانفرجت شفتاه.. ومن بينهما انطلقت صرخة رجل يعاني أشد الآلام في الدنيا!!

* * *

فجأة توقف الجنود الاثنا عشر وقائدهم.. وارتفعت أنظارهم صوب الأفق.. وساد صمت عميق لم يقطعه إلا صوت رياح صحراوية خجلى حركت بقدرتها الهزيلة بعض الرمال التي اصطدمت بالدروع المعدنية ثم سقطت في النهاية لتمتزج برمال الصحراء..

وعبر الأفق كان هناك لسان هائل من النار يخترق السماء.. لسان لا مثيل له.. وعلى الرغم من بعد المسافة فإنهم رأوه جميعا..

نظر قائدهم نحو النار وتألقت عيناه من خلف خوذته التي تخفي وجهه ثم أشار نحو الأفق إشارة ذات مغزى وعاد يسير عبر رمال الصحراء وخلفه جنوده الذين يحملون التابوت الحجري.. ليكملوا رحلتهم المجهولة عبر الصحراء..

* * *

ظلت صرخة حزقيل تتردد في جنبات تلك القاعة الحجرية في قلب الدير السري في الصحراء بعد أن تحررت تلك القوة الغاشمة التي دفنها كهنة حاران في قاع البئر منذ زمن بعيد وتملكت جسد حزقيل الضئيل.

واصلت الدماء تدفقها من أنفه وأذنيه بعض الوقت قبل أن تتوقف.. وبدأ ذلك السواد يكسو جسد حزقيل ببطء: ساقيه.. وسطه.. ذراعيه.. صدره، وأخيرا وجهه، وبدا بؤبؤ عينيه وقد اكتسى بلون أحمر باهت.

سرت رجفة في أجساد يام وسارة وآطام وهم يرون معلمهم وقد بدا أشبه بشيطان مريد بعد أن تملكته القوة.. لقد تبدلت هيئته تماما.. لم يعد ذلك الرجل العجوز ذو القامة المحنية.. لقد دبت قوة ونشاط عجيبان في كل حركاته.. وظهرت في ذراعيه عضلات قوية لم تكن لتعرف طريقها إلى هذا الجسد البالي من قبل أبدا!!

راح جسد آطام يرتجف بقوة، وضمت ذراعيها إلى جسدها، وحانت منها التفاتة إلى الأميرة ووالدها وهما مقيدان بالقرب من البئر.

كان الملك غالب قد فارق الحياة، وجحظت عيناه عن آخرهما، وواصلت الدماء تدفقها من عنقه المذبوح لتكون تلك البركة من الدماء أسفل قدميه، أما الأميرة عالية فقد راحت تتململ ببطء.. واهتز جفناها علامة على اقترابها من استعادة وعيها، فارتجفت شفتا آطام وهي تتمتم: «رحماك يا إلهي.. رحماك!!».

التفت إليها حزقيل وهو يطلق من حلقه فحيحا عجيبا، وتألقت عيناه، وفي لمح البصر كان قد تجسد أمام آطام، ومد كفه أمام وجهها، فصرخت وهي تشعر بجسدها يرتفع عن الأرض في

الهواء، واتسعت عيناها ذعرا وهلعا وهي تقول:

«معلم حزقيل.. الرحمة.. الرحمة!».

أطلق حزقيل ضحكة قوية.. رهيبة.. مجلجلة.. قبل أن يقول بصوت لا يمت لصوته الرفيع اللزج بأي صلة.. كان صوتا غليظا، مخيفا، بدا وكأنه آت من أعمق أعماق الجحيم:

«الرحمة؟! لماذا تطلبين الرحمة يا آطام؟! لقد قمت بأداء واجبك على أكمل وجه.. أليس هذا صحيحا؟!».

قالت آطام وهي تخفي وجهها بكفيها:

«معلمي.. لقد وعدتني أن الأميرة لن تموت.. ألـ... أليس كذلك؟ هل...؟»..

قاطعتها ضحكة أخرى من حزقيل قبل أن يحرك يده مرة أخرى ليدور جسدها ببطء في الهواء:

«يا لك من حمقاء يا آطام.. صحيح أنني لم أعد بحاجة إلى تلك الأميرة بعد الآن وقد امتلكت القوة التي دفنها كهنة حاران في الماضي.. لكن هل تظنين حقا أنني سأجعلها تحيا بعد اليوم؟! هاها.. هراء.. يا لك من بلهاء!!».

وردد كلمات بلغة مجهولة لم يفهم أحد منها شيئا.. وعلى أثرها راح جسد آطام يدور بسرعة أكبر.. وأكبر.. وأكبر.. وانطلقت صرخاتها تستجدي وتطلب الرحمة.. ولم يزد هذا حزقيل إلا جذلا واستمتاعا..

وأخيرا حرك حزقيل يده.. فتوقف جسد آطام عن الدوران.. واندفع بسرعة رهيبة ليصطدم بجدار بعيد.. وأفلتت منها شهقة قوية وجسدها يهوي على الأرض والدم ينزف من مؤخرة رأسها بغزارة.. وانتفض جسدها بقوة.. واتسعت عيناها بألم رهيب.. وتحشرج صوتها في حلقها.. وكأنها تريد أن تقول شيئا ما.. لكنها سكنت تماما.. وفارق بريق الحياة عينيها.. والدم يواصل انهماره من رأسها ليحيط بجسدها المحطم بلا رحمة!!

انهار يام وسارة على الأرض وقد شهدا قوة معلمهما الجديدة.. وراح جسداهما يرتجفان بقوة.. بخوف بالغ.. وقالت سارة والدموع تتفجر من عينيها:

«معلم حزقيل.. معلم حزقيل.. نحن تلاميذك المخلصون.. وأتباعك الأوفياء، و...»..

قال حزقيل وهو يلتفت إليهما بسرعة مذهلة ويمد يده نحوهما:

«كفى أيتها الحمقاء.. حزقيل لم يعد بحاجة إلى أي خدم أو أتباع بعد الآن.. لقد أصبحت الأقوى.. ولا شيء بقادر على أن يمنعني من بلوغ هدفي الذي سعيت وراءه سنوات طويلة!».

«ليس بهذه السهولة يا حزقيل.. ليس وسدوم على قيد الحياة!».

التفت حزقيل ببطء إلى مصدر الصوت.. وتراقصت ابتسامة مخيفة على شفتيه.. وتألقت عيناه ببريق أحمر مخيف وهو يحرك يده أمام وجهه ببطء، وانفرجت شفتاه ليقول:

«آه.. من أرى أمامي الآن؟ العدوة اللدود كاهنة بني عامر الكبرى.. سدوم العزيزة!!».
ورفع حاجبيه وقال وهو ينظر إلى كاهنة النار التي وقفت وراء سدوم وقد أحاطت بها هالة من نار متأججة:
«آه.. ومن أيضا؟! كاهنة النار العزيزة التي فضلت خيانة سيدها ومولاها حزقيل على البقاء إلى جانبه حتى يمتلك أسباب القوة التي ستجعله قادرا على السيطرة على مقاليد الأمور هناك.. في القبر المختار.. في مصر!».
ضمت كاهنة النار قبضتيها وقالت وهي تتقدم للأمام بضع خطوات:
«لم أعد خادمتك منذ الآن يا حزقيل.. لقد انتهت هذه الأيام.. لقد تحالفت مع سدوم.. وبعد أن نتخلص منك معًا سأنال حريتي التي سلبتها مني منذ سنوات بعيدة.. أتذكر ذلك اليوم أيها اليهودي اللعين؟! أتذكره؟!».
ضحك حزقيل ملء فيه قبل أن يقول وهو يسري في الهواء ببطء قاطعا جزءا من المسافة الفاصلة بينه وبين كاهنة النار وسدوم التي ضاقت عيناها وهي تشبك كفيها أمام صدرها:
«آه.. ما أذكره هو تلك الكاهنة التي نبذتها جماعتها بعد أن أحبت بشريا فانيا وأرادت التخلي عن قواها من أجله.. كاهنة أنقذتُ حياتها من موت محقق، بل وساعدتُها على الانتقام ممن قتلوا حبيبها.. تراك أنت من نسي يا إيريس.. أم تفضلين لقب كاهنة النار يا عزيزتي؟!».
جزت إيريس على أسنانها بقوة كادت تحطمها وقالت وهالة النار تزداد تأججا من حولها:
«كان ينبغي أن أفضل الموت على الانسياق وراءك يا حزقيل.. وكم كان الثمن الذي دفعته نظير تحقيق انتقامي من الجماعة باهظا.. والى أقصى الحدود.. يكفي أنك أجبرتني على المشاركة في مخططك اللعين تلك السنوات كلها.. فسحقا لك!».
قالتها وامتد من يدها لسان من النار اتخذ هيئة أفعوانية راحت تفتح فمها ولسانها يتراقص بسرعة خارجه، فضحك حزقيل قبل أن يقول ودخان أسود يتشكل حوله ببطء:
«لن تجدي ألاعيبك معي أبدا يا إيريس.. أنا الآن أشد قوة من السابق بمراحل كثيرة.. لقد تلبست روحي قوة لم يحلم بشري بامتلاكها.. قوة لا تفوقها إلا تلك القوة العظمى.. تلك القوة التي توشك أن تتحرر من مكمنها في القبر المختار في مصر!».
تردد صوت سدوم هادرا وهي تقول:
«لقد نسيتني يا حزقيل.. سدوم كاهنة بني عامر.. تلك أيضا قوة لا تمكن الاستهانة بها».
قال حزقيل وعيناه تتألقان بشدة والدخان يتحرك حوله فيما بدا أشبه بالدوامة:
«لعلك تقصدين عائلة الجن التي تسيطرين عليها.. أليس كذلك يا سدوم؟!».

قالت سدوم وهي تتقدم للأمام قليلا:

«لا تستهن بها أبدا يا حزقيل.. الجن مخلوقات تملك قوة مهولة.. وقوة كهنة حاران لن تصمد أمامها.. وربما هناك الأخطر».

هز حزقيل رأسه باستمتاع قبل أن يقول:

«لا بأس من التجربة إذًا.. لكن دعيني أولا أتخلص من بعض المتطفلين يا عزيزتي سدوم».

ونظر إلى كاهنة النار وهو يقول:

«الوداع يا إيريس.. لقد انتفت الحاجة إليك.. وإلى جحيم الحمقى ترحلين الآن.. وبلا رجعة!».

وقبل أن تتحرك كاهنة النار خطوة واحدة.. وقبل أن تطلق الأفعى النارية نحو حزقيل، أحاطت بها خيوط سوداء راحت تغزل حول جسدها شبكة محكمة لم تتأثر بالنيران المتأججة حول جسدها.. واتسعت عينا كاهنة النار.. وراحت تصرخ بكل قوتها محاولة الفكاك من هذه الشبكة المحكمة دون أي جدوى.

وراحت سدوم تتابع ما يحدث دون أن تحرك ساكنا لإنقاذ المرأة التي أتت إليها تطلب منها المساعدة.. وعرضت عليها التحالف ضد حزقيل..

كاهنة بني عامر الكبرى تريد أن ترى حدود قوة حزقيل في مواجهة خصم قوي ككاهنة النار..

انفرجت شفتا كاهنة النار لتقول:

«سـ... سد... سدوم.. أنقذيني!».

تراجعت سدوم للوراء قليلا دون أن تنبس ببنت شفة..

تألقت عينا حزقيل أكثر وأكثر.. وأخيرا قال:

«إلى الجحيم!».

وتفجر جسد كاهنة النار.. وتناثرت الأشلاء والدماء في كل مكان بالقاعة الواسعة.. ولم تهتز سدوم قيد أنملة عندما تلوث وجهها بدماء كاهنة النار..

«والآن يا سدوم.. لقد خلا لنا الجو».

قالها حزقيل وهو ينظر إليها وابتسامته تعاود الارتسام على شفتيه.. لكن سدوم قالت وهي تشير لسارة ويام:

«وهذان يا حزقيل.. لقد قتلت حليفتي.. أليس من حقي أن أرد هذا عليك؟!».

هز كتفيه وتألقت عيناه دون أن يجيب.. فزمجرت سدوم قبل أن تلتفت إلى سارة ويام، وصرخت في وجهيهما بعبارة غاضبة.. وعلى الفور اشتعلت النار في الجسدين.. وتفجرت الصرخات الرهيبة ترج المكان، وسدوم تتابع بعين الرضا جسدين يحترقان حتى التفحم..

«الآن.. تعادلت كفتانا يا حزقيل.. والبقاء في هذه المعركة سيكون للأكثر قوة!».
قالتها سدوم والهواء يتموج أمامها على نحو عجيب.. وراحت تلك الأشكال البشعة تتشكل لعائلة الجني ظام التي تسيطر عليها منذ عقود كثيرة..
إن معركة رهيبة توشك أن تندلع نارها في الدير السري..
معركة إثبات قوة.. معركة بين قطبين رهيبين..
معركة في سبيل امتلاك القوة الكاسحة.. هناك.. في القبر المختار..
في مصر!!

* * *

اهتزت الأرض بشدة وكاد معها بنامون يسقط على ظهره لولا أن سندته ذراع سيدة الجبل القوية، بل شديدة القوة.. ومع اعتداله شم شذى عطر يدير الرءوس يفوح من جسدها كثيف الشعر.. فكاد يصاب بدوار شديد وهو يقول بصوت مرتجف:
«ماذا يحدث يا سيدة الجبل؟ ماذا يحدث؟!».
حملته سيدة الجبل وأجلسته فوق مقعد صخري وكان - ويا للعجب - مريحا جدا.. قبل أن تبتعد عنه ليخف تأثير العطر الساحر وإن لم ينعدم أثره، وفي طريقها لعرشها قالت بصوت فاتن:
«الأمور تتبدل بسرعة رهيبة، والأحداث الجسام بدأت في الحدوث، والخطر الأعظم شارف على النهوض، وجنود الشر امتلكوا أسلحتهم».
هز بنامون رأسه في قوة وهو يحاول أن يخرج من حالة الافتتان الرهيبة التي يشعر بها نحو سيدة الجبل ذات الهيئة المنفرة، وقال بصوته الواهن:
«يا سيدتي.. الوقت يمضي ولم أعرف بعد ما يجب أن أفعله وما هي الخطوة المقبلة».
تردد صوتها الساحر في عقله، ما جعله يغمض عينيه، وارتجف جسده بشدة عندما وجدها أمامه ويداها تمتدان إلى رأسه فجفل للحظة ثم استسلم للمستها الدافئة وفي عقله يتردد السؤال:
«كيف تتحرك بهذه السرعة والخفة معا؟»..
ففي لحظة هي جالسة مسترخية فوق عرشها وفي اللحظة التالية واقفة أمامه.
بالطبع لم يغادر السؤال رأسه، لكنه مع لمستها شعر بصور ومشاهد تتدفق في عقله بطريقه تثير الجنون..
حاول أن يصرخ.. أن يبتعد عن يدها.. أن يموت دون أن يملك القدرة على أي فعل.. إلى أن

توقف كل شيء فأخذ يلهث وهو يتنفس بصعوبة ودموعه تهطل في غزارة.. فعلى الرغم من كل شيء هو شيخ عجوز، وهذا الانفعال كله لا يناسب شيخوخته..

فتح عينيه بصعوبة ونظر نحو سيدة الجبل وعقله يموج ويغلي كمرجل نسيه صاحبه فوق النار.. أراد أن يتحدث فلم يستطع، حاول أن ينظر لها فكانت الرؤية مشوشة.. استسلم أخيرا لوهنه.. وفقد الوعي..

وهناك رآها..

في عالم الحلم..

رآها كما تخيلها.. لا كما عرفها..

أميرة أسطورة تقف في قلب مكان شاهق البياض.. يمتد إلى مرمى البصر.. تتألق بداخله كلؤلؤة نادرة بقلب محارة..

تمد يديها نحوه في شوق.. يمد يديه نحوها في لهفة..

تلامست أيديهم فتلاشى كل شيء وبدأت رحلته عبر التاريخ وعبر الزمن..

وبدأ يعرف كل شيء..

وارتجف قلبه..

فها هي تقوده نحو الماضي والمجهول.. نحو اللحظة التي بدأ فيها كل شيء..

نحو المعرفة السوداء..

نحو أعماق الخطر..

نحو أرض اللعنة والموت..

نحو الشفق الأسود والمصير المظلم..

* * *

«مـ... من هذا أيها النذير؟!».

قالها نواس وهو ينظر إلى جسد سهيل الذي وضعه النذير أمامه.. ومرت لحظات من الصمت قبل أن يقول النذير بصوته العميق:

«اعتنِ به ريثما أعود يا نواس».

ابتلع نواس ريقه بصوت مسموع قبل أن يقول متسائلا:

«وإلى أين تذهب؟!».

شد النذير قامته.. ومرت لحظات من الصمت قبل أن يقول:

«هناك مهمة أخيرة قبل أن نرحل إلى مصر.. حيث ستشتعل نار المعركة الأخيرة يا نواس».
قالها واعتلى صهوة جواده بقفزة رشيقة.. وأمسك منجله بيمناه، في حين قبض على عنان جواده بيسراه ولكزه بقوة.. صهل الجواد.. رفع قائميه الأماميين قبل أن ينطلق مثيرا وراءه عاصفة من الرمال!!

* * *

لم يدرِ سهم سر تلك الرهبة التي أحس بها وهو واقف تحت أشعة الشمس الحارقة يتطلع إلى الأهرامات المهيبة على مدخل مصر ،وقد بلغها مع زهير أخيرا بعد رحلة طويلة!
وفي أعمق أعماقه تردد السؤال الذي لم يفارقه منذ فارق القافلة - أو من تبقَّى منها حيا - مع زهير مستكملين طريقهما إلى مصر..
ما الذي يخبئه لك القدر وقد بلغت هذا الحد من هذه الرحلة يا سهم؟!
لكنه كان واثقا من أنه سيظل سؤالا بلا إجابة..
أي إجابة على الإطلاق!!

* * *

«كان من الحكمة أن نعود أدراجنا يا عسير!!».
كان الاثنان واقفين غير بعيد عن سهم وزهير يتطلعان بدورهما إلى الأهرامات الشامخة تناطح عنان السماء وأشعة الشمس تنعكس على قممها المدببة فتتوهج ببريق ذهبي أخاذ.
قال عسير وهو يمد يده ليمسح العرق الغزير على جبهته:
«لقد بدأنا الطريق يا عمير.. ولا داعي لأن نتراجع الآن».
والتفت إلى صاحبه وقال مقطبا:
«ليس بعد ما رأيناه يا رجل.. الفضول سيقتلني لو كنا عدنا أدراجنا.. ولا تنسَ أبدا أننا قطعنا عهدا بالدم لسدوم أن نذهب إلى ذلك القبر في مصر لنحصل لها على ما تريد، و...»..
قال عمير يقاطعه والخوف يطل من عينيه:
«أشعر بأننا نسير نحو هلاكنا.. ويلك يا عسير.. ويل لنا مما هو آتٍ.. ويل لنا مما هو آتٍ»!!

* * *

المكان: مدينة صغيرة على شاطئ البحر المتوسط في مصر..
مدينة لا يتجاوز تعداد سكانها بضعة آلاف أغلبهم من الرومان سادة البلاد الجدد..
كانت الأمور تسير على وتيرة هادئة في المدينة منذ سنوات طويلة.. لكن لماذا يشعر الكاهن الأكبر لمعبد جوبتير في المدينة بأن الأمور اليوم تختلف عن كل الأيام السابقة؟!
كانت السماء صافية.. لا يعكر صفوها أي شيء.. والشمس متألقة في منتصفها تلقي بأشعتها الذهبية على مياه البحر البادية أمام عينيه وهو واقف على قمة المعبد في ثيابه الكهنوتية الفضفاضة، والقلق يطل من عينيه..
فجأة ودون سابق إنذار.. بدأ كل شيء..
السماء تلبدت بغيوم شديدة السواد لم يرَ الكاهن الأكبر لها مثيلا من قبل..
غيوم رهيبة نشرت على المدينة ظلاما حالكا.. وهبت في الأرجاء ريح شديدة البرودة، فراح جسده يرتجف بقوة، وانهار على ركبتيه وهو يقول:
«رحماك بنا يا جوبتير.. رحماك!!».
وأمام عينيه المذعورتين راحت أمواج البحر تثور وكأنها مارد غاضب تحرر من أسره..
ومن قلبها انبعث ضوء أحمر داكن..
وراحت الأمواج تعلو.. وتعلو..
وبسرعة رهيبة راحت تهاجم الشاطئ.. وبدلا من أن تنكسر على صخوره الحادة وتعود إلى قلب البحر من جديد.. تجاوزته على نحو يخالف الطبيعة!!
موجة.. تلو أخرى.. تلو أخرى..
ولم يمض وقت طويل حتى كانت المدينة الصغيرة قد غرقت تماما تحت مياه البحر الثائرة.. بكل مبانيها وقصورها ومعبدها الكبير!!
وفجأة.. انقشعت الغيوم السوداء.. وعادت السماء إلى زرقتها الصافية.. والشمس إلى تألقها..
وهدأت مياه البحر من جديد.. وقد يبدو للناظر أن شيئا لم يحدث منذ قليل قط..
ولكن لا أحد يعلم أن ما حدث في هذه المدينة ما هو إلا البداية فقط..
البداية لتلك اللعنة التي حان الوقت لتتحرر من مكمنها من جديد..
لعنة الشفق الأسود!!

* * *

اشتعلت نيران الغضب واستعرت في عين حزقيل وهو ينظر إلى أشلاء مساعديه التي تناثرت في

أرجاء المكان ولوَّثت أرضيته الحجرية وجدرانه.. وماجت خلاياه بغضب لا مثيل له وهو يتطلع إلى تلك الأشكال التي أخذت تتجسد في المكان.. لم تكن غضبته العاتية بسبب موت مساعديه المقربين، لكن بسبب تحدي سدوم له وانتهاك جنودها من الجن لحرم الدير السري.. فقد منحته قوة حاران قدرات هائلة جعلته ينظر لكل شخص آخر بعينين متعاليتين.. لقد جرؤت سدوم على تحديه وقتلت جنوده.. وها هي تستعين بالجن في محاولة للسيطرة عليه.. محاولة لن يسمح بنجاحها بأي حال من الأحوال.. محاولة تستحق العقاب..

استغرق التفكير منه لحظات معدودة مكنت أعوان سدوم من الجان من التجسد وإحاطتها كإحاطة السوار بالمعصم.. وعلى الرغم من مشاعر الغضب والقهر التي تملكتهم.. لنقض سدوم عهدها وإجبارهم على خوض معركة جديدة.. فإن غضبا يفوق غضب حزقيل قد اعتراهم عندما وقع بصرهم على جسد حزقيل الأسود الغارق في سحب الدخان السوداء.. وكان لغضبهم ما يبرره.. فمنذ زمن بعيد وفي تلك الحقبة السوداء التي امتلك فيها كهنة حاران قوتهم وبسطوا نفوذهم على مساحة هائلة من الصحراء.. اعترضهم الجان الذين كانوا يقطنون في وادي الجن الذي يطلق عليه وادي الجن القديم.. وفي نشوة كاهن حاران الأكبر بالقوة التي منحها لهم السحر الأسود.. قرر أن يطرد الجن من واديهم ويستولي عليه وعلى تلك الكنوز والخيرات التي ظلت مخبَّأة طوال سنين كبيرة في كهوف وادي الجن.. لم يكن هذا الأمر بالسهولة أو البساطة التي تمناها الكاهن اليهودي الأكبر.. لقد اشتعلت حرب شعواء لا مثيل لها..

استخدم كهنة حاران قوتهم وتحولوا لمخلوقات سوداء قاتلة كما تحول حزقيل وألقوا لعنتهم على الوادي القديم فأصبح محرما على الجان الذين استماتوا في دفاعهم عن واديهم وحياتهم.. استعانوا بقبائل الجن الأخرى.. ودارت رحى المعارك وتساقط المئات من جنود الجن وقتل ملكهم الأكبر في هجمة غادرة من كهنة حاران.. وكان لموت الملك أثره الكبير في تحويل دفة المعركة.. قلق الملوك على عروشهم وممالكهم.. فاستعانوا بقدراتهم الفائقة واستطاعوا القضاء على كهنة حاران.. عدا الكاهن الأكبر الذي تجمعت قوى الظلام جميعها لتمتزج في كيانه..

لم يستطع اتحادهم أن يقضي عليه أو يفنيه.. لكنه استطاع أن يحاصره ويجمده ويسيطر عليه بعد معركة هائلة مجدت في تاريخ الجن السري.. وتم حبس هذه القوة في الدير السري.. ولم تكن لتنهض من جديد إلا عندما حدثت الخيانة..

جني متمرد منح السر لساحر بشري في إطار اتفاقية بينهما للسيطرة على العالمين: عالما الجن والإنس.. حلم مستحيل يتجاوز ما يملكانه من قوة وعلم.. حافظ الجني على وعده وحنث به الساحر اليهودي.. وقتل ذلك الجني.. بعد أن أصلاه العذاب بعلومه السوداء.. ساحر يدعى

حزقيل..
لذا كان غضب ظام ومن معه عاتيا؛ فالعداوة بينهم تمتد منذ مئات السنين.. وهذا ما ساعد سدوم دون أن تدري أنها اختارت أفضل المعاونين في حربها ضد حزقيل.. هم معاونون يحملون داخلهم من الغضب ما يكفي لإحراق ألف حزقيل حيا..
وتلاقت النظرات وبدأت المعركة الهائلة.. المعركة التي تعتبر امتدادا لمعركة بدأت منذ مئات السنين.. واصطدم الغضب بالغضب والكراهية بالكراهية.. وكان الهول هو الوصف الهين لما حدث في الدقائق التالية بقلب الدير السري..
في هذه اللحظات الحاسمة تلخص تفكير حزقيل في أن يدمر أعوان سدوم من الجان في أسرع وقت قبل أن تستطيع سدوم اتخاذ خطوت أخرى؛ لذا فإنه قام بحركة مزدوجة..
سيطر على عقول من تبقي من رجاله ومعاونيه ودفعهم لمهاجمة سدوم في ضراوة.. ثم تلاشى ليظهر وسط عفاريت الجن الأربعة الذين فوجئوا بذلك الهجوم الغادر، وقبل أن يستعدوا له كان حزقيل يمزق أولهم.. بعد أن أحاطه بخيوط سوداء داكنة تسللت من بين يديه كخيوط عنكبوت أحاطت بضحيتها ثم مزقتها وسلبتها الحياة.. في اللحظة نفسها التي كانت سدوم تصارع أعوان حزقيل الذين تحولوا لوحوش ضارية.. حتى إن أحدهم أصاب سدوم في ذراعها اليسرى بنصل سيفه الذي عاد لينغمد في حلقه ليقضي في لحظة واحدة..
معركة ضارية دارت في قلب الدير السري.. في الوقت نفسه الذي كان فيه سهيل يتسلل بهدوء وخفة عبر نفق خاص دله عليه النذير.. الذي لا يستطيع ولوج الدير بسبب السحر القوي الذي نشره حزقيل لحمايته من السحر المضاد..
السحر الذي يمتزج بعلوم القدماء.. لتتشكل كينونة النذير..
عانى سهيل كثيرا وتمزقت ملابسه وهو يحاول أن يعبر النفق المهدم المليء بالصخور.. لم يعتَد على بذل مثل هذا المجهود المتواصل.. لكن إصراره كان حافزا إضافيا جعله يصمم على تنفيذ مهمته التي وكله بها النذير، ألا وهي إنقاذ الأميرة عالية..
استخدم خنجره أكثر من مرة في قتل بعض الزواحف والحيوانات القارضة.. التهبت أصابعه من كثرة ما حفر ليشق طريقه.. اختلطت أنفاسه بالغبار والرمال حتى كاد يقضي اختناقا.. لكنه واصل على الرغم من كل شيء.. بإرادة لم يتصور هو وجودها لديه.. فالشدائد بالفعل تُظهر معدن الرجال.. وكان معدنه طيبا..
اقترب سهيل من باب خشبي ضخم يسد نهاية الممر المظلم، وعندما اقترب منه لمسافة كافيه سمع ما جعل قلبه ينبض وشعر جسده يقف وكاد يفقد الوعي..

صرخات معاناة تمزق القلوب وكأنها نابعة من قلب الجحيم..
آهات ممتزجة بأصوات جلبة، وكأن هناك من يتعذب أو يتمزق جسده..
صوت سياط وهمهمات غاضبة مع أصوات تحطُّم وتمزُّق.. جعلته يحجم في البداية عن التطلع عبر ثقب الباب الخشبي الكبير.. الذي يغلق الممر ويفصله عن القاعة الهائلة التي تدور بداخلها رحى المعركة الغاشمة..
انقبض قلبه.. وجف حلقه.. لكنه استجمع إرادته وأجبر عينه على النظر عبر ثقب الباب وارتد إلى الخلف مصعوقا ليتعثر في صخرة متوسطة الحجم ويسقط على ظهره متألما وهو يردد في فزع: «رحماك أيتها الآلهة.. رحماك.. أي هول هذا؟!».
كان ما رآه شنيعا.. لا يمكن أن يصل الوصف لسرده.. وعلى الرغم من بشاعة ما رأى فإن فضوله اشتعل؛ فقام من سقطته واندفع نحو ثقب الباب.. وتجمدت عيناه على المشهد..
فسدوم التي فاجأها هجوم أتباع حزقيل كانت قد تجاوزت المفاجأة واستخدمت سحرها وقوتها في ردع هؤلاء الأتباع المتوحشين فقامت بالتقهقر بسرعة عجيبة غير متوقعة من جسدها العجوز وأخرجت من نطاقها كيسا قماشيا داكنا.. ثم قبضت بأصابعها على حفنة من مسحوق لامع ونثرتها في الهواء وهي تردد كلمات مبهمة بصوتها المنفر وسرعان ما التصق هذا المسحوق الذي تناثر على مهاجميها بوجوههم وملابسهم ثم تغلغل داخل بشرتهم والتهب..
في لحظة واحدة تحول أتباع حزقيل إلى كتل متراقصة من النيران وانطلقت صرخاتهم تصم الآذان وتلعن سدوم.. بالطبع لم يلتفت حزقيل لمعاناتهم ولم تقلقه صرخاتهم.. لقد كان في الجانب الآخر من الدير يقوم بحربه الخاصة ضد أعوان سدوم من الجن الذين ظهروا على صورهم الحقيقية المخيفة التي تكفي لزعزعة قلب أي كائن آخر غير حزقيل..
حزقيل الذي كان يقاتلهم بحماسة ألف شاب وبغرور يكفي شعوبا.. خاصة بعد أن امتلك تلك القوة الهائلة التي كانت لكهنة حاران..
لقد فاجأهم.. ومزق أولهم شر ممزق.. قبل حتى أن يدروا أنهم بينهم.. كانت قوة حاران تمنحه قوة وقدرات هائلة كان يكتشفها تباعا..
هاجمه الجن الغاضب بعد أن اشتعل غضبهم بمقتل رفيقهم الرابع، لكنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا منه نهائيا بسبب تلك الخيوط السوداء القاتلة التي كانت تجلدهم وتصليهم العذاب والتي تخرج من بين يديه وتتلوى كالأفاعي..
تسلطت عينا سهيل على عيني حزقيل المتسعتين في إثارة.. وهو يصلي ظام ورفاقه العذاب الشديد.. كان منظر الجن بالنسبة إليه مفزعا.. ولم يدرِ هو كيف لم يتوقف قلبه حتى الآن

اعتراضا على ما يراه.. ولم يجعله يفيق من غيبوبته إلا صوت النذير الذي أخذ يذكره بمهمته.. فجذب الباب ليفتحه ويتجمد من جديد عندما شاهد حزقيل يمزق جسد جني آخر أشلاء وسط صخب هادر وأبخرة خانقة، وما جعله يتراجع خوفا هو مشهد احتراق أتباع حزقيل وتصاعد رائحة الشعر واللحم المحترق..

حمي وطيس المعركة بين حزقيل والجن، وبدأت تتهاوى حوائط وتتفجر موائد ويتناثر الغبار مع الأبخرة والأدخنة في كل مكان وصوت النذير يحث سهيل على الاستمرار.. وقلب سهيل يعوي ووعيه يأبى أن يغادره ليستريح في دنيا الغيبوبة من هذه المشاهد التي تكاد تقتله رعبا.. أجبر قدميه على التقدم من عالية المصدومة مما يحدث أمامها.. وقطع بخنجره قيودها وجرها بحذر صوب الباب، لكن لسوء حظه لمحته سدوم وقررت أن تتدخل.. وبدأت تردد تعويذة قاتلة بصوت عالٍ حسبها حزقيل من أجله فأطاح بظام ورفيقه وانقض عليها لينجو سهيل وعالية مؤقتا..

شاهدت سدوم انقضاض حزقيل عليها فوجهت التعويذة نحوه فأصابته في جسده الذي لم يهتز لثانية، ولولا أن عاد ظام ورفيقه لمهاجمته لما نجت من قبضته.. فآثرت السلامة وتلاشت من الدير وتركت ظام لمصيره الأسود هو ورفيقه.. ولم يخيب حزقيل ظنها فمزقهما شر ممزق ثم وقف في قلب الغبار والرماد والأبخرة..

وقف شامخا سعيدا.. هائما في ملكوت قدراته الجديدة.. أغمض عينيه للحظات.. ثم عادت الخيوط السوداء لتلتحم بجسده.. وأطلق ضحكة ظافرة وتلاشى هو الآخر من المكان.. وساد صمت رهيب مشبع برائحة الموت..

وبداخل النفق سار سهيل عدة أمتار جاذبا خلفه الأميرة عالية.. ثم نفد مخزونه من الصمود فسقط أرضا ليظهر النذير أمامهم بعد أن تلاشى السحر بمغادرة حزقيل للدير.. وحمل الاثنين فوق كتفيه ثم تلاشى هو الآخر.. ليبدأ في إعدادات المعركة التي أوجد من أجلها.. ليمنع لعنة الشفق الأسود من النهوض من جديد..

* * *

تجسدت سدوم في خيمتها.. وعلى وجهها ملامح غضب رهيب.. لقد فقدت أعوانها من الجن وكادت تفقد حياتها ذاتها.. وصار عدوها الأزلي حزقيل قوةً لا تقهر.. وهذا يهدد كل ما خططت له بالفشل الذريع.. لا مناص من أن تقوم بترتيب أوراقها وتختفي لفترة في مكان مجهول.. فتلك القوة العاتية التي امتلكها حزقيل لن تصمد أمامها قوتها حتى لو استعانت بجنود الموت الثلاثة

عشر.. لا بديل عن حل جذري.. لكن في البداية لتتم انتقامها من زوجها الخائن كي لا يبقى وجوده شوكة في ظهرها بكل ما يعرفه عنها من معلومات.. ربما لم يكن هذا هو الوقت المحدد لتنهي عذابه وآلامه بعد أن خانها مرتين: مرة مع تلك الجارية الحبشية والأخرى مع حزقيل.. خيانته لا تستحق رحمتها به وتسليمه للموت بهذه السهولة..

لقد جعلها تتجرع الخيانة مرتين.. أهانها مرة كأنثى ومرة أخرى طعنها في ظهرها.. لقد أفسدت الخمر عقله، لكنه ليس مبررا مقبولا لديها.. إنها سدوم.. سدوم التي تحني عنق الجميع.. ولا يتجرأ أي منهم على رفع عينيه أمامها..

أطلقت البخور ورددت تعويذة ما.. فخرج من قلب الظلام قطيع من الذئاب أحاط بالخيمة وبقي خمسة منها متأهبة بداخل الخيمة..

ومع انتشار الذئاب في المكان شعرت ببعض الراحة.. وتنفست الصعداء وتطلعت بعينيها الضيقتين إلى الإناء الممتلئ بالدماء ووضعت كفيها بداخله وصمتت للحظات طويلة وكأنها ترسل رسالة بعقلها أو تتلقاها.. ثم ابتسمت.. فها هم الجنود الثلاثة عشر يقطعون الصحراء متجهين صوب مصر، وقد وصل بالفعل عسير وعمير وولدها سهم لقبر الفرعون والخطة ما زالت تسير إلى الأمام على الرغم من هزيمتها الأخيرة أمام حزقيل..

سرى الحماس بداخلها كنار متأججة وهدأت نفسها قليلا.. وظهر الحبور على وجهها المتغضن فأبعدت الإناء وأخذت شهيقا عميقا وأشارت نحو جانب من جوانب الخيمة فتلاشى وظهر زوجها المعلق كالذبيحة عاريا.. وقد بدأ يعاني سكرات الموت..

نظرت نحوه بغضب وفي داخلها دار صراع هائل.. فجزء من روحها يرفض أن يقتله والجزء الآخر يريد الانتقام.. قامت من مجلسها بصعوبة ووقفت أمامه تتطلع إلى عينيه المحتقنتين بالدماء.. وعلى وجهه منتوف الشعر ظهرت أبشع ملامح المعاناة..

اقتربت من وجهه وأراحته فوق كفيها.. وقالت بصوت هادر يشوبه بعض الضعف:

«هل أعجبك ما أوصلتك نفسك إليه؟! هل رأيت ما أوصلتك إليه الخمر؟ فاشل أنت كما هو نسلك.. لقد منحتني بذرة ضعيفة.. على الرغم من أني اخترتك من وسط الرجال.. ومنحتك ما لم يحلم به رجل آخر».

همهم بصوت ضعيف لم تسمعه فقربت أذنها منه وقالت:

«ماذا تقول؟!».

دوى صوته المكتوم كصاعقة في أذنها وقال:

«اخترتِني أنا ولكني لم أخترْكِ.. ولم أرغب بكِ لحظة واحدة.. اقتليني وأريحيني».

تركت رأسه ليعود إلى الخلف واشتعل الغضب في عينيها وقالت:
«أيها الحقير.. يا أبشع من خُلق.. أيها الخائن.. ليكن الموت جزاءك.. على الرغم ممَّا فيه من راحة.. لن يكون على وجه الأرض من لا يرغب في سدوم أو يقلل من شأنها كامرأة».
تراجعت إلى الخلف ثم أشارت للذئاب وقالت:
«مزقوه.. التهموه.. حتى العظام.. لا أريد أن يتبقى منه ما يكفي لدفنه».
وانقضت الذئاب.. وفي لحظات مزقته وشرعت في التهامه.. ومن عين سدوم هطلت دمعه وحيدة مسحتها وهي تقسم ألا يكون قلبها في يوم عائقا أمامها أو سببا لضعفها.. وعادت لتجلس وغرقت في تفكير عميق بلا حدود.. وقد احتلت صورة حزقيل كامل عقلها..

* * *

فجأة.. وجد بنامون نفسه ينطلق بقوة.. بسرعة.. ينطلق بلا حدود تمنعه أو قيود تحد من اختراقه لحاجزي المكان والزمان..
أمام عينيه المتسعتين في دهشة عارمة راحت عشرات.. بل مئات.. لا، بل آلاف الصور تتوالى بسرعة مذهلة.. ومع ذلك لم تفُته أي تفصيلة منها مهما بلغت دقتها!!
مشاهد لمعارك طاحنة.. وعواصف رهيبة.. وأسرار تتكشف له لأول مرة في حياته..
ولأول مرة يدرك بنامون كم هو الخطر الذي قد يتعرض له البشر إذا تحررت لعنة الشفق الأسود الرهيب والمخيف.. إلى أقصى حد ممكن!!
وأدرك أيضا أن هناك من يسعى بكل قوته من أجل التصدي لهذه اللعنة ومن يسعون لإيقاظها قبل فوات الأوان..
عرف أن اسمه النذير.. وأنه وُجد في هذه الدنيا بهدف واحد فقط: أن يكون موجودا عندما تتحقق النبوءة ويبدأ الصراع الدامي من أجل حيازة القوة المطلقة..
أفلتت من بنامون شهقة قوية.. وأغلق عينيه بقوة.. وراح قلبه يدق بجنون بين ضلوعه.. و...
وفجأة وجد نفسه جاثيا على ركبتيه في قصر سيدة الجبل التي تحركت نحوه بسرعتها الرهيبة ومالت عليه لتهمس في أذنه بصوتها العذب:
«هل رأيت يا بنامون؟».
هز رأسه ببطء قبل أن يقول بصوت واهن:
«رأيت يا سيدة الجبل».
شعر بأنفاسها الحارة على جانب عنقه وهي تقول:

«وهل علمت الحقيقة كاملة يا بنامون؟!».

سرت في جسد بنامون رجفة قوية.. وحانت منه التفاتة إلى سيدة الجبل.. ولم يدر لِمَ شعر بالخوف يدب في كل ذرة من كيانه أضعافا مضاعفة عندما لمح تلك الابتسامة على شفتيها.. ابتسامة راحت تتسع.. وتتسع!!

* * *

القوة بلا حدود..

النشوة.. الظفر.. الرغبة في إنهاء الأمر سريعا..

كلها مشاعر راحت تضطرم في نفس حزقيل وهو ينطلق بسرعة مذهلة فوق رمال الصحراء في طريقه إلى أرض المعركة النهائية.. إلى مصر..

لقد قطعت شوطا طويلا يا حزقيل.. أطول ممَّا يمكن تخيله حتى تبلغ هذه المرحلة من القوة والتفوق..

سنوات طويلة يعيك حصرها الآن.. عندما كنت لا تزال كاهنا شابا.. يملؤك الحماس لتتعلم كل أسرار حاران.. وتصبح كاهنا قويا وساحرا قديرا..

«حزقيل.. يوما ما سيكون لك شأن عظيم».

كانت كلمات المعلم الأكبر لحاران وهو جالس معه في الدير السري..

يومها تألقت عيناه ببريق شبق ولهفة، والمعلم الأكبر يقول مكملا:

«أجل.. اليوم سأنبئك بأهم الأسرار يا حزقيل.. السر الذي قامت جماعتنا في الأساس من أجل السعي إليه وتحقيقه.. اليوم ستعرف سر اللعنة والنبوءة القديمة!».

انفرجت شفتا حزقيل عن ابتسامة مخيفة عندما بلغت ذكرياته هذا الحد..

لقد مرت سنوات وسنوات.. انتهت جماعة حاران.. وكان هو الكاهن الوحيد الناجي من الموت.. هرب ليموت معه سر الدير القديم الذي بنته الجماعة في قلب الصحراء.. لكنه علم أنه لا ريب عائد من جديد..

عائد ليحرر القوة الرهيبة التي ستجعله قادرا على بلوغ الهدف الأعظم على الإطلاق!

«ما الذي جاء بك إلى هنا أيها البشري؟!».

كان لا يزال متوغلا في بحر الذكريات البعيدة.. إلى ذلك اليوم الذي وطئت فيه قدماه لأول مرة وادي الجن القديم..

«لقد جئت إليك خصيصا يا دهاس.. أنا حزقيل.. آخر كهنة حاران الباقين على قيد الحياة».

اندفع الجني بهيئته البشعة نحوه، وقرب وجهه منه وهو يقول بصوت مخيف:
«وهل جرؤت على القدوم هنا أيها اليهودي؟! إن جماعتكم ملعونة بعد أن قضي عليها، و...».
حينها قال حزقيل يقاطعه:
«كفى يا دهاس.. أنا وأنت نعلم أنك لا تحمل أي نية للقضاء عليَّ الآن.. هدفنا واحد.. أنا وأنت نريد أن نسيطر على العالمين: قوتك وعلومي السوداء ستكون السبيل إلى هذا».
تراجع الجني دهاس للوراء قليلا ومرت لحظات من الصمت قبل أن يقول بصوت منخفض:
«لو انكشف الستر ستكون عقوبتي الموت بأبشع الطرق».
ارتسمت على شفتي حزقيل ابتسامة ماكرة ومال نحو الجني ليقول بصوت بدا كفحيح الأفاعي:
«لا تخف.. ثق بي.. وأنا أؤكد لك أن كل شيء سيسير على خير ما يرام.. ثق بي يا دهاس.. القوة.. السيطرة.. هذا كله سيكون تحت أقدامنا لو اتحدنا من جديد.. فأنا أملك المعرفة وأنت تملك السر كاملا».
تألقت عينا حزقيل بقوة عندما بلغت ذكرياته هذا الحد البعيد..
كان ذلك اليوم هو البداية الحقيقية لكل شيء..
كان اليوم الذي تحالف فيه مع الجني المارق دهاس..
كان بحاجة إليه ليعرف السر كاملا..
سر القوة الرهيبة التي كمنت في قلب الدير بعد هزيمة كهنة حاران..
آخر سر.. الذي استأثر به المعلم الأكبر لنفسه..
لهذا كان بحاجة ماسة إلى الجن ليساعدوه.. فكانت ضالته في دهاس.. و...
«لقد خدعتني أيها البشري.. خدعتني وحنثت بوعدك!!».
صرخ بها دهاس وهو يتلوى في ألم.. وأمامه وقف حزقيل يصليه العذاب صنوفا وألوانا..
«وما الذي كنت تنتظره أيها الأحمق؟! الجن وحاران أعدى الأعداء.. هل كنت تتوقع مني أن أحافظ على الاتفاق الأحمق بيننا؟!».
رمقه دهاس بنظرة من نار.. ورفع يده نحو حزقيل، لكن هذا الأخير تحرك بسرعة وهو يتمتم بكلمات خافتة اشتعلت على أثرها النار في جسد الجني المارق دهاس.. ورفع حزقيل يده وخفضها بغتة.. فأطلق دهاس صرخة أخيرة اهتزت لها جوانب الدير السري في قلب الصحراء قبل أن يتمزق جسده إلى أشلاء صغيرة مشتعلة راحت نارها تخبو ببطء!!
تقدم نحو البئر القديمة.. مال على حاجزها.. تألقت عيناه بقوة.. وانفرجت شفتاه ليقول:
«من اليوم لن يقف في وجهي أي مخلوق على الإطلاق!!».
«مصر.. أخيرا!!».

قالها حزقيل وهو يتوقف مثيرا عاصفة محدودة من الرمال..
كان الظلام قد نشر عباءته السوداء على صفحة السماء..
وبهت بريق النجوم مع تألق ضوء القمر الفضي البارد..
ومن بعيد لاحت ثلاثة أهرامات كبيرة بدت كوحوش رابضة..
وعلى الرغم من شعوره الطاغي بالظفر والقوة.. فاته أن عدوته اللدود ومنافسه الأول على عرش القوة.. سدوم..
لها أتباع سيضربون ضربتهم هناك.. الليلة.. في قلب المقبرة الكبيرة.. مقبرة الفرعون..
في قلب الهرم الأكبر!!

* * *

عندما قام الجني ظام بتمزيق جسد هجير إربا وتناثر الدم في تلك البقعة من وادي الجن القديم.. تلبدت السماء بغيم داكن.. وهبت في الأجواء ريح شديدة السخونة.. وراحت الرمال تثور على نحو عجيب..
وتألقت عينا سدوم بقوة.. وشعرت بالدماء تتدفق بقوة في عروقها وهي ترى ما يحدث عندما سالت دماء هجير.. آخر من بقي حيا من نسل الكهنة الأتقياء الذين هزموا جنود الموت الثلاثة عشر منذ زمن بعيد..
ها هي اللحظة الحاسمة التي انتظرتها سنوات طويلة.. ها هو سبب آخر من أسباب القوة يخضع لها.. ويمهد الطريق نحو القوة المطلقة هناك.. في مصر..
إنها تعلم جيدا أن حزقيل، ذلك الساحر اليهودي، يسعى للهدف نفسه الذي تسعى إليه.. وتعلم أيضا أنه لن يتوانى عن امتلاك أي قوة تمنحه عليها تفوقا وسبقا.. لا بد أن تسرع.. لا بد أن تكون هي الفائزة في هذا السباق الرهيب.. والمخيف!!
أمام عينيها انبثق من الرمال ثلاثة عشر عمودا رمليا طارت في الهواء مثيرة حولها عاصفة محدودة.. وهبت الرياح الساخنة بعنف أكبر.. وشعر ظام بالذعر يملأ نفسه.. وبدا الرعب على هيئته البشعة، واتسعت عيناه عن آخرهما وهو يرى ما يحدث أمامه!!
أعمدة الرمال استقرت على الأرض أمام سدوم.. وحل محلها ثلاثة عشر جنديا شاكي السلاح.. تألقت دروعهم وأسلحتهم على نحو عجيب يخطف الأبصار.
انحنى جنود الموت أمام سدوم.. سيدتهم الجديدة التي نادتهم من باطن الأرض.. بعد أن مزجت كينونتهم بدماء آخر النسل.. الوسيلة التي اتخذها الكهنة الأتقياء لمنع عودتهم أصبحت

هي الطريقة الوحيدة لعودتهم إلى الأرض من جديد..
رفع أحدهم رأسه.. كانت ملامحه متآكلة على نحو بشع، وانفرجت شفتاه ليقول بصوت رهيب:
«لقد أعدتِنا إلى الحياة أيتها الكاهنة.. لكن قوتنا لن تكتمل إلا بقوة الفرعون العظيم».
هزت سدوم رأسها إيجابا.. وتألقت عيناها.. وافتر ثغرها عن ابتسامة جذلة وهي تقول:
«أعلم هذا جيدا.. يوما ما سأكون قادرة على بلوغ المقبرة العظيمة هناك.. في مصر.. سأحرص على جمعكم بسيدكم.. وقائدكم.. ولكن...».
بترت عبارتها وأخذت نفسا عميقا ملأت به صدرها قبل أن تشد قامتها وتقول بصوت آمر قوي:
«حتى يأتي هذا اليوم.. أنتم خدمي المخلصون.. وأتباعي الأوفياء.. وسلاح سري أمتلكه لوقت الحاجة الماسة.. فأقسموا يمين الولاء والطاعة أمامي الآن!».
وكانت البداية!!

* * *

شعر سهم بكل ذرة من كيانه ترتجف في مزيج من الخوف والرهبة والتوتر وهو يسير خلف زهير عبر ذلك الممر الصاعد في قلب الهرم الكبير.
كان الأخير يحمل مشعلا صغيرا تراقصت نيرانه على نحو مخيف، وبدا وجهه صورة قاتمة للغاية وهو يتقدم بخطى ثابتة في الممر.
«هل أنت واثق من طريقك هذا؟!».
قالها سهم بصوت تردد صداه في الممر الضيق، فقال زهير مضيقا عينيه دون أن يلتفت إليه:
«تتحدث وكأنك لا تعرف سبب قدومك إلى هذا المكان يا بن سدوم! عجبا!!».
قال سهم مقطبا:
«ما الذي تتحدث عنه بالضبط يا رجل؟!».
توقف زهير عن الصعود في الممر، واستدار يواجه سهم الذي توقف عن الصعود بغتة فكاد يسقط للوراء لولا أن تشبث بحافة الممر اليمنى البارزة للأعلى قليلا، و...
«عجيب أمرك.. فعلا عجيب يا بن سدوم!!».
قالها زهير وهو يحك ذقنه بسبابته، فازدرد سهم ريقه بصوت مسموع قبل أن يقول:
«لماذا تقول هذا؟ هل تعرف شيئا لا أعرفه؟!».
وتوترت لهجته كثيرا وهو يرى النظرة المطلة من عيني زهير:
«انطق يا رجل.. ما الذي تخفيه عني؟!».

أسبل زهير جفنيه، وأخذ نفسا عميقا من هواء الممر الرطب قبل أن تعود ذاكرته إلى اليوم الذي التقى فيه سدوم مع رماح عندما كان ذاهبا إلى تدمر للانتقام من حزقيل!!

* * *

«زهير.. إنها سدوم.. كاهنة بني عامر الكبرى!».

قالها رماح قبل أن يزدرد ريقه بصعوبة، فهز زهير رأسه إيجابا وهو ينظر إلى ما يحدث أمامه.. كانت سدوم واقفة أمامهما حافية القدمين فوق الرمال، وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة واسعة، وراحت عيناها تتألقان على نحو عجيب، وحولها التف قطيع من الذئاب راحت أعينها تتألق على نحو مخيف أثار الرجفة في جسدي الرجلين الواقفين أمامها.

«ما الذي تريدينه منا يا سدوم؟!».

قالها زهير وهو يتقدم للأمام بضع خطوات، وامتدت يد رماح إلى مقبض سيفه وهو ينظر إليها بشك وقلق.

قالت سدوم وهي تحرك أصابعها في الرمال ببطء:

«لقد كنت ذاهبا إلى تدمر تنشد الانتقام.. أليس كذلك يا زهير؟!».

تجهمت ملامح زهير وهو يقول:

«بلى.. سأقتل ذلك اليهودي القذر حزقيل.. حتى لو كان هذا آخر ما سأ...»..

قاطعته ضحكة سدوم قبل أن تقول:

«لا تكن سخيفا يا رجل.. من أنت حتى تتمكن من قتل ساحر قدير كحزقيل؟ إنه قادر على تمزيقك إربا قبل أن تمد إليه إصبعا واحدة بالأذى».

قال زهير وهو يقبض بقوة على مقبض سيفه:

«لتساعديني إذًا يا كاهنة بني عامر.. أنا أعلم عظيم قوتك وسلطانك في الصحراء.. امنحيني العون لأقتله وأحقق انتقامي منه».

هزت سدوم رأسها ببطء قبل أن تقول:

«والمقابل؟! ما الذي ستمنحني إياه عندما أساعدك في تحقيق انتقامك من حزقيل؟!».

شعر زهير بقلبه يدق بين ضلوعه بقوة أفزعته وهو يقول بصوت بحه الانفعال:

«أي شيء تطلبينه يا سدوم.. سأمنحك أي شيء».

ساد الصمت هنيهة قبل أن تقول سدوم وهي تتقدم للأمام قليلا:

«سأمنحك ما تريد يا زهير.. سأجعلك ترى حزقيل يذوق مرارة الهزيمة بأم عينيك.. سأكلفك بمهمة

لا أثق بأحد سواك للقيام بها.. لو نفذتها على أكمل وجه سترى انتقامك يتحقق من حزقيل».
قال رماح يسألها متوترا:
«أي مهمة تتحدثين عنها؟! زهير لا تستمع إليها، و...»..
قاطعه زهير بإشارة من يده، وقال ناظرا إلى سدوم:
«هاتي ما عندك.. كلي آذان مصغية».
تناولت سدوم من بين ثيابها قنينة صغيرة ألقتها في الهواء وهي تقول:
«التقط هذه أولا».
تحرك زهير بسرعة، والتقط القنينة قبل أن تهوي على الرمال، ونظر إلى السائل الداكن بها قبل أن يقول وحبات من العرق البارد تتجمع على جبهته:
«إنها دماء.. لكن...»..
قالت تقاطعه:
«لا تسأل يا زهير.. فلا إجابات ستُمنح لك في الوقت الحالي.. لكن عليك أن ترحل إلى مصر بهذه القنينة الصغيرة».
اتسعت عينا رماح عن آخرهما، في حين قال زهير وهو يعقد حاجبيه:
«مصر؟!».
أومأت سدوم برأسها إيجابا وقالت:
«أجل.. ستذهب إلى مصر.. ستحمل هذه القنينة إلى قلب الهرم الأكبر.. هناك ممر صاعد في الجهة الشرقية.. مدخله مخفي بصخرة ملساء عليها نقوش غائرة.. في نهاية الممر ستجد حجرة الدفن الملكية.. اسكب القنينة على التابوت الحجري الموجود فيها».
وصمتت لحظة قبل أن تقول مكملة:
«سيكون معك في هذه الرحلة ولدي سهم.. إنه لا يعرف أي شيء عن هذه المهمة.. لكن وجوده في حجرة الدفن في اللحظة التي ستسكب فيها الدماء على التابوت مهم للغاية فاحرص على هذا.. هل تفهم؟!».
لا إراديا ودون شعور وجد زهير نفسه يهز رأسه إيجابا وهو يقبض على القنينة بحرص.
«زهير.. لا تقبل هذه المهمة.. لا تفعل!».
قالها رماح بصوت هامس وهو يضع يده على كتف زهير الذي نظر إليه وقال:
«ستساعدني على نيل الثأر من اليهودي حزقيل.. لا بد أن أفعلها يا رماح.. ابقَ هنا لو شئت».
قال رماح وهو يهز رأسه بعنف:

«مستحيل.. لتلعني الآلهة جميعا لو تركتك تذهب وحدك في هذه الرحلة الملعونة!!».

* * *

«هيه.. لماذا أنت صامت؟!».

قالها سهم وهو يمد يده يهز كتف زهير، ففتح الأخير عينيه وقال:

«اسمعني جيدا.. لقد كذبت عليك يا بن سدوم».

قال سهم يسأله متعجبا:

«ماذا تقصد؟!».

مجيبا قال زهير:

«عندما نجونا من تلك المخلوقات العجيبة في الصحراء.. أخبرتك أنني لا أعلم لماذا أرسلتك أمك إلى مصر مع هذه القافلة الملعونة».

ازدرد سهم ريقه وقال وهو يومئ برأسه إيجابا:

«هذا صحيح.. لقد قلت لي هذا».

قال زهير وهو ينظر إلى عينيه مباشرة وقد منحهما ضوء المشعل بريقا خافتا:

«كلا.. لقد طلبت مني أمك أن أنفذ مهمتي هنا في قلب الهرم.. منحتني قنينة من الدماء لأسكبها على تابوت حجري في غرفة الدفن الملكية.. وكانت تريدك أن تكون موجودا في هذه اللحظة الحاسمة.. لا أدري لماذا.. لكن من المؤكد أن لوجودك أهمية في نجاح المهمة التي كلفتني بها أمك هنا في مصر».

ومع آخر كلمة نطق بها هوى عليهما صمت رهيب.. صمت له رائحة خانقة.. وثقل لا يطاق!!

* * *

«عمير وعسير.. من في الصحراء كلها لا يعرفكما؟!».

تبادل عمير وعسير نظرة تفوح بالقلق والتوتر وهما ينظران إلى سدوم وقد وقفت أمامهما وعلى وجهها أمارات الظفر والقوة، وإلى جانبها وقف ذئب ضخم راح يرمقهما بنظرات نارية مخيفة.

كان الاثنان قد غادرا خيمة اللهو منذ قليل والخمر تعبث بهما بعد أن بعثرا الكثير من الذهب تحت أقدام الغانيات وبين أقداح الخمر ليجدا سدوم أمامهما فيطير تأثير النشوة من رأسيهما، وتحل محلها التساؤلات والمخاوف.. فمن في الصحراء كلها لا يعرف سدوم، تلك الساحرة المخيفة التي تسخِّر عائلة من الجن السفلي لتحقيق أغراضها؟!

«مـ... مـ... ما الذي تريدينه منا؟!».

قالها عمير وهو يتراجع وراء جسد عسير الضخم، فقالت سدوم:

«أنتما سارقا قبور.. فما الذي سأطلبه منكما يا ترى؟!».

قال عسير يسألها:

«تريدين منا أن نسرق لك قبرا ما؟!».

هزت سدوم رأسها إيجابا قبل أن تقول:

«لكنه ليس قبرا عاديا يا عسير».

قال عسير وهو يتقدم للأمام بضع خطوات:

«أين هذا القبر يا كاهنة بني عامر؟!».

قالت سدوم وهي تفرك كفيها معا:

«هل أعتبر هذا موافقة على العمل لحسابي؟!».

قال عسير وهو يفرك كفيه بدوره:

«ولِمَ لا؟! إنه مجرد عمل آخر.. لم نقُم بأي سرقات منذ وقت طويل.. لقد مللت البقاء دون عمل هذا الوقت كله.. هاتي ما عندك».

مرت هنيهة من الصمت قبل أن تقول سدوم:

«القبر المراد يقع قريبا من الهرم الكبير عند مدخل مصر.. بالتحديد بين مخلبي ذلك التمثال العملاق لجسد أسد ورأس إنسان.. تُخفي مدخلَه لوحةٌ ضخمةٌ.. ستسرقان منه شيئا واحد فقط.. حلية من الذهب لن تجدا سواها هناك».

قال عمير وعيناه تتسعان:

«ماذا؟! قبر تمثال الأسد! مستحيل.. ألا تعلمين ما يشاع عن هذه المقبرة بالذات؟! لقد أصابك الجنون حتما يا امرأة؟!»..

مع آخر كلمة نطق بها عمير وجد جسده يطير في الهواء قبل أن يسقط بقوة على الرمال، وكل ذرة من جسده تصرخ ألما.

أما عسير فقد ارتجف جسده فرقا عندما وجد سدوم واقفة أمامه تماما، وعيناها تطلان عليه بنظرة مهولة، وجاء صوتها منذرا وهي تقول:

«والآن.. هل تقبل هذه المهمة يا عسير؟! رفضك سيكلفك حياتك.. وقبولك سيسبغ عليكما حمايتي ما دامت لكما الحياة على الأرض.. هيا يا عسير.. ما قولك؟!».

كان عسير يدرك تماما أنه لن يكون قادرا على رفض المهمة التي كلفته بها سدوم هو ورفيق عمره عمير!! لن يكون قادرا على الإطلاق!!

* * *

تلاشى القمر خلف غيمة داكنة.. وثارت الرياح غاضبة في صحراء الأهرام تواكبا مع موجه باردة أخذت تصفع كل شيء دون هوادة.. وكل شيء ينذر بليلة سوداء لا نهار لها..

الظلام يغمر كل شيء حتى تحولت الأهرامات إلى كتلة مصمتة من الظلام أقرب إلى شواهد القبور.. مما جعل المكان يبدو كمدينة للأشباح..

ومن قلب الظلام توهجت شعلتان بنيران متراقصة.. أخذتا تقتربان في حذر من ذلك الوحش الحجري الراقد في مكانه منذ عشرات القرون.. برأس الفرعون وجسد الأسد.. انعكس لهيب المشاعل على جسد أبي الهول وعلى وجهي عمير وعسير وهما يقتربان من ذلك الوحش الحجري الغافي في حذر وخوف..

رعب شديد تملكهما وهما يقتربان من معبد أبي الهول في طريقهما نحو القبر المتواري بين قائميه الممتدين فوق الرمال، فما مرا به لم يكن هينا ولم يكن طبيعيا بأي حال من الأحوال..

ومؤشرات الليلة كلها تدل على أنها ليلة حاسمة بقلب الأحداث وربما كانت الليلة الأخيرة في عمرهما كذلك..

وعلى الرغم من ذلك تقدم الاثنان يغلفهما الظلام.. يدق قلباهما كما لم يدقا من قبلُ.. ينخر البرد القارس في عظامهما ويدفعهما الخوف من عقاب سدوم إلى العمل.. غير مباليَين بموت قد يأتي فجأة.. فهو أهون بكثير من المصير الذي سيلقاه كل منهما على يد تلك الملعونة سدوم..

وصلا للمكان المحدد..

بين قائمي الوحش الحجري الغافي.. أنزل كل منهما ما تحمله راحلته وأخرج كل منهما معولا بدائيا وشرعا في الحفر.. وبعد عدة دقائق نظر كل منهما للآخر وقال عمير بصوت متشائم:

«هل تلاحظ ما ألاحظه يا عسير؟!».

توقف عسير عن الحفر ونظر نحو عمير واجما وقال:

«نعم ألاحظ يا عمير.. لكن ما الفرق الذي ستحدثه ملاحظتي؟ هيا بربك أكمل الحفر ودعنا ننتهِ من هذا الأمر الملعون».

ظهر التردد على عمير وهو يقول:

«لكن الرمال في هذه المنطقة مختلفة تماما عمَّا عهدناه.. ربما..».

اكتسى صوت عسير بالغضب والتوتر وهو يقول:

«لا يوجد ربما.. أمامنا عمل نكمله.. وما المخيف في أن كثافة الرمال هنا تبدو أقل؟ على كل حال فهي تسهل عملية الحفر».

صمت قليلا ثم استطرد قائلا:

«وربما كانت سدوم حولنا.. تساعدنا من أجل إنجاز المهمة.. عد الآن للعمل وبعد أن ننتهي سيكون أمامنا ما تبقى من العمر لنناقش الأمر».

لم يقنع الكلام عقل عمير، لكنه عاد على الرغم من ذلك إلى العمل والحفر والخوف بداخل قلبه يتعالى إلى مستويات غير مسبوقة وقد استسلم أخيرا لمصيره الأسود..

مر الوقت ثقيلا والحفرة تتسع وتتسع حتى اصطدم معول عسير بجسم معدني فتوقف عن الحفر وأشار لعمير بأن يوقف الحفر وأشعل كل منهما مشعلا إضافيا.. وعن طريق الخناجر أخذا يحفران حتى ظهر ذلك الصندوق الذهبي ولمعت نظرة جشع في عين كل منهما..

فتح عسير الصندوق ثم أخذا يتطلعان في ذهول إلى مفتاح الحياة الفرعوني الذي طفا في الهواء أمام أعينهما المذهولة في مشهد مهيب..

وما هي إلا لحظات حتى ثارت الرمال بعنف وحدثت فرقعة مخيفة.. وظهر الجنود الثلاثة عشر ليحيطوا بعسير وعمير اللذين أسقط في أيديهما وتيقنا من أن الدقائق التالية تحمل لهما الموت..

وفي اللحظة نفسها وبداخل الهرم الأكبر وقف كل من سهم وزهير يتنفسان بصعوبة.. وهما ينظران بخوف نحو ذلك التابوت الخشبي عجيب الشكل المدعم بالذهب الذي وُضع دون اهتمام بالقرب من أحد الجدران الصخرية.. المشاعل تهتز فتصنع ظلالا لا نهاية لها.. والهواء شحيح والصدور ضاقت من قلة الهواء..

اقترب الاثنان من التابوت في رعب وقلباهما يكادان ينخلعان من صدريهما، وعندما وقع لهب المشاعل فوق غطاء التابوت ارتجفا في هلع شديد..

ففوق غطاء التابوت كان هناك نحت دقيق لوجه مخيف.. بل مفزع.. تلمع عيناه في رسالة تحذيرية تحمل الموت.. رسالة وصلت إليهما كاملة.. وجمدت الدماء في عروقهما..

تجمد سهم في مكانه ثم انهارت أعصابه بسرعة وقرر أن يفر من ساعته.. لكن قبضة زهير على ذراعه في قوة ثبتته في مكانه وهو يقول بصوت ضارع:

«تماسك يا سهم.. ما هي إلا دقائق معدودة وينتهي كل شيء».

حاول سهم أن يجذب ذراعه من بين يدي زهير فلم يستطع فقال بصوت منكسر خائف:

«لن أحضر فتح هذا التابوت الملعون حتى لو كان الثمن حياتي».

شدد زهير من قبضته على ذراع سهم وقال بصوت متزعزع:

«ومن قال إننا سنفتحه؟ كل ما سأفعله هو أن أسكب فوق الوجه بعض قطرات من الزجاجة التي منحتني إياها والدتك الكاهنة الكبرى سدوم».

قالها وهو يضغط على الكلمات الأخيرة لتصل الرسالة إلى سهم فيخف توتر أعصابه ويقف ناظرا في استسلام نحو التابوت، ما جعل زهير يتركه ويخرج القنينة ويسكب ما بها من سائل فوق الوجه المخيف ليسود الصمت للحظات قبل أن يتحول المكان إلى جحيم حي..

انفجر التابوت في عنف لتتناثر أشلاؤه في كل مكان ليتمزق جسد زهير إربا في لحظة واحدة وتتناثر أشلاؤه مع أشلاء التابوت في كل مكان..

وقف سهم مصدوما مفزوعا وسط الفوضى التي ضربت أطنابها في كل مكان، وقد ضاق صدره واضطربت أنفاسه.. والعجيب أنه لم يصَب بأي شيء..

اتسعت عيناه في ذهول وسال خيط من اللعاب فوق شفتيه وظهر جليا أنه فقد عقله أو أوشك بعد أن شاهد انفجار التابوت وما تبعه من تمزق جسد زهير..

ثم شهق.. وألقى بجسده فوق الأرض وكأنما أصابه الصرع..

أخذ يزوم ويصرخ وينتفض.. وعقله يكاد يجن وهو يشعر بذلك الشيء الذي يتسلل بداخله..

تجمعت جميع انفعالاته في صرخة مدوية أطلقها قبل أن يفقد الوعي:

«أماااه.. النجدة يا أماااه».

ثم أظلمت الدنيا من حوله وفقد الوعي..

* * *

تألقت عينا سيدة الجبل، وشدت بقوة على مسندي عرشها الصخري في الجبل، وتعلقت عيناها بالصندوق الصغير الكامن في حجرها، وبلل بنامون القريب منها شفتيه بلسانه قبل أن يجد في نفسه القدرة على سؤالها:

«مـ... ما الذي حدث يا سيدة الجبل؟!».

قامت سيدة الجبل واقفة، عبثت نسمات باردة بذلك الشعر الكثيف الذي يغطي جسدها كله، وقالت وهي تنظر نحو بنامون:

«النذير أتم النصف الأول من مهمته يا بنامون».

قال بنامون وعيناه تتسعان عن آخرهما:

«النصف الأول؟! ماذا تقصدين بالضبط؟!».

زفرت سيدة الجبل قبل أن تقول:

«تذكر ما رأيته يا بنامون.. ما رأيته.. لقد أنقذ النذير القربان البشري.. لكنه لم ينجح في منع حزقيل من استحضار قوة حاران الكامنة في قلب ذلك الدير السري.. ولكن لا بأس.. لدينا

الصندوق.. إنه سلاح كاف لمواجهة الشر الأكبر عندما تحين الساعة الحاسمة».

خفق قلب بنامون بقوة بين ضلوعه وهو يقول:

«ما الذي يحويه الصندوق بالضبط؟! أي سلاح تقصدين؟!».

قالت سيدة الجبل ملوحة بيدها:

«فيما بعد يا بنامون.. فيما بعد.. علينا الآن أن ننطلق إلى المكان الذي سنلتقي فيه النذير.. إلى أرض المعركة الأخيرة!».

ولم يجد بنامون مفرا - وقد رآها تندفع بسرعة مذهلة نحو مخرج الكهف - إلا أن يلحقها وهو يبتهل في أعماقه أن تنتهي هذه الأمور كلها على خير!!

* * *

شعر سهم بجسده ينتفض بقوة لم يعهدها من قبل أبدا..

ومن أنفه وفمه راحت دماؤه تنزف بغزارة وكل شبر في جسده ينتفض ألما وهو راقد على الأرض في حجرة الدفن بقلب الهرم؛ حيث انفجر التابوت المنشود بمجرد أن لامسته الدماء من تلك القنينة التي كان يحملها زهير..

وبين الفوضى التي عمت المكان تجسد ثلاثة عشر جنديا مدججا بالسلاح.. وأحدهم يحمل حلية ذهبية تمثل مفتاح الحياة المصري وقد لوثته الدماء.. دماء نعرف أنها كانت لشخصين قدما من الصحراء من أجل مهمة واحدة.. شخصين نعرفهما باسم عمير وعسير!!

وفجأة هبت ريح ساخنة، فالتفت الجنود ليروا سدوم وقد تجسدت أمامهم وعيناها تشتعلان ببريق ملتهب وكأنه النار، وإلى جوارها وقف ذلك الذئب الضخم والزبد يسيل من فمه على الأرض، وأنيابه تلتمع على نحو مخيف.

تجمد المشهد للحظات، قبل أن تقول سدوم وهي تلوح بقبضتها أمام وجهها:

«لقد ساعدتكم على تحرير الفرعون المقدس يا جنود الموت.. الدماء التي يحتاج إليها ليعود إلى هيئته البشرية منحتكم إياها من عروق ابني الراقد أمامكم الآن.. ومفتاح الحياة الذي سيعيد إليه قوته التي سلبها منه الكهنة الأتقياء في الماضي بين أيديكم الآن.. فأعلنوا أنكم منذ اللحظة ستعملون على تنفيذ مشيئتي!».

نظر إليها الجنود الثلاثة عشر قليلا قبل أن ينتزع اهتمامهم ذلك الأنين المزدوج..

أنين سهم وقد شحب وجهه على نحو عجيب..

وأنين من ذلك الجسد المتداعي الذي شكلته دماء سهم النازفة.. وأمام الأعين الشاخصة راح

يتخذ هيئة بشرية بسرعة رهيبة.. وعلى الفور بدأت ملامح الفرعون التي كانت محفورة على التابوت تظهر تدريجيا على الجسد الجديد.. وراحت درع قوية تتشكل من العدم لتحيط به، ومن الفراغ ظهر سيف رهيب استقر في قبضته، وانفرجت الشفتان الغليظتان لتنطلق صرخة رهيبة اهتزت لها حجرة الدفن وتردد صداها في أنحاء الهرم الكبير..

ببطء تقدم حامل المفتاح من الفرعون العائد من سباته الطويل..

جثا على ركبتيه.. رفع المفتاح الذهبي الملوث بالدماء أمام وجه الفرعون وهو يقول بإجلال وتعظيم:

«مولاي.. تسلم مفتاح قوتك التي لن تُقهر بعد اليوم!».

اشتعلت عينا الفرعون العائد ببريق مخيف وهو يقبض بقوة على الجزء الأفقي من المفتاح الذي تألق ببريق مبهر ما إن لامس يده، وخرج صوته عميقا وكأنه آت من أغوار سحيقة للغاية:

«لقد.. عادت.. قوتي!!».

وفي اللحظة ذاتها أطلقت سدوم ضحكة ظافرة قبل أن تقول:

«الآن.. لن تقف في طريقي إلى القوة المطلقة يا حزقيل!!».

قالتها وهي تسير خلف الجنود وقائدهم العائد خارج حجرة الدفن متجاهلة ولدها سهم الذي رفع يده نحوها وهو يقول بصوت واهن بلغها دون شك:

«أمـ.. أماه.. لا تتركيني!!».

* * *

إنها النهاية حتما..

هكذا فكر سهم ووعيه ينسحب منه ببطء في حجرة الدفن الملكية بالهرم الكبير وقد شهد طقوس عودة الفرعون قائد جنود الموت الذين سخرتهم أمه سدوم جميعا من أجل خدمتها وتحقيق غرض ما زال عنه خافيا حتى اللحظة!!

جسده يئن من فرط الألم.. وأطرافه واهنة.. وأنفاسه ضعيفة.. والبقايا من دمائه التي أسهمت في الطقوس لا تزال تلوث الأرض الحجرية..

والظلام يحيط به من كل ناحية يكاد يغشي بصره.. وللأبد..

من عينيه طفرت الدموع.. وبغزارة.. دموع الألم.. والقهر.. والمرارة!!

فأي ذنب جناه لينال هذه النهاية الرهيبة يا ترى؟!

أهو عقاب عادل من الآلهة التي كان دوما مقصرا في أداء واجباته نحوها؟!

هل يستحق هذا العقاب القاسي حقا، أم هي اللعنة التي وُلد بها كونه ابنا لتلك المرأة الرهيبة سدوم؟! ابنها؟! أهو ابنها فعلا؟! هل من المعقول أن تسوق أمٌّ وحيدها وفلذة كبدها إلى هذا المصير بمحض إرادتها؟!

أي شيطانة تلك التي شاءت لك الأقدار أن تغادر رحمها ذات يوم يا سهم؟! أي شيطانة؟!

رفع رأسه عن الأرض بصعوبة بالغة، وبآخر قوة بقيت في جسده وجد نفسه يصرخ:

«شيطانة.. شيطانة.. عليك اللعنة.. عليك اللعنة!».

مع آخر كلمة نطق بها اخترق الحجرة ضوء أزرق مبهر أحاط بكل شيء في لحظات معدودة.. وأفلتت من سهم شهقة قوية عندما رآه واقفا أمامه متسربلا في مسوح الكهنة وذلك المنجل مستقر في يده.. هو.. بلا ملامح.. وبلا أي هوية يعرفها.. وعن يمينه ويساره وقف الثلاثة وقد أحاط بهم الضوء الأزرق: الأميرة عالية في ثوب حرب يراه لأول مرة في حياته.. سهيل في زي مشابه ومقبض سيف متألق يبدو وراء ظهره.. ونواس في زي ثالث ورمح يستقر بيمناه، ودرع عجيبة في يسراه..

«سهم.. سهم.. لقد جئنا قبل أن تفر منك قطرات حياتك.. ستعيش يا سهم.. أنت الوحيد القادر على حمل الصندوق المقدس.. لك وحدك ستنكشف أسراره.. حيث يكمن السلاح القادر على هزيمة لعنة الشفق الأسود.. وللأبد!!».

ساد الصمت قليلا بعد هذه العبارة التي سمعها سهم تتغلغل في كيانه وتسري في عروقه مسرى الدم قبل أن يتقدم النذير في مسوح الرهبان للأمام قليلا وامتدت يده المختفية في قفازه المعدني وهو يقول بصوت بلا وجه:

«لكن قبل أن تأخذ مكانك قائدا لهذه المجموعة، لنواة جيش الخلاص، لا بد أن تعرف ما عرفوه.. لا بد أن تعلم القصة بكل تفاصيلها المتشابكة.. والتي توغل في أزمان قديمة قد لا يعرف عنها بشري أي شيء عندما ينتهي كل شيء!!».

* * *

البداية..

كانت هنا..

في أرض مصر.. عندما بُلي الناس بملك ظالم ورهيب أطلق على نفسه لقب الفرعون الأوحد.. ملك الأرض كلها دون منازع..

كان الناس يظنونها مجرد كلمات جوفاء من طاغية جديد جلس على عرش هذه البلاد القوية

والعريقة كأي طاغية آخر.

لكن الحقيقة كانت رهيبة.. وإلى أقصى حد ممكن تخيله على الإطلاق، فهذا الفرعون الطاغية بوسيلة ما لا يعرفها ولن يعرفها أحد التقى ساحرا من بلاد بعيدة.. جزيرة ضخمة في قلب المحيط الكبير اشتهرت بقوتها، وعظم ما وصلت إليه من آفاق القوة والنفوذ.. ومنه عرف بأمر لعنة الشفق الأسود وحقيقة اقتراب قيامها هنا في مصر ومن قبر واحد من كهنة تلك الأرض البعيدة الذي تم دفنه هنا نزولا على رغبة منه عندما وافته المنية في زيارة لأرض مصر.. هناك.. في واحة نبتا.. يوجد القبر المنشود.

علم الفرعون الطاغية أنه لا بد له من أتباع مخلصين يحفظون هذا السر معه.. ويكونون قادرين على مواصلة الطريق لو أصابه مكروه أو عطل سير خطته أي شيء.. هكذا أخبره الساحر من الأرض البعيدة، وهكذا دله على ثلاثة عشر تابعا سماهم جنود الموت.. وهكذا منحه مفتاح الحياة الذهبي الذي منحه قوة لا مثيل لها على الإطلاق!!

وكانت بداية عهد رهيب روَّع فيه الفرعونُ وجنودُ الموت الناسَ انتظارا لقيام لعنة الشفق الأسود!!

لهذا أدرك الكهنة الأتقياء هول ما يحدث.. وفظاعة ما قد يحل بالناس، ليس في مصر وحدها، بل في الأرض كلها لو قامت اللعنة!!

الكهنة الأتقياء هم أيضا ينتسبون إلى تلك الأرض البعيدة، لكنهم فروا منها بعد أن ملت أرواحهم النقية كمَّ الشر الرهيب الكامن في هذه الأرض، ففضلوا أن يجوبوا صحاري الأرض وبحارها دفاعا عن الخير والحق وقيم العدل والتسامح، ومقاومة أي وجود للشر، ووأد أي رغبة في عودة اللعنة في مهدها قبل أن تستفحل!!

كانوا يعلمون أنهم لن يقدروا على مواجهة تلك الشرور كلها وحدهم..

كانوا يعلمون أن الفرعون وجنود الموت ليسوا الجهة الوحيدة التي تسعى حثيثا لتحرير لعنة الشفق الأسود..

كانوا واثقين من أن سحرة حاران اليهود يعملون جاهدين أيضا للسيطرة على أسباب القوة التي ستمكنهم من تحرير اللعنة يوما ما!!

ولأن الكهنة الأتقياء كانوا يعرفون الكثير مما حدث في الماضي ومما حدث في الحاضر وما قد يحمله المستقبل للبشرية جمعاء من خطر داهم.. قرروا أن يقاتلوا في الجبهات كلها.. وبكل ما يملكونه من قوة..

فريق منهم نذر نفسه لمواجهة حاران وساحرها الأكبر..

وفريق منهم نذر نفسه لقتال الفرعون وجنود الموت الثلاثة عشر..

ونجح الكهنة الأتقياء في مهمتهم..

نجحوا في مساعدة عشائر الجن في واديهم للتخلص من كهنة حاران وسحرتهم.. وإن لم يعلموا أن الكاهن الأكبر قد نجح في تحويل قوته الرهيبة إلى قلب بئر في ذلك الدير السري بالصحراء قبل أن تنمحي جماعته..

ونجحوا في استدراج جنود الموت إلى وادي الجن ذاته وحاصروهم.. وخاضوا ضدهم معركة رهيبة قبل أن ينجحوا في دفنهم تحت الرمال.. وهم يعلمون دون غيرهم أنه لن تقوم لهم قائمة إلا لو سالت دماء الوريث الأخير المتحدر من نسلهم الملعون!!

وأخيرا هُزم الفرعون بعد أن وجد نفسه وحيدا دون أتباع.. وفي سرية تامة قام الكهنة الأتقياء بدفن الفرعون في تابوت كان قد أعده لنفسه بعد أن سحبوا منه قوته وألقوه في سبات عميق أرادوه نهائيا وأبديا، وقاموا بإخفاء التابوت في حجرة الدفن الملكية بالهرم الكبير.. ودفنوا مفتاح الحياة الذهبي في مقبرة بين قائمي تمثال أبي الهول المهيب..

ولأول مرة منذ وقت طويل يتنفس الكهنة الأتقياء الصعداء؛ لأنهم نجحوا في مقاومة الشر في مهده قبل أن يفرد أجنحته على الأرض والناس أجمعين..

وقرر الكهنة أن يغادروا إلى مكان بعيد لا تصل إليه أي نفس بشرية..

لكن قبل رحيلهم جمعوا علمهم في قوة واحدة..

قوة أرادوها خط الدفاع الأخير لو حدث وحاول أتباع الشر في الأرض أن يسعوا لتحرير اللعنة من مرقدها..

قوة تشكلت في صورة رجل بلا ملامح.. بلا وجه.. رجل لا يرتدي سوى مسوح الرهبان.. ويحمل منجلا كبيرا في يده.. وجواد أسود يحمله..

جعلوه لمهمة واحدة هي الانتظار..

واختفى الكهنة الأتقياء.. وبقي النذير في مكمنه السري ينتظر.. وينتظر!!

ولسوء حظ الكهنة الأتقياء.. أو هي كلمة القدر الحاسمة..

لم يطُل انتظار النذير!!

* * *

ساد صمت مريب في تلك المنطقة الخالية من الصحراء وبدأ السكون يغلف كل شيء ويلقي بسحابته الخرساء على كل شيء..

سكنت الرمال وهدأت العواصف وغفت الطبيعة الأم وسط ظلام الليل وكأنها نسيت غضبها العارم الذي تبع ظهور ذلك القبر الحجري الملعون..

وتحول هذا الجزء من الصحراء إلى لوحة خادعة للسكون والهدوء لا تنبئ بمقدار الشر الساكن بداخلها والأحداث الجسام التي تدور من أجل الوصول إلى هذا المكان والسيطرة على ما يخفيه القبر من قوى مروعة..

وشق هذه اللوحة وبدد السكون صوتٌ هادر وضوء باهر أضاء المنطقة المحتوية على القبر وجزءا من رمال الصحراء المحيطة به.. ومن قلب الضوء ظهر حزقيل بجسده الفتي وهيئته القاتمة التي اكتسبها مع استحواذه على قوة حاران القديمة.. وهو بنفسه كان يشعر بالقوة والاختلاف والنشوة..

لم يكن يعرف أن قوى حاران السرية بمثل هذه القوة الخارقة.. حتى إنه تساءل عن جدوى حصوله على قوة أخرى..

غير أن استيلاء عدوته سدوم على هذه القوة يمثل تحديا كبيرا له..

اقترب بجسده القوي الخارق من القبر الجاثم على قلب الصحراء وقدماه تطفوان فوق رمال الصحراء ولا تمسانها وعيناه تتألقان ببريق القوة والظفر..

تقدم من مدخل القبر وهمَّ بعبوره عندما شعر بتلك القوة الرهيبة تعترض طريقه، بل وتدفعه إلى الخلف عدة أمتار.. قوة لو أصابته بحالته القديمة لجعلته مجرد جثة متفحمة..

انتصب واقفا في قوة وعيناه تتألقان ببريق غاضب..

نظر نحو القبر في تصميم ثم باعد بين قدميه وأغمض عينيه وأطلق كامل قوته من عقالها.. ومن بين يديه خرجت خيوط سوداء راقصة تشبه الأفاعي انقضت على مدخل القبر ليطلق حزقيل صرخة هائلة ارتجفت لها الصحراء.. قبل أن تقذفه تلك القوة العاتية التي تحمي القبر، ليسقط متألما وسط رمال الصحراء بعد أن كان قد نسي مثل هذا الشعور المهين..

وقف من جديد على قدميه وأخذ يدور حول القبر ويفحص كل حجر منه في دقة، مع محافظته على مسافة آمنة وقد سيطر عليه غضب عاتٍ؛ لأن قوته لم تكن بالشدة التي اعتقدها.. دون أن يحصل على حل ودون جدوى..

عاد حزقيل إلى مكانه الأول كسيف البال وقرر أن يستخدم علومه وقدراته السحرية للتغلب على تلك القوى التي تحمي القبر.. قرر أن يستعين بعلمه الأسود.. وزاده التحدي إصرارا..

وقف كتمثال من حجر أسود وأخذ يردد تعويذة قديمة يحفظها بقوة ودقة.. تعويذة قادرة على إذابة الصخور وتحريك الجبال.. واستغرق منه الأمر وقتا طويلا.. وعندما أتمها تحول المكان لبركان ثائر..

البرق والرعد يتبادلان الظهور في السماء، ثم يصلي البرق الأرض جحيمه عشرات من الصواعق أخذت تهاجمه وكاد بعضها يصرعه لولا قواه الاستثنائية..

الرمال تحولت لأعاصير تدور وتبتلع كل شيء..
تجمد الزمن حتى كاد حزقيل يستسلم من فرط الإرهاق ووطأة الهجوم..
لقد صعد القبر من دفاعاته وتحول للهجوم.. فقد حرص من دفنوا اللعنة على حمايتها..
وانقلب السحر على الساحر..
قاوم حزقيل..
وقاوم..
وقاوم..
وفي النهاية هدأت العواصف.. وصفت السماء.. وسقط حزقيل أرضا.. ودمعة حبيسة تكاد تخرج من عينيه منعها بصعوبة شديدة..
استلقى حزقيل فوق الرمال مهزوما مدحورا.. وعقله الشرير لا يتوقف لحظة واحدة عن التفكير..
لم يكن يتوقع في أسوأ كوابيسه أن يقع في فخ قاتل مثلما حدث معه منذ دقائق.. لقد اعتقد أن قوته الخارقة مع علومه السوداء قادرة على تطويع كل شيء.. وفرض سيطرته عليه.. ولكن..
ها هو القبر الملعون يفصح عن قدراته.. وأنه حصن حصين وليس مجرد قبر حجري يُستخدم لحماية مخطوطات اللعنة.. وفي ذهنه تردد التساؤل الخطير:
هل تستطيع سدوم أن تعبر هذا العائق الجهنمي؟!
هل تستطيع قهر تعاويذ الحماية التي تحمي القبر؟!
هل...؟!
وقطع تساؤلاته صوت سدوم المنفر وهي تقول:
«ما توقعته تماما.. لقد هُزمت يا حزقيل.. هُزمت على الرغم من حصولك على قوى حاران.. فاشل أنت دائما».
استدار حزقيل ليواجهها ويصب جام غضبه فوق رأسها، لكنه كبح جماح غضبه عندما رأى المشهد المذهل..

* * *

في اللحظة نفسها وفي مكان بعيد جدا توقفت سيدة الجبل ومعها بنامون أمام شجرة عملاقة ذات أغصان كثيفة وثمار يانعة..
شجرة لا مثيل لها تمتد جذورها حتى نبع ماء قريب..
دعك بنامون عينيه في قوة وهو يتطلع إلى تلك الجنة الأرضية التي لم يتوقع وجودها بقلب

سلسلة الجبال التي حملته إليها سيدة الجبل..
بساط ممتد من الحشائش الخضراء تتوسطه شجرة وارفة الظلال يمتد ظلها إلى مئات الأمتار مع نبع ماء رقراق يسكب مياهه الصافية في دعة وهدوء..
توقف بنامون كالمأخوذ وهو يتطلع لهذا المنظر الرائع الذي لا يفسده إلا منظر سيدة الجبل بذلك الشعر الذي يحيط بكامل جسدها..
ثم استدار نحو سيدة الجبل يتطلع نحوها متسائلا..
نظرت نحوه سيدة الجبل وقالت بصوتها الساحر وإن شابه بعض الأسى والتوتر:
«ما تراه أمامك يا بنامون هو أحد الأسرار الكونية الكبرى.. إن هذه الشجرة التي أمامك هي شجرة الحياة.. والنبع الذي يرويها هو نبع الخلود».
فغر بنامون فاهه غير مستوعب وغير مصدق وقال وهو يعبث في لحيته الكثة:
«وما شجرة الحياة؟! وما علاقتها بما يحدث؟!»..
دوى صوتها الساحر الذي اخترق مسامع بنامون وغلف قلبه بسحره وقالت:
«هذه الشجرة موجودة منذ الأزل.. قدراتها هائلة ولا حدود لها.. من يصل لها يستطيع أن يتحكم في حياة الأحياء؛ لأن كل غصن يُكسر منها يعني الحكم على الآلاف بالموت.. مهمتي الأساسية هي حمايتها والذود عنها ضد كل قوى الشر.. ولعنة الشفق الأسود هي لعنة شيطانية.. عن طريقها يستطيع من يملكها إطلاق سحب الهلاك السوداء التي ستعكر السماء وتخفي القمر وتبدد ضوء النجوم و...».
قاطعها بنامون وأنفاسه تتلاحق قائلا:
«حنانيك يا سيدة الجبل.. حنانيك.. اعذري عقلي العجوز واشرحي أكثر».
صمتت سيدة الجبل وكأنها تدير الأمور في رأسها كثيف الشعر وقالت بصوتها الفتان:
«اسمعني يا بنامون جيدا لأن الوقت المتبقي لن يسمح لي بأن أقص عليك كامل قصة شجرة الحياة المقدسة».
قاطعها بنامون مرة أخرى قائلا:
«وقت ماذا؟!».
تردد صوتها الفاتن مختلطا بالحزن والأسى وهي تقول:
«وقتي أنا يا بنامون.. وقتي في هذه الحياة».
بُهت بنامون من المفاجأة وقال:
«وكيف ذلك يا سيدة الجبل؟ أمامك نبع الخلود.. فلِمَ لا ترشفين منه؟».

دوت ضحكتها الرقراقة مختلطة بحزنها على مصيرها وقالت:
«نبع الخلود يروي فقط شجرة الحياة.. وقدومك كان الإشارة يا بنامون».
ظهر الحزن على وجه بنامون وهو يقول:
«إذًا لماذا أتيتِ بي إلى هنا؟ أمن أجل فقط أن أشهد نهايتك؟!».
ابتسمت سيدة الجبل ابتسامة حزينة ثم قالت:
«لا يا بنامون.. بل من أجل أن تعرف حقيقة الحياة وهشاشتها.. تصور لو وارت سحب الهلاك السوداء الشمس وتحول الأفق إلى ظلام تام.. وتحققت لعنة الشفق الأسود..
تدريجيا سيضعف البشر وسيكون تأثير الدقائق عليهم كالسنوات.. ستفنى الحياة وتتحول الأرض إلى قبر كبير.. وسيتحكم مالك السحب السوداء في شجرة الحياة فيسمح للشمس أن تزور أماكن أتباعه ويحجبها عن الباقين.. إنها لعنة رهيبة».
ظهر الإحباط على وجه بنامون وهو يقول:
«وماذا أملك أنا أمامها يا سيدة الجبل؟»..
نظرت نحوه في صمت ثم قالت وهي تملأ عينيها بوجهه:
تملك الكثير.. بل تملك القوة الوحيدة القادرة على ردع تلك اللعنة لو خرجت من عقالها..
هز بنامون رأسه في يأس وظهر هذا اليأس على وجهه وهو يقول:
«وأين هي هذه القوة يا سيدة الجبل؟!».
أشارت بيدها كثيفة الشعر وقالت بصوت قوي:
«افتح الصندوق يا بنامون، افتحه لتتعلم أكثر عن السلاح الأكثر أهمية».
ظهر التردد والخوف على وجهه وهو يتساءل:
«وماذا سيحدث يا سيدتي عندما أفتح الصندوق؟!».
أشارت له بحزم:
«افتح الصندوق».
ظهر العناد على وجهه وهو يقول:
«ماذا سيحـ..؟!».
قاطعته في صرامة أكبر وهي تشير نحو الصندوق:
«افتح الصندوق»..
جثا بنامون على قدميه ومد يديه نحو الصندوق وقال بصوت باكٍ وقد فهم أخيرا:
«الوداع يا سيدة الجبل.. الوداع»!!

ابتسمت في حزن وقالت بصوتها الساحر:
«الوداع يا بنامون.. الوداع، ولكن تذكر.. اللعنة في القلوب وليست بضع كلمات وطقوس.. اللعنة في القلوب يا بنامون».
وفتح بنامون الصندوق، واتسعت عيناه في دهشة وهو ينظر إلى السلاح الذي تحدثت عنه سيدة الجبل!!
ورأى ما أثار دهشته لحد الثمالة!!
كان قلب الصندوق مبطنا بمخمل أحمر لامع، عليه استقرت بضع بذور ذات لون أبيض يكاد يكون شفافا.. بذور عجيبة يراها بنامون لأول مرة في حياته.. بذور تختلف تماما عن أي بذور شهدها بين أبناء الواحة طوال سنوات عمره التي جاوزت السبعين بقليل..
كانت تأخذ شكلا بين الدائري والبيضاوي، سطحها ناعم للغاية، ولها حافتان مدببتان على نحو غريب..
«ما هذه البذور يا سيدة الجبل؟!».
قالها بنامون وهو يرفع عينيه إليها، فقالت بلهجة حزينة وهي تمد يدها نحوه وقد بدأ الضعف يغزوها:
«هذا هو السلاح الأقوى والأعظم في المعركة الكبرى يا بنامون.. هذه البذور ليست إلا جنودا غارقين في سبات عميق.. جنودا من نوع خاص جدا».
ابتلع بنامون ريقه بصوت مسموع قبل أن يقول متسائلا:
«وهل كان الكاهن الأكبر لمعبد آمون في الواحة يعلم بحقيقة ما بداخل الصندوق؟!».
هزت سيدة الجبل رأسها نفيا وقالت ردا على سؤاله:
«كلا.. لقد كان هذا الصندوق إرثا عبر الأجيال.. انتقل عبر الكهنة.. وعندما لم يجد آخر كهنة المعبد من يسلمه السر والصندوق، وجد فيك الشخص الوحيد القادر على حمل السر والأمانة من بعده».
وصمتت هنيهة وهي تجاهد لتخفي ألما عنيفا قبل أن تقول:
«ومع الصندوق كانت المخطوطة التي تبشر باقتراب اللعنة وظهور القبر المختار»..
وشهق بنامون عندما وجدها أمامه بغتة ويدها المشعرة على كتفه:
«بنامون.. لقد اختارك القدر لتكون الدرع الأخيرة للبشرية.. أنت من اختارتك إرادة الخير لتتصدى للشر الذي يوشك أن ينفلت من عقاله.. الخطر بات أقرب إلى البشر من حبل الوريد.. أكاد أشعر به يزهق روحي».
قال بنامون وهو ينظر إلى البذور الراقدة بسكون في قاع الصندوق المبطن بالمخمل:
«وما الذي عليَّ فعله بهذه البذور يا سيدة الجبل؟!».

قالت وهي تشير وراء ظهرها إلى النبع الرقراق الذي يروي شجرة الحياة المقدسة:
«خلت الجواب واضحا يا بنامون.. لقد جئت بك إلى مكان لم تقع عينا بشري عليه قبلك.. ألقِ البذور في مياه النبع».
قال وهو ينقل بصره بينها وبين النبع والصندوق والبذور:
«ماذا؟!».
قالت وهي تهز رأسها وقد بدأت دموع ذهبية تتساقط من عينيها وصوتها الساحر وقد بدأ يفقد تأثيره:
«لا تخف.. ألقِ البذور في مياه النبع يا بنامون».
تردد بنامون للحظات.. لحظات مر فيها كل شيء أمام عينيه بسرعة رهيبة..
البداية.. وثقة الكاهن الأكبر.. قدومه إلى سيدة الجبل في قلب قصرها الصخري.. ما عرفه من حقيقة لعنة الشفق الأسود.. النذير.. كل شيء بلا استثناء..
«هيا يا بنامون.. ألقِ البذور.. الوقت ليس في صالحنا أبدا».
سرت رجفة في جسد بنامون.. وكالمسيَّر.. أو الواقع تحت تأثير سحر قوي.. سار بنامون نحو حافة النبع الصافي.. ثم توقف..
«لا تتردد يا بنامون».
قالتها سيدة الجبل.. وقد ظهر الألم جليا في صوتها..
وألقى البذور التي تسببت في فوران المياه بشدة فتناثر بعض منها على وجهه وجسده، ما جعله يتراجع في خوف إلى الخلف.. وعندما غادرته آثار المفاجأة وعاد النبع ليصفو وطفت البذور فوق سطح الماء من جديد ليتحول لونها إلى لون عاجي صقيل.. تقدم من جديد صوب النبع.. وفاجأه وجه شاب يتطلع نحوه فكاد يتعثر ويسقط في قلب النبع إلا أنه تماسك ثم تجمد في مكانه وكأنه تمثال..
فالوجه الذي رآه لم يكن غريبا عنه.. بل هو يعرفه جيدا.. إنه وجهه.. لكنه على الصورة التي كان يألفها منذ عشرات السنين.. عندما كان شابا فتيا..
لقد اختفى الوجه العجوز المتغضن ذاته الذي أرهقته السنون وحل محله وجه ينضح بالشباب والقوة والحيوية والعنفوان..
استدار ونظر نحو سيدة الجبل وقد تملكته نشوة وقوة الشباب وقال بصوت فيه ذروة الانفعال:
«لقد عدت شابا يا سيدة الجبل.. عدت شابا».
ظل ينظر للبذور التي تغير لونها، وعندما لم يأته رد سيدة الجبل استدار نحوها بسرعة ليجدها

مفترشة الأرض وقد تساقط الشعر الذي يكسوها.. وهرم جسدها.. وأخذت ترتجف وكأنما أصابتها حمى.

اقترب منها في فزع ووضع رأسها على ركبتيه بعد أن جثا فوق الأرض ومسح بيديه دموعها الذهبية.. وانهمرت دموعه فوقها..

كانت سيدة الجبل تحتضر..

تحتضر لتتركه وحيدا بعد أن منحته سلاحا لا يعرف كيف يستخدمه..

تحتضر بعد أن أطلعته على سر كون خارق لا مثيل له..

سر سيُترك بلا حماية بعد أن تموت..

نظر نحو عينيها اللتين بدأتا تجحظان وقال بصوت كسير باكٍ:

ومن سيرعى شجرة الحياة من بعدك يا سيدتي؟ من؟!».

رفعت وجهها نحوه وبصوت يخرج من آخر قطرات روح تحتضر قالت:

«شجرة الحياة ليست كما تظن يا بنامون.. شجرة الحياة هي لعنة أخرى تهدد حياة البشر.. لا يغرك ما رأيت من سحر حولها».

قالتها ثم صمتت للحظات فظن بنامون أنها فقدت الحياة، لكنها عادت وأكملت:

«شجرة الحياة.. صنعها الأقدمون ليتحكموا في مصير البشر.. فبواسطتها يستطيعون إفناء أي حياة على وجه الأرض.. لكنهم بكل علمهم لا يستطيعون أن يمنحوها لمخلوق.

لقد كانت هذه الشجرة هي أصل لعنة الشفق.. فعندما لم يستطع أن يعثر عليها السحرة الأقدمون بعد أن أخفاها صانعوها بعلمهم اللانهائي.. قاموا - بعلومهم السوداء - بتنفيذ تعويذة مكملة.. لا تعثر على هذه الشجرة، لكنها تحجب عنها ما يمدها بالقوة.. فتحصد بطريقة غير مباشرة أي حياة يرغبونها».

سعلت بشدة لدقيقة كاملة ثم استطردت قائلة:

«عن طريق اللعنة يستطيع من يملك مفاتيحها أن يتحكم في شجرة الحياة ومصائر البشر.. يستطيع التحكم فيها بالفناء.. فقط».

قاطعها بنامون قائلا:

«لكنك الآن تحتضرين فمن سيحميها بعد الآن؟!».

انتفض جسدها في عنف وأخذت تهتز وقلب بنامون يُسحق وهو ينظر نحوها في جزع، لكنها عادت وتمالكت نفسها وقالت:

«لن تكون هناك حاجة لحمايتها بعد الآن يا بنامون.. لو تغلبت لعنة الشفق الأسود عليك وعلى

قوة البذور فستفنى الحياة، ولن يكون هناك داعٍ لمن يحمي هذه الشجرة.. لكن لو نجحتم في التصدي لها ستنتهي لعنة الشفق الأسود ومعها تعويذة شجرة الحياة.. ويفني الموت في الموت والحياة في الحياة».

قالتها ثم انتفضت انتفاضة أخيرة لتغادرها الحياة ويذوب جسدها بين يدي بنامون الذاهل وتبتلعه الأرض..

بكى بنامون كما لم يبكِ في حياته..

وبعد أن انتهى انتصب واقفا وقبض بيده على البذور وفي عينيه لمع بريق تصميم هائل.. ثم غادر المكان وشريان الغضب ينبض بداخله بعنف..

* * *

أمامه كانت واقفة بكل ثقة.. وبكامل هيئتها الكريهة وسط رمال الصحراء.. تنعكس المشاعل فوق وجهها، ما أعطاها سمتا شيطانيا، وإلى جانبها ينتصب الذئب الضخم فوق قائميه الخلفيتين وعيناه تبرقان ككرتين من النار..

إلى الناحية الأخرى وقف الفرعون العائد الذي لا يختلف منظره عن منظر جنود الموت ونظرة رهيبة ومخيفة تطل من عينيه.. وعلى جانبيها وقف جنود الموت الثلاثة عشر شاكي السلاح ينتظرون أمرا أو إشارة بالهجوم..

وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة واسعة.. ومن عينيها أطل بريق ظافر وساخر بلا حدود..

«سحقا لكِ يا سدوم! هل تظنين أنه بإمكانك أن تنجحي فيما فشلت فيه للتو؟!».

قالها حزقيل وهو يفرد ذراعيه على اتساعهما وقد بدا التحفز على وجهه..

أطلقت سدوم ضحكة رددت الصحراء الساكنة صداها طويلا قبل أن تقول وهي تهز كتفيها:

«بل أوجه إليك دعوة ثقيلة على قلبي.. لكنها الطريقة الوحيدة لاختراق الحواجز الدفاعية حول القبر المختار يا عزيزي حزقيل».

ولمَّا لاح التساؤل في عيني حزقيل دون أن ينتقل إلى شفتيه قالت سدوم مكملة وتعبير واثق يلوح على وجهها:

«أنا أعلم جيدا أن قوتك وحدها وقوتي وحدها لن تنجح في اختراق القبر.. اللعنة محمية بتعاويذ رهيبة.. تحتاج إلى قوة من طراز خاص لتجاوزها وإخضاعها لسيطرتها».

أخذ حزقيل نفسا عميقا وحبسه في صدره للحظات قبل أن يقول:

«لم أفهم ما ترمين إليه من حديثك هذا يا سدوم!».

عادت سدوم تطلق من جديد ضحكتها، واربدت ملامح حزقيل المربدة أصلا عندما اقتربت منه وهي تقول مشيرة بسبابتها أمام وجهها:

«عجيب أمرك يا عزيزي حزقيل.. كنت أكثر ذكاءً قبل أن تتملكك قوة حاران! هل فقدت حنكتك مع حيازتك لهذه القوة كلها؟! هل تغلبت قوة الثور على ذكاء الثعلب ودهائه؟!».

زمجر حزقيل، وراحت سحابة سوداء تتكون عند ساقيه، فقالت سدوم ملوحة بيديها معا:

«رويدك يا حزقيل.. فليس في نيتي أن نبدأ قتالا تكون نتيجته خسرانا مبينا لكلينا ونصرا سهلا لأعدائنا الذين يقتربون منا حثيثا مع كل لحظة تمر».

زمجر حزقيل مرة أخرى قبل أن يسألها قائلا:

«ماذا تقصدين؟!».

تألقت عيناها كما لم يحدث من قبل، وبدا صوتها هادرا كقصف الرعد وهي تقول ردا على سؤاله:

«أنت ترغب في تحرير قوة الشفق الأسود.. وأنا أتوق إلى النصف الآخر من القوة.. كلانا عطشان إلى القوة المطلقة.. القوة..

وأنا أعلم أن الوسيلة الوحيدة لنيل هذه القوة العاتية...»..

نظر نحوها دون أن ينبس ببنت شفة وإن كان الاهتمام قد ظهر في نظرة عينيه المخيفتين فاستطردت هي:

«.. التحالف يا حزقيل.. لتتحالف قوة حاران الكامنة في جسدك مع قوتي السوداء.. لنقهر دفاعات هذا القبر الملعون ونعبر عبر شراكه الجهنمية».

لمعت عينا حزقيل وتراقصت ابتسامة ظافرة على وجهه.. انتقلت بدورها إلى شفتي سدوم الغضتين..

وفي هذه اللحظة بالذات رفع الذئب المرافق لها خطمه عاليا.. وانطلق عواؤه يهز الصحراء ويمزق سكونها!!

* * *

ساد الصمت ذلك الكهف الحجري لدقائق كاملة دون أن يجرؤ أحد على قطعه.. ولولا صوت تنفسهم المتصاعد لما اعتقد أحد بوجود حياة في هذا الكهف هائل الاتساع..

تركزت العيون المليئة بالأسئلة فوق وجه النذير المختفي في الظلال خلف مسوح الرهبان التي يرتديها وهو متكئ على ذلك المنجل ذي النصل الحاد الذي يجعله أقرب لصورة الموت كما

صوَّرها القدماء.. وفي العقول دارت آلاف الأسئلة بين تلك المجموعة من البشر الذين تجمعوا في هذا المكان العجيب ليكونوا نواة لجيش الخلاص.. بل هم جيش الخلاص كله.. الذي سيقاتل من أجل حماية البشرية من تلك اللعنة التي ستحيل الشفق إلى ظلام لا نهائي.. وستبدأ فجر النهاية للبشرية..

لا أحد منهم يدري لماذا اختصه القدر ليكون ضمن هذه المجموعة الغريبة التي تضم الأميرة عالية والعراف نواس وسهيل، ذلك الفتى اللاهي، وسهم ابن سدوم كاهنة بني عامر الكبرى..

مجموعة لا تبشر بخير أبدا لو نظرنا لها بالمقاييس العادية.. لكن النذير.. ذلك المخلوق الغامض الذي أنجبته علوم القدماء.. أخبرهم بأنهم المختارون.. الذين التقت خيوط أقدارهم في هذا الزمن ليتصدوا لذلك الخطر العظيم..

وها هو يغرق في التأمل أو الصلاة منذ ما يقرب من عشر دقائق كاملة ليتركهم في حيرتهم بعد أن أخبرهم بأن جنود الشر قد عقدوا حلفا من أجل أن يحصلوا على مخطوطات اللعنة..

احترم الجميع صمته الذي لم يطُل أكثر من ذلك.. وعندما تحرك من جديد التفوا حوله ونظروا نحوه في تساؤل، فقال بصوت قلق:

«هناك خبران أحدهما جيد والآخر سيئ، فبأي منهما تريدونني أن أبدأ؟».

تباينت الانفعالات على وجوههم، لكن نواس قال بصوته القوي الذي استعاد عافيته:

«الخبر السيئ في البداية لنرى إلى أين تسير الأمور».

قال النذير بصوته القوي موجها الكلام لهم جميعا:

«الخبر السيئ هو توصل سدوم وحزقيل بحلفهما للطريقة المثلى لكسر دفاعات القبر الخارجية».

قاطعته عالية متسائلة:

«وكيف ذلك؟!».

أكمل النذير وكأنه لم يستمع لحديثها:

«الآن الفرعون العائد يستخدم مفتاح الحياة المطلسم لعبور خط الدفاع الأول الذي وضعه القدماء.. إنني أراه يتقدم الآن بصحبة خمسة من جنود الموت.. يقترب من القبر ويتوقف عند نقطة التماس.

مفتاح الحياة يتألق بين يديه كشمس ذهبية صغيرة.

يتقدم حاملا المفتاح ليعبر خط الأمان..

هالة من الضوء الفضي تحيط بالقبر.. تتحد مع الضوء الصادر عن المفتاح المطلسم.. يحدث انفجار.

جسد الفرعون يتمزق وثلاثة من رجاله.. مفتاح الحياة يتألق أكثر مع تضحية الفرعون بنفسه.. ثم يطفو في الهواء.. ويسبح إلى أعلى القبر ويظل معلقا.. يبث ضوءه الذهبي الذي طغى على الضوء الآخر.. وحقق الهدف المنشود.

وسيطرت قوة مفتاح الحياة المطلسم على دفاعات القبر الخارجية.

وها هم يتقدمون.. إنني أراهم.. حزقيل وسدوم.. يتقدمهما خمسة من جنود الموت وقائدهم عبر مدخل القبر..

حزقيل عبر المدخل.. ثم ذئب سدوم الضخم وخلفه سدوم وخلفهم اثنان من جنود الموت. الجنود الثلاثة الباقون يحرسون القبر من الخارج».

سرى الانفعال الشديد في أجساد الجميع وهم ينصتون لصوت النذير وهو يخبرهم بما يرى بقدراته الخارقة.. وعندما توقف اندفعت عالية مرة أخرى لتتساءل:

«ثم ماذا؟!».

صمت النذير قليلا ثم قال:

«لا شيء آخر؟!».

عادت مرة أخرى لتتساءل والوجوه مسلطة على وجه النذير:

«كيف لا شيء؟ ماذا حدث بعد أن دخلوا القبر؟!».

قال النذير بصوته القوي المحايد:

«إلى هنا وتتوقف قدراتي على الرؤية.. القبر تحميه علوم وقوى هائلة.. وليس معنى عبور الشر للدفاعات الخارجية أن الأمر انتهى.. إن القبر مفخخ بشراك خادعة جهنمية.. وسيلاقون الأمرين قبل عبورها.. وأتمنى أن نكون هناك قبل أن ينهوا عملهم لنردعهم».

ظهر الوجوم على وجوه الجميع وساد الصمت من جديد قبل أن يقول نواس: «لتخبرنا إذًا بالخبر الجيد».

توجهت الأنصار صوب النذير بوجهه الغارق في الظلال وأنصتوا له بأمل وهو يقول:

«الخبر الجيد أننا لسنا وحدنا.. هناك قوى هائلة ستساعدنا.. وهي الآن تقطع الفيافي والقفار للوصول في الوقت المناسب».

غزا الأمل القلوب للحظات وقال سهم:

«إذًا متى ستحين لحظة تحركنا أيها النذير؟! متى سنشارك في الأحداث؟!».

عادت العيون لتتسلط على وجه النذير الذي قال:

«قريبا جدا.. نحن ننتظر الإشارة».

«أي إشارة؟!»..

قالها سهم.. فعاد النذير ليجيب:

«إشارة الانطلاق يا سهم.. عبورهم للمانع الثاني».

تلاقت النظرات..

ثم ساد الصمت من جديد..

* * *

«وهل هناك أكثر من مانع لبلوغ مخطوطات اللعنة أيها النذير؟!».

قالتها الأميرة عالية بصوت أتى الفضول على نبراته، فالتفت إليها النذير وقال مجيبا وهو يحرك قناة منجله بين يديه ببطء:

«القدماء كانوا يعلمون أن هناك ثلاثة موانع تلي الدفاعات الخارجية للقبر، التي تجاوزها حزقيل وسدوم بفضل قوة مفتاح الحياة المطلسم».

ارتفع حاجبا نواس وهو يقول مندهشا:

«ثلاثة موانع أخرى؟! بحق الآلهة جميعا، أي موانع تلك أيها النذير؟».

ندت عن النذير تنهيدة عميقة بدت لهم وكأنها نفثة من بركان خامد يعود للحياة بعد طول ركود قبل أن يأتيهم صوته قائلا:

«جدار النار المقدسة.. الأفعى الرقطاء.. وأخيرا.. الأخطر والأقوى على الإطلاق.. حارس المقبرة الذي جعلته قوى الشر خط الدفاع الأخير.. من يتجاوزه تنفتح له أبواب القوة المغلقة منذ سنوات بعيدة موغلة في القدم.. وتصبح مخطوطات لعنة الشفق الأسود طوع بنانه أو بنانها!».

قال سهيل متسائلا بعد أن ازدرد ريقه بصعوبة بالغة:

«وهل تعتقد أن سدوم وحزقيل وجنود الموت سيقدرون على تجاوز هذه الموانع الثلاثة أيها النذير؟!».

لاذ النذير بالصمت هنيهة قبل أن يرد قائلا:

«لا أحد يمكنه الجزم يا سهيل.. لكن لا بد أن نتوقع نجاحهما في هزيمة جدار النار والأفعى الرقطاء، لكن ليس بالسهولة التي تتخيلها.. ستلزمهما تضحيات كبيرة للوصول إلى مكمن الحارس الأخير للقبر.. ولهذا سنكون هناك مع تجاوزهما لجدار النار المقدسة.. لا بد أن نكون قريبين ومستعدين للتدخل لمنع اللعنة من الانتشار فتدمر كل شيء!».

مقطبا قال سهم وهو يشبك ذراعيه أمام صدره:

«ما دامت مهمتنا هي التصدي لهذه اللعنة، فلماذا انتظرنا حتى نجح أعداؤنا في تجاوز دفاعات القبر الخارجية؟ ولماذا نسمح لهم بتجاوز جدار النار المقدسة؟! لماذا لم نبادر إلى القبر المختار ونمنعهم من البداية؟! أنا لا أفهم أي شيء أيها النذير!!».

مرة أخرى ندت تلك التنهيدة عن النذير قبل أن يقول بلهجة أجبرت أجسادهم على الارتجاف بقسوة:

«لأنني لن أترككم تقاتلون وحدكم يا سهم.. وهناك ما يمنعني من التدخل قبل عبورهم للنار المقدسة».

انفرجت شفتا سهم وهو يهم بإلقاء سؤال آخر، لكن النذير سبقه ليقول وهو يشير بيده:

«لا تسل عن أي شيء آخر يا سهم، فلكل كائن حدود معينة لا يستطيع تجاوزها»..

قالت الأميرة عالية تسأله بصوت مرتجف:

«وماذا بعد أن تتم مهمتك أيها النذير؟ ما الذي سيحدث لك؟!».

التفت إليها النذير وقال بلهجة أخافتها:

«فلتنتهِ المهمة أولا.. وبعدها تقودنا الأقدار إلى حيث تشاء».

ودار بعينين غير موجودتين في وجوه الأربعة: سهم.. سهيل.. عالية.. ونواس..

ورفع يديه أمامه وهو يقول:

«قبل أن نغادر هذا المكان.. ستحتاج يا سهم إلى زي حرب لتخوض به أتون المعركة الأخيرة كالآخرين تماما».

وعلى الفور انبثقت من قبضته اليمنى خيوط من ضوء أزرق براق أحاطت بجسد سهم الذي أفلتت منه شهقة وهو يرى ذلك الثوب يُنسج من العدم حول تفاصيل جسده بدقة مذهلة، وأخيرا استقر بين يديه سيف ذو نصل عريض متألق، ومقبض من الذهب الخالص في منتصفه ماسة حمراء لا تكف عن البريق كشمس صغيرة، و...

«والآن.. سأمنحكم القوة التي تحتاجون إليها.. القوة التي تليق بجنود جيش الخلاص من لعنة الشفق الأسود للأبد.. والتي ستمكنكم من مواجهة أعدائكم بقلوب لا تعرف الخوف.. تقبل على الموت بصدر رحب لأنها تعلم دون غيرها أن بعد موتها حياة لكل البشر!».

وانطلق الضوء الأزرق البراق من يديه ليحيط بالأبطال الأربعة في هالات متألقة منحتهم مشهدا لا يليق إلا بالأساطير والحكايات الخرافية!! مشهدا لم ولن يتكرر في هذا الزمن.. مشهدا جديرا بأن تحفظه ذاكرة التاريخ حتى نهاية الحياة على الأرض كعلامة لواحدة من المعارك الكبرى والمصيرية بين الخير والشر!!

معركة ستحدد نتيجتها من سيكون السيد دون منازع لقرون لا يعلم مداها أي مخلوق على الإطلاق!!

* * *

بنامون ينطلق بقوة وسرعة رهيبتين لم يعهدهما في نفسه أبدا، ولم يكن ليتخيل أبدا أنه قد يملك إحداهما في يوم من الأيام!!

بنامون الذي كان منذ وقت قصير للغاية عجوزا متغضن الجسد والروح.. أصبح شابا فائق القوة والنشاط والحيوية وهو يعدو بكل قوته عبر تلك الصحراء الممتدة أمامه وكأنها بلا نهاية، قابضا بقوة على الصندوق المعدني الصغير الذي يحوي تلك البذور العجيبة..

«لو تغلبت لعنة الشفق الأسود عليك وعلى قوة البذور فستفنى الحياة ولن يكون هناك داعٍ لمن يحمي هذه الشجرة.. لكن لو نجحتم في التصدي لها ستنتهي لعنة الشفق الأسود ومعها تعويذة شجرة الحياة.. ويفني الموت في الموت والحياة في الحياة».

ضم بنامون الصندوق إلى صدره وهو يزيد من سرعته فوق الرمال الناعمة تحت ضوء القمر الفضي البارد.. كان يعلم طريقه جيدا.. وكان يعلم أيضا أنه بات قريبا للغاية منه.. ولم يدرِ لِمَ كان واثقا أن وصوله سيكون في لحظة حاسمة للغاية في معركة رهيبة أوشكت نارها على الاندلاع!!

«سيدة الجبل.. لن يكون موتك دون فائدة.. لقد انتظرتِني سنوات طويلة دون أن تشعري بالملل لحظة واحدة.. منحتِني معرفة لم أكن أحلم أن تجول في أكثر أحلامي جموحا.. في حوزتي الآن سلاح قد يكون الأمل الأخير في قهر لعنة الشفق الأسود.. أعدك أن يقوم بنامون بدوره على أكمل وجه».

قالها بنامون ولاذ بالصمت قليلا قبل أن يضيف صارخا بصوت رددت الصحراء الواسعة صداه طويلا، والدموع تلمع في زجاج عينيه:

«أعدك يا سيدة الجبل!!».

* * *

مفتاح الحياة المطلسم ما زال معلقا في الهواء يشع بذلك البريق الذهبي الذي قهر دفاعات القبر المختار الخارجية..

حوله على مساحة واسعة تناثرت أشلاء الفرعون العائد وثلاثة من جنود الموت وقد تشربت الرمال بدمائهم التي كانت سوداء يتصاعد منها بخار داكن له رائحة كريهة نفاذة..

نظرت سدوم بعينين متألقتين إلى مدخل القبر الذي انزاح ببطء كاشفا عن درجات حجرية هابطة إلى عمق ظلام دامس ورهيب، ونظرت إلى حزقيل قبل أن تقول:

«هل أنت جاهز يا حليفي العزيز؟ لقد تجاوزنا أولى العقبات.. ولا ندري ما ينتظرنا في جوف القبر».

نظر إليها وقال متهكما وهو يشبك ذراعيه الفتيتين أمام صدره:

«هل بدأ الخوف يتسلل إلى قلبك يا حليفتي العجوز؟!».

التمع الغضب في عينيها عندما قال مكملا وهو يهز كتفيه:

«لو أردتِ البقاء هنا مع ذئبك الأثير ريثما أعود بمخطوطات لعنة الشفق الأسود، فلا مانع عندي أبدا، و...»..

قالت وقد بتر عبارته وارتسمت ابتسامة واسعة على شفتيه وتألقت عيناه ببريق ظفر قوي:

«كفى.. لقد تحالفنا لنقتحم هذا القبر معا.. من دوني لن تتمكن من تجاوز ما يقبع بداخله يا حزقيل.. حذارِ أن تنسى أنه لولا سدوم لبقيت للأبد عاجزا عن الولوج إلى القبر.. لا تنسَ هذا أبدا»!

احتقن وجه حزقيل واشتعلت عيناه بغضب كالسعير، لكنه سيطر على نفسه بصعوبة بالغة قبل أن يقول:

«حسنا يا سدوم.. لن أنسى.. أبدا!».

وعلى الفور بدأوا في دخول القبر بالترتيب الذي رآه النذير بقدراته الفائقة..

خمسة من جنود الموت.. يتبعهم حزقيل بخطى واسعة.. ثم ذئب سدوم الضخم تتبعه هي وهي ترفع رأسها عاليا، وأخيرا اثنان من جنود الموت..

وكأنهم تلقوا إشارة خفية بهذا.. تحرك الثلاثة الباقون من جنود الموت ووقفوا في قوس كبير أمام المدخل لحمايته ضد أي هجوم مباغت!!

وما هي إلا لحظات حتى غيَّبت الدرجات الحجرية الهابطة، والظلمة المدلهمة فريق الشر في قلب القبر المختار!!

* * *

«أعطني هذا الحصان».

دوى الصوت في أذنه فاستدار مفزوعا ليفاجئه وجه بنامون المنهك المترب وعيناه الزائغتان.. فانتفض كالملسوع واستل سيفه الصقيل ووضعه على رقبة بنامون الذي لم يبالِ بسيف الموت المسلط فوق عنقه وردد مرة أخرى:

«أريد هذا الحصان بأي ثمن!!».

نظر من جديد نحو بنامون فوجد نظرة التوسل في عينيه فقرر أن الوقت حان ليكسب بعض الأموال.. فأعاد السيف إلى جرابه الجلدي وقال بصوت متدرج في القوة:

«بأي ثمن؟!».

أخرج بنامون من نطاقه صرة مليئة بالعملات الذهبية وقال بصوت نافد الصبر:

«هل يكفي هذا؟!».
تناول الأعرابي صرة العملات ونظر نحوها في جشع ثم قال:
«تكفي.. تكفي تماما».
ناول الأعرابي المقود إلى بنامون الذي امتطى الحصان وهو ينظر إلى الشمس التي أوشكت على المغيب.. ثم رشف شربة ماء من قربة بحوزته وانطلق بحصانه نحو قلب الصحراء..
والخطر..

* * *

تضاربت مشاعر كل من سدوم وحزقيل وهما يعبران المدخل المؤدي إلى داخل القبر الذي تمتد ممراته الداخلية إلى أعماق كبيرة بداخل باطن الأرض..
الحر الخانق الممتزج برائحة الهواء الفاسد والقدم ورائحة الموت النفاذة يمتزج بمخاوفهم وآمالهم ليصنع بداخل كل منهم مزيجا رهيبا من المشاعر المخيفة..
الظلام الذي لم تستطع المشاعل أن تكسر حدته ولا رهبته يطغى على كل شيء ويخفي بأعماقه المدلهمة الموت وربما ما هو أخطر..
خمسة من الجنود المدرعين المدججين بالسلاح يتقدمون كلا من حزقيل وسدوم.. وخلفهم يتحرك في توتر ذئب سدوم بالغ الضخامة..
الممر الضيق يحتويهم بصعوبة.. الرائحة الكثيفة تشعل التوتر بداخلهم.. المسيرة تتقدم في حذر.. ضوء المشاعل يسقط على الجدران في حياء ليظهر تلك الرسوم الغامضة التي بدا وكأنها ستغادر الجدران المغطاة بغبار الزمن وتهاجم المنتهكين ومدنسي القبر..
لا أحد ينكر أن القبر يشع طاقة نفسية سلبية.. تنذر في كل خطوة يخطونها بالهلاك المحقق..
سدوم لا تستطيع أن تفارق عيناها جسد حزقيل الفتي الصلب الذي صهرته قوى حاران وأعادت تشكيله من جديد.. ونظرات الحسد تكاد تفجره.. على الرغم من ذلك السواد الذي كساه وجعله قطعة مخيفة أخرى من الظلام..
حزقيل يرسم بداخله خطة جديدة للسيطرة على مجريات الأمور بعد أن صار قاب قوسين أو أدنى من الظفر بمخطوطات اللعنة.. وظل بداخله يتساءل عن نصف القوة الذي ترغب به سدوم..
انتهى الممر عند نقطة محيرة ومخيفة..
فالممر في نهايته يتشعب إلى ممرين جديدين مظلمين.. ويحتاج منهم الأمر إلى التوقف ومناقشة

الأمر.. بل وإلى الاختيار وربما التفرق أيضا.. وهذا لا يخدم خطط أي منهم..
توقف قائد الجنود ومعه توقف الجنود الخمسة وكل منهم قد شهر سيفا ضخما تحسبا لأي هجوم غادر، في حين استدار حزقيل بكيانه الأسود وقوته المفرطة ونظر نحو عيني سدوم اللتين تبرقان في الظلام كعيني ذئب ثم قال بصوته المخيف:
«المعضلة الكونية الدائمة.. أي الطرق ستختار؟! أي السبل ستسلك؟!».
صمتت سدوم وهي تجيل بصرها بين الممرين المظلمين اللذين يبدوان كأبواب مشرعة نحو الموت والهلاك، ثم قالت:
«حكيم أنت يا حزقيل.. وكأن الموقف يستدعي تلك السفسطة البلاغية كلها.. سأختار أنا الممر الأيمن.. ما قولك؟!»..
ساد الصمت للحظات وكأن حزقيل يزن الأمر في رأسه ويقيس قوته قبل أن يجيب عن معضلته الكونية وقال:
«بالطبع غير موافق.. لا مجال لانفصالنا يا سدوم.. لن أتركك حرة لتحيكي المؤامرات من خلف ظهري».
دوت ضحكة رفيعة ماجنة من بين شفتي سدوم الضامرتين ولمعت عيناها في جزل وهي تقول:
«أما زلت خائفا من سدوم يا حزقيل على الرغم ممَّا امتلكت من قوة؟ ما أنا إلا عجوز ضعيفة.. وعلى الرغم من ذلك أفزعك!».
التمع الغضب في عيني حزقيل ومن بين يديه تسللت تلك الخيوط السوداء وكأنه يرغب بالفتك بسدوم.. لكن زمجرة من الذئب الضخم جعلته يحجم ويقول:
«كُفي عن هذه المهاترات يا سدوم.. لا مجال لانفصالنا بأي حال من الأحوال بداخل هذا الفخ المميت.. ولا مجال لاستعراض القوة الآن.. كل شيء سيأتي في حينه.. الخطة الآن في كلمتين.. سيسلك جنديان من جنودك أحد الممرين وعند تأمينه نعبر.. لا مجال للمجازفة الآن».
تخلت سدوم عن أسلوبها الساخر وقالت:
«خطة جيدة بالفعل.. لولا أنها ستقلص عدد جنودي لأقل من النصف، لكن لا بأس بها».
قالتها ثم أشارت للجنود.. فانفصل أربعة من الجنود ودخل كل اثنين إلى ممر من الممرين.. ومع عبورهم خف الضوء وعاد الظلام ليتسيد الموقف من جديد..

* * *

عندما عبر الجنود الممرين، حمل كل زوج منهما مشعلا صغيرا يضيء لهما الطريق عبر الممر المظلم.
في الممر الأيمن سار الجنديان وقد أشهر كل واحد منهما سيفه أمام وجهه، وبدت ملامحهما

جامدة كالصخر، أو هي أشد من الصخور في جمودها، لم يساورهما أي خوف أو قلق مما قد يواجهانه في الممر، فكيف لاثنين من جنود الموت الثلاثة عشر أن يشعروا بالخوف وقد نسوه طوال حياتهم الماضية عندما وهبوا أنفسهم للشر الخالص وقبلوا بسيادته عليهم ممثلا في الفرعون الذي ضحى بنفسه بعد سبات طويل من أجل اختراق دفاعات القبر المختار؟!

كان الظلام في الممر دامسا، وتهب عليهما رائحة خانقة على نحو لم يكن ليتحمله أي بشري عادي على الإطلاق، لكنهما من جنود الموت، وأمور تافهة كهذه لا تعد عائقا، و...

«توقف.. لقد سمعت شيئا ما».

قالها حامل المشعل بصوت جامد كملامحه وهو ينظر إلى زميله الذي قال باللهجة ذاتها:

«لم أسمع شيئا».

قال حامل المشعل وهو يمده للأمام قليلا:

«لكني واثق من أنني سمعت صوتا يأتي من هذه الجهة».

قال الآخر وهو يهز رأسه ببطء مخيف:

«دعك من هذا الهراء ودعنا نواصل الطريق».

استمر الاثنان في سيرهما قليلا.. قبل أن يحدث ما حدث فجأة!!

فجأة.. انفتحت الأرض تحت أقدامهما، وطار المشعل في الهواء، وعلى الرغم من هول المفاجأة لم تهتز شعرة واحدة في جسدي الجنديين، وعلى الفور تشبث كلاهما بحافة الحفرة الأرضية، وتبادل الاثنان نظرة جامدة قبل أن يبدآ في الصعود من جديد ليستكملا الطريق..

توقف الاثنان فجأة وقد شعرا بشيء ما يمسك أقدامهما بقوة رهيبة ويجرهما نحو الأسفل!!

حاول الاثنان أن يقاوما قوة الجذب الرهيبة.. أخذا يضربان بسيفيهما ضربات قوية شعرا بها تمزق ما يمسك بهما، لكن دون جدوى!! ما زالت تلك القوة الرهيبة تشدهما إلى قاع الحفرة..

لا يعلمان ما قد يكون بانتظارهما في هذا القاع المظلم الرهيب!!

نظر الاثنان إلى الأسفل، وانعكس على وجهيهما ذلك البريق الأخاذ.. لكنهما لم يشعرا بالفضول أو اللهفة لمعرفة مصدره، كل ما فعلاه هو الاستمرار العابث في محاولات الإفلات من تلك القوة الرهيبة التي تشدهما لأسفل.. ومع اقترابهما لاح لهما مصدر البريق الأخاذ.. إنها رماح مشرعة رءوسها مصوبة لأعلى.. تستعد لاختراق أي جسد بائس قدره أن يهوي إلى قاع هذه الحفرة فيتمزق جسده بلا رحمة.. وبلا هوادة!!

* * *

وكأنها قوة مجهولة.. وشر رهيب عظيم السيطرة.. أصبح سيد الموقف..
وفي اللحظة ذاتها التي انفتحت فيها الأرض في حفرة تحت الجنديين في الممر الأيمن.. راحت جدران الممر الأيسر تهتز بقوة رهيبة، وأخذت الأرض ترتج بعنف تحت أقدامهما، وراح الاثنان يتلفتان حولهما دون أن يبدو على ملامحهما الجامدة أي علامات للخوف على الإطلاق!!
ما يحدث الآن لَهُوَ أمر يفوق أي شر عرفاه في الماضي البعيد عندما قبلا خدمة الفرعون الرهيب وأصبحا من عبيده وأتباعه المخلصين.. وحتى اليوم الذي أتت فيه الساحرة سدوم وحررتهما من الأسر في وادي الجن البعيد مع باقي جنود الموت!!
على الفور بدأ الجنديان في التراجع نحو مدخل الممر، لكن ما حدث منعهما من التحرك خطوة واحدة في أي اتجاه!!
الأرض بدأت تتحطم حجارتها وتتناثر أمامهما وخلفهما وتتراكم بسرعة رهيبة صانعة تلك الحواجز الصخرية التي راحت ترتفع نحو سقف الممر بسرعتها المذهلة، وفي اللحظة ذاتها أخذت جدران الممر تتحرك نحو الداخل.. ومع كل لحظة تمر كان الممر يزداد ضيقا مع انطباق الجدران الحجرية الخشنة.. حتى أصبح الجنديان لصيقين ببعضهما لا يقدران حراكا، بات من الواضح أن مصيرهما في هذا الممر هو الموت سحقا بين جدران الممر!!

* * *

صرخة رهيبة انطلقت ترجُّ المقبرة الساكنة وتهزها حجرًا حجرا.. وبدا التوتر على وجوه المنتظرين عند مفترق الممرين..
سدوم نظرت إلى ذئبها الذي كشر عن أنيابه ومخالبه وانبعثت من خطمه زمجرة مخيفة..
حزقيل كوَّر يديه وتلك الخيوط السوداء تنبعث ببطء من بين أصابعه وكأنه يتحسب لصد هجوم آتٍ عليهم..
واثنان من جنود الموت تحركا بسرعة كافية ليقفا أمام مفترق الممرين..
ومن قلب الظلام.. بات ذلك الصوت مسموعا.. صوت حفيف عجيب.. لا هو صوت جسد يزحف على الأرض.. ولا هو حفيف رياح أو أجنحة تخفق في قلب الظلام.. بل صوت شيء وكأنه يغلي.. ويقترب بسرعة مهولة من مدخل الممرين..
وأمام الأعين الذاهلة انقضت ألسنة من اللهب الأحمر الممتزج بالأزرق الباهت على الجنديين عند المدخل.. وعلى الفور تلوت الألسنة وكأن قوة حية تسيطر عليها وراحت تلتف حول الجسدين لتشتعل النار فيهما وتتعالى الصرخات تهز المقبرة من جديد..

قفز حزقيل للوراء بسرعة تليق بالقوة الرهيبة الكامنة في جسده الفتي الجديد..
واتخذت سدوم من جسد ذئبها الضخم درعا تلوذ به، وما فتئ هذا الأخير عن إطلاق الزمجرة المخيفة..
انتهت ألسنة اللهب من التهام الجنديين..
وأمام أعين سدوم وحزقيل علت الألسنة حتى بلغت سقف المقبرة.. وتكوَّن أمامهما ما بدا لهما كجدار عظيم من النار برزت له عشرات العيون الغاضبة راحت تحدجهما بنظرات لا تحمل إلا معاني الموت والهلاك!!
«الموت لكل من يحاول المرور إلى الستر المقدس.. الموت لكل من يريد أن يدنس حرمة الشر الكبير والخطر الأعظم.. الموت.. الموت.. الموت!!».

* * *

«سنتحرك الآن».
قالها النذير بصوته العميق فتسلطت النظرات على وجهه الخفي غير الظاهر المتواري خلف مسوح الرهبان التي يرتديها، وفي يده لمع ذلك المنجل الحاد الكافي لحصد أرواحهم جميعا..
تقدم سهم إلى الأمام وهو يقبض على خنجره وقد منحه ذلك الزي الجديد منظرا مهيبا وقال بصوت متوتر:
«هل عبروا المانع الثاني؟ هل عبروا جدار النيران؟!».
استدار النذير وسار بخطوات قوية وقال بصوت عميق:
«هم على وشك عبوره.. ويجب أن نكون في المكان المحدد في الوقت المناسب».
«أي مكان هذا الذي يجب أن نوجد فيه؟!».
قالتها عالية بصوت واجف راجف وقد أثار خوفها اقتراب الخطر.. وعندما لم تجد ردا من النذير كررت سؤالها ليجيبها دون أن ينظر لها:
«القبر الملعون يا عالية.. القبر الملعون».
ارتجف جسد عالية وفي جسد كل منهم سرت قشعريرة باردة.. وأغمض كل منهم عينيه عندما غادروا الكهف عندما فاجأتهم تلك الدوامة الضوئية التي برزت في منتصف الفراغ.. وظهرت كندف فضية تتماوج في خفة..
توقف الجميع مذهولين أمام تلك الظاهرة العجيبة.. وأخذت قلوبهم تدق في خوف.. وعقولهم تعمل في سرعة رهيبة لاستيعاب كل هذه الأمور الخارقة التي يكشف عنها الوقت تباعا أمام

عيونهم..
أشار لهم النذير ليتقدموا..
فتقدموا بعد تردد وخوف عاتٍ يتسرب إلى أرواحهم.. وقد تحول النذير أمام عيونهم مع انعكاس تلك الأضواء الرقراقة فوق ملابسه القاتمة إلى رسول للموت..
استدار النذير ليواجههم.. وعلى الرغم من قوة الضوء الناتج من تلك الدوامة الضوئية فإن وجهه ظل متواريا خلف حجب الظلال..
«الآن اتبعوني ولا تخشوا شيئا.. إن هي إلا وسيلة للعبور وقطع المسافة التي تفصلنا عن مكان المعركة الفاصلة».
لاحظ النذير التماعة الخوف تتراقص في العيون، فاستطرد قائلا:
«لقد اختارتكم الأقدار لتكونوا جنود الخير ودرع البشرية ضد قوى الظلام.. تقدموا.. لا تخشوا شيئا فإن الأقدار لا تخطئ أبدا».
تقدموا جميعا نحو الدوامة الضوئية التي عبرها النذير في بساطه لتتوهج بضياء يغشى العيون..
تقدموا والخوف يعزف لحنه البارد في قلوبهم..
تقدموا وأنفاسهم تكاد تتوقف من الرعب..
تقدموا وهم على يقين من أن كل خطوة تقربهم من الموت..
تقدموا جميعا.. وابتلعتهم الدوامة والضياء.. ليبدأ الفصل الأخير من قصة اللعنة التي بدأت منذ قرون لا عدد لها..
عبروا جميعا فتلاشت الدوامة.. وذهب الضياء.. وساد الصمت والظلام كل شيء..

* * *

اشتعلت النيران أمامهم لتصنع جدارا هائلا من اللهب رفع حرارة المقبرة وجعل الهواء شحيحا وهم ينظرون نحوه في خوف وفزع، خاصة مع تلك العيون المشتعلة الغاضبة التي تطل من داخل الجدار وتلك الأصوات المفزعة التي ألقت تهديدها ولم تتوقف عن الصراخ والعويل..
وقف جنديا الموت الباقيان وقائدهما أمام الجدار وسيوفهم مشهرة يحمون سيدتهم وخلفهم وقف الذئب الذي التمعت عيناه في قوة وعلى ملامحه ظهر الغضب الحيواني الوحشي.. دون أن يأبه للنار التي تتوهج أمامه والتي يكفي مرآها ليتملك الذعر قلوب الحيوانات المتوحشة التي على وجه الأرض..
وبجوار سدوم وقف حزقيل بقامته السوداء بعيدا عن الأرض بقدم كاملة.. يتطلع نحو جدار

النار بعينين مشتعلتين وتلك الخيوط السوداء تتلوى من حوله وتتصاعد من جسده أبخرة سوداء وكأنه تم حرقه منذ لحظات..

المانع الثاني كان مخيفا..

النار التي يخشاها كل المخلوقات..

نار مخيفة لها آلاف العيون المحدقة في غضب.. ولها أصوات صارخة مفزعة تخلخل القلوب من الصدور..

نظرت سدوم إلى حزقيل وقالت بصوتها القبيح لتحثه على الحراك:

«لِمَ لا تستخدم قوى حاران لتقهر هذا الجدار الناري.. أم أن قوتك لا تقهر فقط إلا الضعفاء؟».

استدار حزقيل ونيران الغضب تلمع في عينيه وانعكاس النيران المتوهجة يمنح لوجهه منظرا جهنميا وقال:

«لا تثيري غضبي الآن يا سدوم.. ليس هذا الوقت المناسب ليختبر كل منا قوته، خاصة مع تضاؤل قوتك مع مرور الوقت».

ثبَّت عينيه على وجهها في تحدٍّ حتى أشاحت بوجهها فعاد ليكمل قائلا:

«على الرغم من حديثك الخبيث فإن بعض كلماتك تحتوي على بعض الحكمة.. فلِمَ لا أجرب بالفعل قوى حاران؟!».

قالها ثم استدار يواجه الجدار الناري وابتعد جنود الموت وقائدهم عن طريقه ليفسحوا له المجال ليستخدم قوته الخارقة التي لا يعرف حدودها ولا مقدار بطشها حتى الآن..

استقام حزقيل وارتفعت قدماه عن الأرض أكثر فبدا جسده كثريًّا مظلمة معلقة في الفراغ ثم بدأت الأبخرة والسحب الرمادية تتكاثف من حوله وأخذت تلك الخيوط السوداء تتماوج كحيات سوداء..

شهقت سدوم وهي تشاهد تلك القوى وهي تتشكل وتفصح عن جبروتها، وحسدت حزقيل على تلك القوة التي امتلكها.. وفي رأسها دار السؤال المخيف:

«كيف ستتخلص منه في نهاية الأمر؟!».

نفضت أفكارها وعادت تتطلع إلى حزقيل الذي تحول إلى كيان أخطبوطي قاتم أخذ يدور حول نفسه وآلاف من الخيوط السوداء الداكنة تتلوى من حوله وتصنع ما يشبه السوط العملاق..

تراجعت إلى الخلف في خوف وظهر القلق على وجهها المتغضن وهي تتطلع إلى هاتين العينين الناريتين في خوف ثم إلى حزقيل الذي تحول لمارد أخطبوطي أسود.. وتتجاهل تلك الأصوات التي أصبحت تصم الآذان..

حجب حزقيل لفح النيران المتصاعد عنها وبدأ حجمه يتضاعف حتى حجب الضوء أيضا.. ثم

توقف عن الدوران للحظات..
لحظات سكنت فيها الأصوات..
كل الأصوات..
ثم انطلقت صرخته كجحيم غاضب ترج القبر وتتردد عبر ممراته قبل أن ينقض على جدار النيران..
في كل عين اندفع خيط كالرمح ليستقر بداخلها ويعبرها.. ثم يحتويها..
تشتتت النيران..
تعالت الصراخات المنذرة بالويل..
تعالت همهمات حزقيل الذي أطلق صرخة ألم هائلة قبل أن يتوهج الجدار الناري ويتلاشى ومعه يسقط حزقيل أرضا.. خائر القوى.. لا حول له ولا قوة..
أسقط في يدي سدوم التي أشارت لجنودها بمحاصرته..
حاصره الجنود الثلاثة وأشهروا سيوفهم في انتظار الأمر الثاني بتمزيق حزقيل إربا.. لكن سدوم لم تصدر الأمر أبدا..
لقد أدارت الأمور كلها في عقلها ووزنتها.. ولم تجد بدا من أن تتركه.. فربما كان هو سبب نجاتها من أحد الفخاخ التي يعج بها هذا القبر الذي يحميه سحر الأبالسة..
أشارت للجنود فتراجعوا وعادوا إلى مواقعهم من جديد..
ليعودوا لنقطة الصفر..
إلى مفترق الطرق..
وعاد السؤال من جديد ليدوي في رءوسهم:
أي الممرات يختارون؟!

* * *

ماذا يحدث لهم؟!
دار السؤال في عقول كل من سهم وعالية وسهيل ونواس وهم ينتقلون عبر الدوامة والآلام تكتسحهم وتبعث في أجسادهم التي فقدوا التحكم فيها قشعريرة مخيفة..
وكان أشدهم خوفا هو سهيل الذي فقد شجاعته المؤقتة وأخذ يلعن في سره ذلك اليوم الذي غادر فيه مضارب قومه ليمر في هذه الأهوال قبل أن يسقط في هذه الدوامة الجهنمية التي تصليهم آلاما لا تطاق..

مرت الثواني القليلة التي قضوها بداخل الدوامة كدهر..
الألم كان عنيفا.. لكنهم احتملوه.. وانتهى الأمر ليتجسدوا بقلب الواحة..
واحة نبتا..
وكما أصابهم الألم في لحظات غادرهم في لحظات.. ليلتفوا حول النذير من جديد.. وكل منهم يتمنى لو يفر أو تنشق أرض الواحة الرملية لتبتلعهم في جوفها بعيدا عن تلك الأحداث الرهيبة المتلاحقة..
وكأنما شعر النذير بما يدور داخل صدورهم وعقولهم أو كان يتوقع ما حدث فأشار لهم بأن يمسك كل منهم بيد الآخر على شكل دائرة.. ثم لمس نواس مجرد لمسة عابرة.. انتفضت لها أجسادهم جميعا عندما عبرت أجسادهم صاعقة باردة.. شحذت عقولهم وقلوبهم بطاقة إيجابية رهيبة.. جعلتهم ينسون تلك اللحظات السيئة التي مروا بها خلال الفترة السابقة.. وجعلت عيونهم تتألق بنظرات جذلة..
تراصوا أمام النذير كجنود مدربين.. يرتدون جميعهم زيا موحدا.. يمتشق كل منهم سيفه في يده.. نظرة صارمة في عيونهم ممتزجة بتصميم هائل..
استدار النذير وتحرك في اتجاه القبر الملعون.. وقال بصوته العميق:
«لقد هزمت قوى الشر المانع الثاني.. ومعنى ذلك أن الطريق إلى المخطوطات قد قصر ومعه الوقت».
لم يعقِّب أي منهم على حديثه وانطلقوا يقطعون الواحة وسط الظلام أمامهم النذير كرسول الموت.. من يراهم يعتقد أنهم مجموعة من الملائكة يقودهم شيطان..
كان منظرهم مخيفا.. لكنه كان سيعطي الأمل لمن على دراية بكل هذه الأمور التي تحدث والتي لو انتهت لما علم بها بشري آخر غير من خاض غمارها.. لكن لو انتصر الشر واستمرت هذه السلسلة اللانهائية من الأحداث المخيفة.. فإن كل طفل في العالم سيكون على علم بها؛ لأنه في لحظة ما سيكون الضحية.. وسيفقد أثمن ما يملك.. لمجرد أنه وجد في الوقت والمكان غير المناسبين..
تقدموا بسرعة كبيرة، ومع الوقت شعروا بالاختلاف الكبير الذي صنعته الصاعقة الباردة.. لقد صاروا جميعا على خط عقلي واحد.. وأصبحت كل فكرة تُطرح تتلقاها العقول كلها..
كان تطورا مذهلا ومخيفا.. ولكنهم تقبلوه كأي شيء آخر..
قطعوا مسافة كبيرة إلى أن خرجوا خارج الواحة.. وعلى البعد رأى كل منهم الضوء الذي يتألق على البعد.. وخفقت قلوبهم من جديد..
فها هم قاب قوسين أو أدنى من بغيتهم..
وها هو القبر الملعون أمامهم.. يضيئه ضوء ذهبي متألق صادر عن مفتاح حياة فرعون عجيب..

يضفي على القبر درجة من الهيبة والجلال..
قبض كل منهم على سيفه وتقدموا نحو القبر..
ظل كل شيء صامتا.. وهدأت الصحراء وكأنها تترقب اللحظة الحاسمة..
تقدموا في خطوات حذرة.. وسيوفهم تتوهج مع انعكاس الضوء البعيد على أسلحتها المصقولة..
ثم دوى صوت النذير القوي محذرا:
«استعدوا».
قالها وبعدها بلحظة واحدة انقض جنود الموت الثلاثة على الفريق وتعالت أصوات السيوف.. وسقط أول الضحايا..

* * *

«يجب أن ننفصل».
قالتها سدوم وهي تتطلع إلى حزقيل الذي عاد إلى هيئته السابقة من جديد وإن التمعت عيناه ببريق الظفر بعد أن قهرت قوته جدار النار الهائل..
نظر نحوها ثم ابتسم ابتسامة سوداء وقال بدهاء:
«وكأنك تقرئين أفكاري يا سدوم.. يبدو أن الخطر يشحذ قواك!!».
نظرت سدوم نحوه وعلى وجهها المتغضن نظرة كارهه ثم أشارت لجنودها وسلكت الممر الأيمن.. في حين انطلق حزقيل كالشهاب ليخترق ظلمة الممر الأيسر..
قبل أن تختفي بداخل الممر توقفت وهي تحدث نفسها بصوت مسموع:
«لنا لقاء يا حزقيل.. وصدقني.. سيكون الأخير والحاسم».
قالتها ثم دلفت داخل الممر أمامها ثلاثة من جنودها وخلفها الذئب الضخم..
المشاعل أضاءت الممر.. وفي أثناء سيرها أخذت تتأمل النقوش التي تملأ الجدران الحجرية وكأنها تلهي نفسها عن الخطر المقبل..
تقدم القائد الجنديين وسيفه مشهر وعيناه تفحصان كل شيء..
كان تقدمهم بطيئا لكنه حذر وآمن.. واستطاع أن يكشف عن الفخ الذي أطاح بالجنديين واحتواهما بداخله.. واستطاع أن يتفاداه..
أخذ قلب سدوم يدق في عنف وأذناها تنصتان بشدة وعيناها تتفحصان كل شيء في دقة بعد أن كشف القائد عن الفخ الأول..
تقدموا ببطء أكثر، ثم تجمدوا جميعا عندما دوى الفحيح الغاضب المنذر بالهلاك..

نظرت سدوم حولها في قلق، وتوتر الذئب في وقفته مع صدى الفحيح الذي أخذ يتردد في الممر خافت الإضاءة.. وبتوتر أخذت سدوم تردد تعويذة ما تستمد منها الحماية..

وما إن انتهت منها حتى توهج سقف الممر بضوء باهت أحاله لنهار.. وفي الثانية التالية تحول المكان لجحيم..

أفعى هائلة لا يقل طولها عن ثلاثة أمتار يبلغ قطرها نصف متر على الأقل.. اندفعت كإعصار عاتٍ.. وأنشبت أنيابها في حلق قائد الجنود - الجزء غير المدرع من جسده - وأطاح ذيلها بالجنديين وسدوم..

في اللحظة نفسها كان حزقيل يواجه حارس القبر..

فعندما اندفع حزقيل كالإعصار داخل الممر الأيسر لم تساعده قوته ولا سرعته ليتخطى الفخ المحكم المنصوب.. فسقط أسيرا في قلب شبكة عنكبوت هائلة شديدة القوة والمتانة..

حاول مرارا أن يفك قيده، لكنه كان في كل محاولة يتورط أكثر في مستنقع الخيوط اللزجة..

الغضب الهادر هو الشيء الوحيد الذي يذكره.. بعدها كان حزقيل حرا..

فالغضب أشعل قواه وجعلها تنطلق كإعصار عاتٍ لتتمزق الخيوط التي تكبله كلها.. لينتصب واقفا ثم يتجمد في مكانه أمام المخالب الحادة هائلة الحجم التي برزت أمامه مع أعين عنكبوت عملاقة أخذت تتطلع نحوه في شراسة..

تراجع حزقيل إلى الخلف.. وتلاقت عيناه المشتعلتان بأعين العنكبوت العملاق.. ثم وقف متأهبا لا تلامس قدماه الأرض، مباعدا بينهما.. ويداه أمامه كالحراب تتلوى من قلبها تلك الخيوط السوداء..

ساد الصمت للحظات..

صمت متوتر حذر..

صمت كالذي يسبق العاصفة..

ثم انقض العنكبوت على حزقيل..

وحانت اللحظة الحاسمة..

* * *

«أخيرا وصل نبتا.. أخيرا عاد إلى موطنه وإلى حيث يقبع جاثما فوق صدر الصحراء القبر الملعون.. أخيرا عاد بعد أن نفق الحصان الأصيل.. وعلى الرغم من الجوع والعطش الشديدين.. لكن لا وقت لأي شيء.. فالخطر قارب على النهوض.. والويل كل الويل لو لم يصل في الوقت المناسب».

دارت هذه الأفكار في عقل بنامون وهو يعدو بكل قوته عبر الواحة قاطعا المسافة المتبقية عدوا نحو القبر الملعون.. يقبض على صندوق البذور وكأنه يقبض على روحه التي ستفارقه..
أخذ يعدو ويعدو.. ثم توقف منبهرا أمام مشهد القبر المتألق في قلب الليل ومفتاح الحياة الذي يشع الضوء كشمس وليدة..
تقدم أكثر وأكثر ثم توقف وأفرغ ما في أحشائه..
فأمام القبر.. تناثرت الجثث والأشلاء في كل مكان وحولت الدماء الرمال الصفراء اللامعة إلى رمال قاتمة مصبوغة بلون أحمر داكن لوحه الضوء الذي يشع في كل مكان..
كان يبدو أن معركة طاحنة قد وقعت في هذا المكان منذ دقائق قليلة..
أشاح بوجهه في اشمئزاز ثم تقدم نحو مدخل القبر وقلبه يدق كطبول الحرب..
عبر المدخل الغارق في الدماء.. ثم دلف إلى الممر المظلم..
وقبل أن يخطو خطوة أخرى انطلقت صرخة هائلة صمَّت أذنيه وزادت اضطرابه.. وأخيرا أفقدته الوعي.. ليسقط وتتلطخ ملابسه بدماء من سبقوه..
تلك الدماء التي سالت منذ دقائق قليلة..
فبعد تحذير النذير لعالية وسهيل وسهم ونواس.. انقض الجنود الثلاثة كالصاعقة وسيوفهم تخترق الهواء في سرعة ومهارة لا يحسدون عليهما..
تلقى سهم سيف أحد الجنود فوق سيفه ليطير من يده ويتزلزل جسده.. في حين تلقى النذير السيف الثاني فوق منجله وحصد الجندي المهاجم في لمح البصر.. في حين شق سيف الجندي الثالث الهواء وشق جسد نواس طوليا.. ليموت قبل حتى أن يتأهب لصد الهجوم..
اشتبك النذير مع الجندي الثاني، في حين تراجع سهم أمام ضربات الجندي الأول التي أخذ يتفاداها في مهارة ولكن إلى متى؟!
أجهز النذير على الجندي الأول.. في اللحظة نفسها التي حاول فيها سهيل أن يساعد سهم ليتلقى ضربة هائلة فوق كف يده لتطيح بكف يده في عنف.. ولولا هجوم النذير الأخير للاقى سهم وسهيل الموت بسيفه الحاد..
هاجم النذير الجندي الأخير في سرعة رهيبة وأطاح به بعد أن شجه نصفين بمنجله الحاد.. ثم تقدم نحو المدخل وهو يشير لعالية أن تتبعه فتبعته في سرعة في حين عاون سهم سهيل الذي كان يتألم في عنف.. وتبع النذير دون حتى أن يضمد جراح سهيل الذي سالت دماؤه لتغرق كل شيء..
عبروا المدخل ثم توقفوا للحظات قام فيها النذير بتضميد جراح سهيل بطريقة خارقة.. فقد نثر

مسحوقا لامعا فوق مكان البتر لتحدث شرارة لحظية وتتصاعد رائحة شواء عنيفة قبل أن يصرخ سهيل ويتهاوى.. فيلمسه النذير لينتفض واقفا كالسحر..

توغلوا بداخل الممر أكثر.. ثم توقفوا في أماكنهم بعد أن سمعوا الأصوات المتصارعة التي تصدر من الممرين..

فبداخل الممرين كانت المعركة الأخيرة تدور رحاها بين سدوم والأفعى الهائلة.. وبين حزقيل والعنكبوت هائل الحجم الذي أطلق عليه القدماء اسم حارس المقبرة..

كان هجوم الأفعى ضاريا..

أطاحت بقائد الجنود دون أن يملك الفرصة لمقاتلتها وأطاحت بسدوم والجنديين الآخرين.. ولكن ردود الفعل اختلفت..

فقد هبَّ الجنديان واشتبكا مع الأفعى.. في اللحظة نفسها التي هجم فيها عليها الذئب الضخم.. وفي الخلف استندت سدوم على الجدار الحجري وقامت واقفة على قدميها الهزيلتين وكل عظمة في جسدها تئن..

أطاحت الأفعى بأحد الجنود الذي أغمد سيفه في جسدها القوي.. في اللحظة نفسها التي أطاح فيها الجندي الآخر بذيل الأفعى بضربة هائلة.. وبعدها كان قد تمزق بين أنياب الأفعى..

نظرت سدوم بخوف هائل نحو الأفعى الغاضبة التي لم يوقفها عن الفتك بها إلا وجود الذئب الذي يقاتلها في ضراوة وشراسة..

ومع الوقت بدأت كفة الأفعى في الرجوح.. ما حفز سدوم على استخدام سحرها.. وفي اللحظة نفسها التي تمزق فيها جسد الذئب كانت قد أتمت التعويذة.. ليندلع لسان هائل من اللهب ليحتوي جسد الأفعى الثائرة ويحيلها رمادا.. لتسقط سدوم منهكة وتتساقط دموعها في غزارة؛ فهي لم تكن قريبة من الموت مثلما كانت في هذه اللحظات العصيبة.. وفي عقلها برزت صورة حزقيل بجسده القوي وقوته الخارقة..

حزقيل الذي انقض عليه العنكبوت في سرعة رهيبة وهو يستعد لتمزيقه بمخالبه..

لم يتحرك حزقيل قيد أنملة..

شهر يديه كالحراب وانطلقت من بينهما الخيوط السوداء وتصاعدت الأبخرة الرمادية، وفي جزء من الثانية كانت الخيوط السوداء كالنصال الحادة تمزق جسد العنكبوت الهائل.. الذي سقط متمزقا أرضا وانطلقت منه صرخة هائلة أفقدت كل من في القبر وعيه.. ما عدا شخصين:

حزقيل..

والنذير..

اندفع النذير بعد أن سقط جنوده أرضا.. نحو الممر الأيسر ثم توقف مبهوتا..
فبين يدي حزقيل كانت ترقد تلك المخطوطات القديمة التي تحتوي على سر اللعنة.. وكان صوته يردد التعويذة..
يرددها بقوة وجذل..
اندفع النذير كالإعصار واشتبك مع حزقيل الذي فاجأه انقضاض النذير..
اندفعت الخيوط السوداء لتكبل النذير في قوة وحزقيل يواصل ترديد التعويذة.. والنذير عاجز عن الحركة..
تلاشى تأثير الصيحة فاستيقظ الجميع من غيبوبتهم..
سدوم اندفعت نحو الممر..
ثم عبرت الباب الذي يغلقه في قوة ودلفت إلى تلك القاعة الواسعة الخالية وتألقت عيناها في انتصار..
لقد وصلت لهدفها أخيرا..
تقدمت من منتصف الغرفة لتنشق الأرضية ويصعد تابوت حجري ليستوي في مركز الغرفة..
تقدمت هي منه والفرحة تكاد تجن عقلها..
لقد ساقها حظها الحسن إلى ما تصبو إليه..
وها هو الصندوق الذي يحتوي على نصف القوة.. النصف الذي لم يعلم عنه حزقيل شيئا..
تمددت بداخل الصندوق الذي أُغلق فوقها مباشرة وعاد ليهبط ثم بدأ التحول يحدث..
وانطلقت صرخات سدوم الهادرة لتهز جدران القبر..
وبدأت القوة تسري في جسدها وتمنحها الشيئين اللذين قضت عمرها كله لتتوصل لسرهما:
الشباب والخلود..

* * *

استيقظ بنامون من غيبوبته الإجبارية ثم تناول الصندوق إلى صدره وتنفس الصعداء.. قام فوق قدميه وتقدم داخل الممر.. في سرعة.. في اللحظة نفسها التي وصل فيها كل من عالية وسهم وسهيل إلى حيث يوجد حزقيل والنذير واندفعوا ليخلصوا النذير من قبضة حزقيل..
لتحاصرهم الخيوط وتطبق على صدورهم وصوت حزقيل يدوي كالرعد بكلمات التعويذة..
لحظات عصيبة مرت على الجميع.. وكان الموت أقرب إليهم من حبل الوريد..
حزقيل شارف على إنهاء التعويذة وجميعهم مكبلون بتلك الخيوط التي تضغط على أجسادهم

وتكاد تمزقها في عنف شديد..
النهاية تقترب..
وحزقيل قد أتم التعويذة..
وبعدها أطاح بهم.. في قوة..
ليندفعوا نحو الحوائط الحجرية القاسية.. فيشج رأس عالية وتفقد الوعي ويتحطم جسد سهم فور ارتطامه بالجدار الصخري ويسقط صريعا.. وينجو سهيل بارتطامه بالنذير..
النذير الذي أخذ يهاجم حزقيل في عنف وقوة..
ودخل بنامون أرض المعركة في اللحظة نفسها التي ارتجت فيها جدران القبر وأخذت سحب سوداء كثيفة تخرج من كل مكان بالقبر مطيحة بالجميع كإعصار عاتٍ..
كان كل هم بنامون أن يحافظ على الصندوق في قبضته.. وعندما يئس وكاد يفلت من يده.. فتح الصندوق لتتناثر منه البذور في كل مكان..
ولم يكن سقوط البذور فوق الأرض هينا.. لقد ارتطمت بالأرض وكأنها شهب أو نيازك وتفجرت.. في اللحظة نفسها انقض النذير على سهيل وعالية وحملهما بين يديه وتلاشى..
في حين سقط بنامون مع البذور وتمزق جسده مع الانفجارات العنيفة التي اكتسحت كل شيء..
وقف حزقيل مذهولا مما يحدث..
فالبذور تحولت في لحظات معدودة إلى أشجار هائلة الحجم مدت جذورها في كل مكان ثم أخذت تخترق سقف القبر بآلاف من الأفرع الصغيرة المتوهجة.. لتصعد بسرعة هائلة نحو السماء وتنقض على تلك السحب التي كانت قد بدأت تغزو السماء وتفرض سيطرتها عليها بعد أن حجبت القمر وجعلت الظلام سرمديا..
بدا وكأن النباتات تسحب السُحُب وتنقي السماء.. وعندما فهم حزقيل ما يحدث انقض على المخطوطات.. وحاول أن يعيد الكرة من جديد، لكن فروع الأشجار أخذت تكبله في قوة وهو يمزقها ويمزقها دون أن تتوقف عن مهاجمته..
جحيم هائل من فروع الأشجار المتوهجة التي تهاجم في ضراوة وكأنها اكتسبت حياة ما وروحا قتالية خارقة..
حاول حزقيل وحاول..
لكن دون فائدة..
الأغصان من حوله تكبله وتحد من قدراته.. ولولا مقاومته لها لكانت قد أجهزت عليه من لحظات.. مع الوقت تحولت الأغصان المتوهجة إلى اللون الداكن وزادت قبضتها حول حزقيل الذي لم

تساعده قوى حاران على الإفلات من تلك المصيدة الجهنمية..
وفي القاعة الأخرى كانت صرخات سدوم تدوي وتدوي وجسدها يمتص تلك القوى الخارقة التي ستمنحها الخلود والشباب.. وبالطبع لم تلاحظ تلك الأغصان التي غزت كل مكان وأخذت جذورها تمتد إلى باطن الأرض وتحيط بالقبر إحاطة السوار بالمعصم..
ثم بدأت لحظة النهاية..
سقط مفتاح الحياة.. وانطفأ ضوؤه..
وبدأت النباتات تجذب القبر إلى أسفل..
ثارت الرمال..
تناثرت..
تفجرت..
ثم تلاشى القبر في قلب الرمال..
ومعه ساد الهدوء..
ومن مكان غير بعيد.. وقف النذير وسهيل وعالية يشاهدون اللحظات الأخيرة..
ويشاهدون القبر وهو يختفي في قلب الرمال..
وتنفس الجميع الصعداء..
وضمهم النذير ثم تلاشوا من المكان..

* * *

إلى أين أيها النذير؟ إلى أين أنت ذاهب؟!
قالها سهيل وهو واقف بجوار عالية وضوء النهار يغمر كل شيء بداخل غرفة عالية بقصر والدها..
فلم يجب النذير مباشرة وهو يشير إلى الأفق الممتد وقال:
«إلى حيث تريد الأقدار.. ما أنا إلا أداة في يدها.. لو عادت اللعنة فإني عائد لا محالة».
ساد الصمت بينهم للحظات وعالية وسهيل ينظران للنذير قبل أن يتساءل سهيل:
«ألن تخبرنا بمصير سدوم وحزقيل؟!».
استدار النذير نحوهما ثم قال:
«إن مصيرهما قاتم يا سهيل.. فها هي سدوم بعد أن نالت الشباب والخلود ستظل سجينة في تابوت القوة الحجري تحت غابة كاملة من النباتات وتحت مئات الأمتار من الرمال.. تعاني

الوحدة ومرور الزمن دون أن تحصل على ما فرت منه طوال عمرها».

قاطعته عالية بطريقتها المعتادة وهي تتساءل:

«وما هو؟!».

دوى صوت النذير عميقا ومخيفا وقال:

«الموت يا عالية.. الراحة الأبدية».

عجز عقل عالية عن تصور ذلك المصير البشع الذي نالته سدوم، لكن طبيعتها غلبتها فتساءلت من جديد:

«وحزقيل.. ما مصيره؟!».

تقدم النذير نحو النافذة وقال:

«لقد نال ما ستعجز سدوم عن الحصول عليه.. لقد مزقته قوى البذور وحصرت قوى حاران بداخل القبر».

ثم صمت قليلا واستطرد قائلا:

«لقد انتهت اللعنة.. وانتهت مهمتي.. وحان الوقت لأغادر».

«الوداع يا عالية».

«الوداع يا سهيل».

رددا في صوت واحد:

«الوداع أيها النذير.. الوداع».

تمت بحمد الله